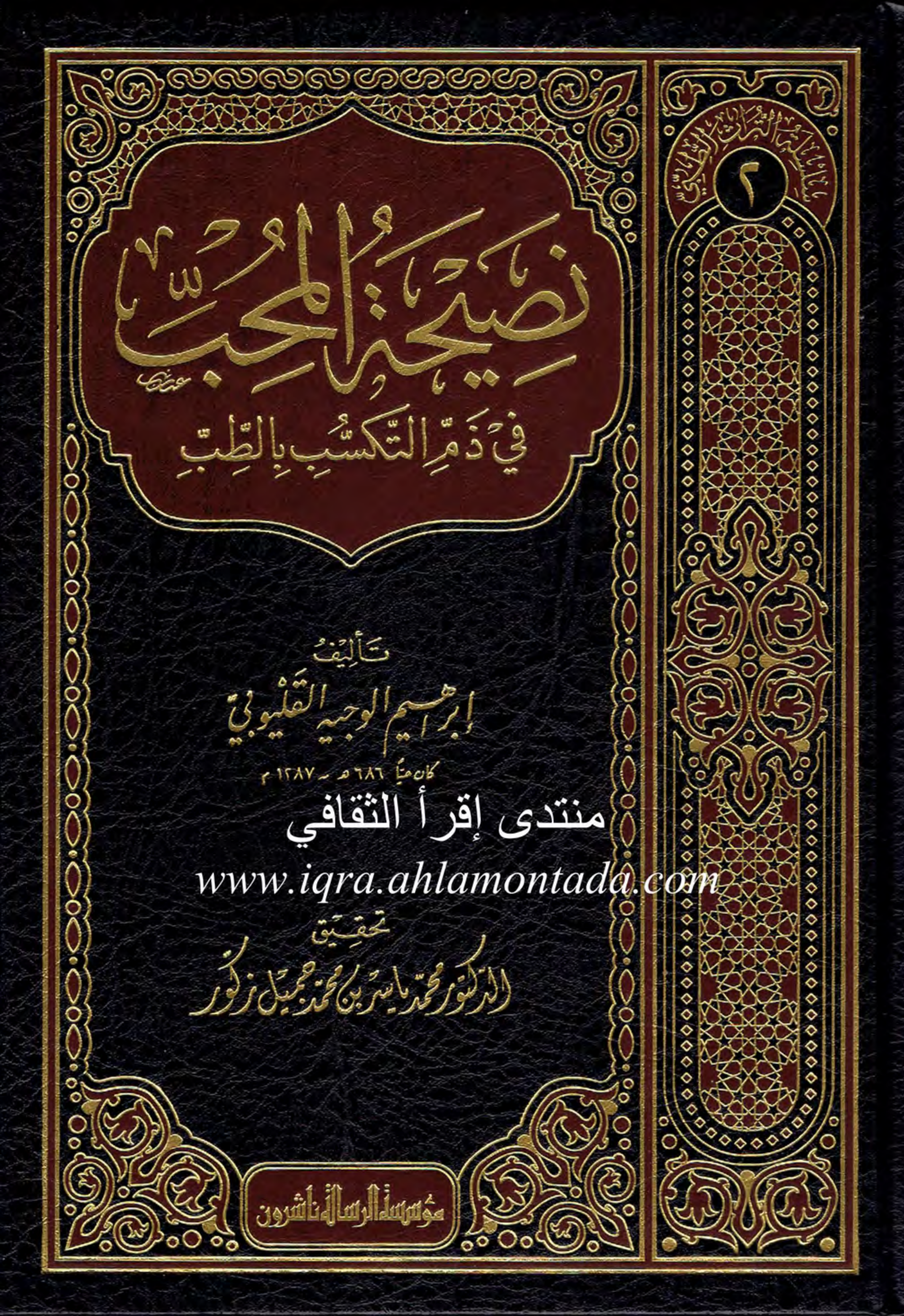

٢
نصيحة المحب
في ذم التكسب بالطب
تأليف
إبراهيم الوجيه القليوبي
كان حياً ٦٨٦هـ - ١٢٨٧م
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
تحقيق
الدكتور محمد ياسر بن محمد جميل زكور
مؤسسة الرسالة ناشرون


نصيحة المحب
في ذم التكسب بالطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

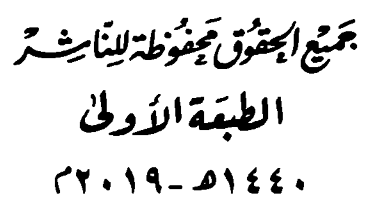
مؤسسة الرسالة ناشرون انتشار بألوان الطيف



هاتف: ٢٣٢١٢٧٥ ١١ (٩٦٣)
فاكس: ٢٣١١٨٣٨ ١١ (٩٦٣)
ص.ب: ٣٠٥٩٧

بيروت - لبنان
تلفاكس: ١٧٠٠٣٠٢ (٩٦١)
١٧٠٠٣٠٤ (٩٦١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠

Resalah Publishers
Damascus - Syria
Tel:(963) 11 2321275
Fax:(963) 11 2311838
P.O.Box: 30597
Telefax: (961) 1 700 302
(961) 1 700 304
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon



Http://www.resalah.com
E-mail: resalah@resalah.com
facebook.com/resalah2007
twitter.com/resalah1970
instagram.com/resalahpublishers.

ISBN 978-9933-23-084-5



حقوق الطبع محفوظة © 2019م لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

①

سلسلة التراث الطبي (٢)



في ذمّ التكسّب بالطبّ

تأليف

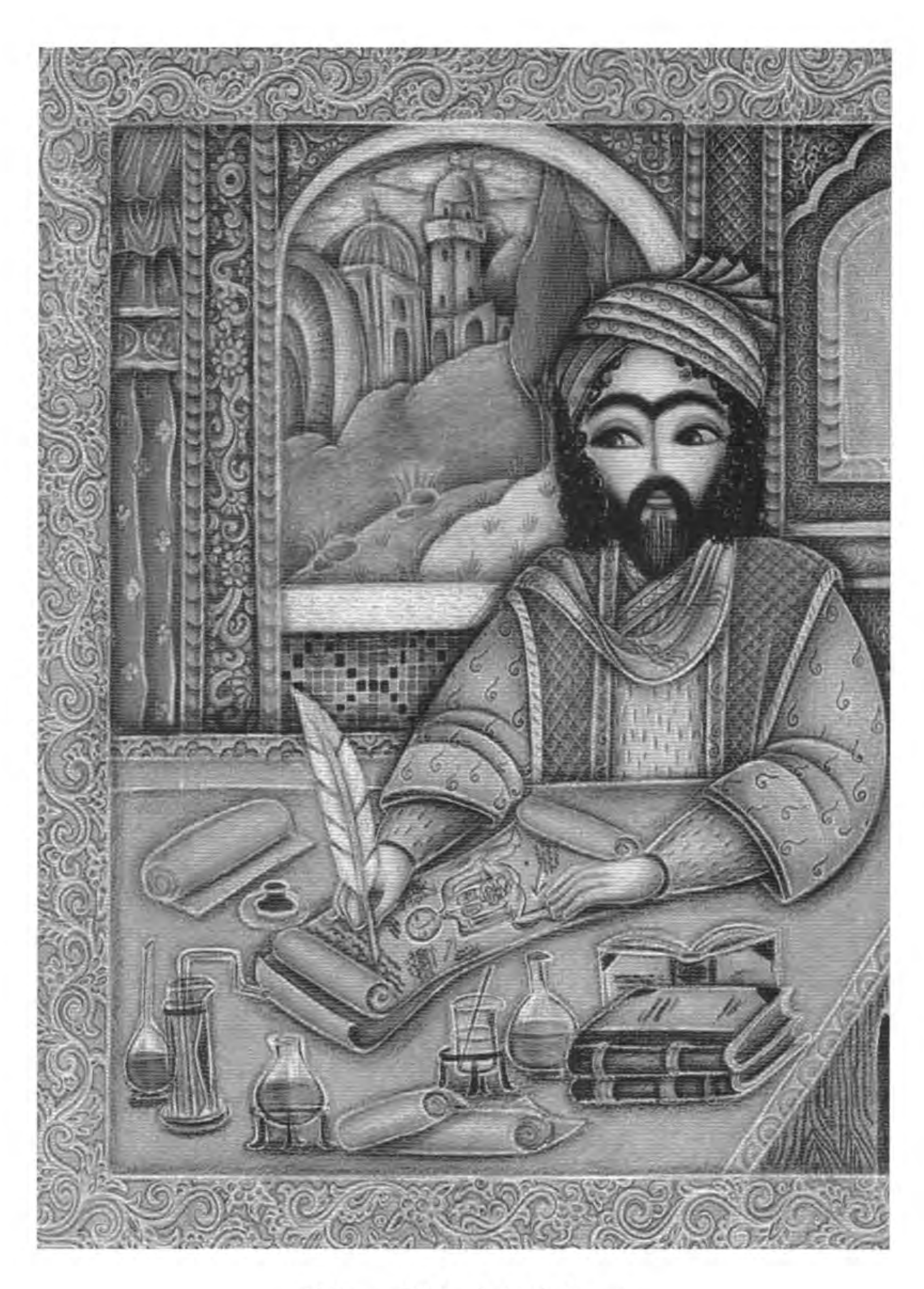
إبراهيم الوجيه القليوبيّ

كان حيًا ٦٨٦ هـ - ١٢٨٧ م

تحقيق

الدكتور محمّد ياسر بن محمد جميل زكّور

مؤسسة الرسالة ناشرون



نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطبّ

مقدّمة المحقّق

بسم الله الرحمن الرحيم

❐ الحمد لله الذي حلّانا بالصبر وجعل منه البشارة بالفوز والظفَر، نحمده أن خلق لنا العقل لنميز به الخبيث من الطيب، وجعله نوراً لطريق الخير والعمل الصالح، وفضّلنا به عمّن خلق، وأنار عقولنا لتهتدي بنور الحق، وتحمل الأمانة التي تعهّد الإنسان حملها على عاتقه، بيد أن السموات والأرض أبَيْن حمْلَها، الحمد للذي خلقنا لعبادته في كلّ شيء، نعبده في خدمة خلْقِه بما هيّأ الله لكل واحد مسلكه، فجعل المعلّم والمزارع والنجّار والطبيب والعالِمَ والفقيه مكمّلين لبعضهم البعض في تأدية الرسالة التي هيأها الله له، وأعطاه القدرة على تعلّمها، فكان خير من يحمل هذه الأمانة لتيسير أمور خلقه.

❐ وصلّى الله على سيّد الخلائق والبشر، ومعلّم الناس الخير، رسوله محمّد الذي تلقّى الرسالة بكلمة اقرأ، وقال بفضل العالِم على العابد كفضله على أصحابه، وحثّ على طلب العلم، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب في كلّ شيء مع التوكّل على الله،

وترك لنا القرآن والسنّة ما إن تمسّكنا بهما فلن نضلّ أبداً، وصلى وسلّم على جميع أنبيائه، وبعد؛

☐ فالطبُّ عِلْم قديم كقدم الإنسان، وعلم جليل كجلالته، والحثّ على تعلّم الطب بين المسلمين فرض كفاية، وقد أمر رسولنا محمد ﷺ بالتطبّب والمداواة، وأحضر الطبيب لمداواته، وأمر باتخاذ الطبيب الأكفأ والأمهر، ولجلالة وقدْر الطبيب فقد قرنه الله عز وجلّ باسمه «الحكيم»، ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه في الطبِّ أيضاً: «العلم علمان؛ علم الأبدان، وعلم الأديان»، ومن التمس مهنة الطب لذاتها، ولنفع الناس بها ـ لا للتكسّب ـ أكسبته اللذة الدائمة، والمال النافع، والذكْر الجميل، والثواب الجزيل.

☐ هذا وقد حفظ الحكّام العادلون مكانة الطبيب وعلوّه؛ كمكانة الفقيه والعالِم سواء، حتّى أنّ الخليفة المعتضد حين اتّكأ على يد طبيبه ثابت بن قرّة الحرّاني، نتر المعتضد يده قائلاً: «سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون؛ فإنّ العلماء يَعْلُون ولا يُعلَون».

❐ ولكن هذا الشرف العظيم للطبيب لا يكون إلّا بالتمتع بالأخلاق النبوّية حقًّا من الطبيب في التفاني لخدمة مريضه، وإنكار ذاته، وتزكية نفسه، والابتعاد عن الدنايا، والاستزادة من العلم والمطالعة، والمحافظة على النواميس الشرعيّة والطبّيّة التي أُمر بها.

❐ أمّا موضوع التكسّب بالطب؛ فأقولها بصراحةٍ وأنا طبيب لأربعين سنة، وأقسم بأنّ الله لا ينسى المخلصين له في الدين والعمل، وسيرزقهم ويكفيهم ويحفظهم ويبارك لهم ولا يعوزهم مادام هدفهم مصلحة المريض أولاً وآخراً بما يرضي الله ورسوله، أما أن تنقلب المهنة إلى وسيلة تكسّب محضة، فهذا ما ذمّه المؤلّف في هذا الكتاب، وأفاض في أسبابه ونتائجه، حتّى وصل به الأمر إلى ترك المهنة.

❐ أقول: إن ترك المهنة لغير ذويها ومستحقّيها لمجرّد تعرّض الطبيب لإساءات قد يتراجع عنها المسيء عاجلاً أو آجلاً، فهذا ليس بحلّ، بل على الطبيب التحلّي بالصبر والأخلاق والقيم، فهو ليس كغيره من البشر، نعم ليس كغيره من السوقة

والطرقية والمستهترين بنفوس الناس، بل كرّمه الله ليكون كذلك في الجلال، فليكن على قدر المسؤولية والأمانة التي وضعت في رقبته. ولذلك هناك البعض ممّن أنكر على أبقراط نشره الطب بين العامّة بعد أن كان محصوراً في عائلة إسقليبيوس تلميذ هرمس إدريس النبي عليه السلام.



توطئة لهذا الكتاب

بقلم الأستاذ حسام كدرش(١)

إنّها لثمرة جديدة من ثمار إنتاجه الفكريّ، وضعها الدكتور محمّد ياسر زكّور بين يدينا في تحقيقه لهذا الكتاب «نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطبّ» لصاحبه إبراهيم الوجيه القليوبيّ.

لعلّ المتبصّر يرى كيف أنّ في كلّ اختصاصٍ مهنيّ أو فكريّ ينبري بعضُ رجالاته لتبيان ما في الاختصاص من شؤون وشجون؛

ففي الشعر مثلاً وضّح الحطيئة وُعورة مسالك الانخراط فيه لغير أهله، حيث قال:

الشِّعر صعبٌ وطويلٌ سلّمُهْ ... إذا ارتقى فيه الذي لا يعْلَمُهْ

وفي دلالة أخرى لدَوْر الشعر وابتعاده عن التملّق والتكسّب من الأمراء قولُ نزار قبّاني:

لا يبُوسُ شعري اليدين وأَوْلى ... بالسلاطين أن تبُوسَ يديه

ولعلّ في مقُولة الإمام الشافعيّ ـ رحمه الله ـ في آداب العمل الدَّعَوِيّ تناصٌّ مع هذه الفكرة حين قال:

(لأنْ أرتزق بالرقص أهْوَنُ من أنْ أرتزق بالدِّين)

---

(١) كاتب وشاعر سوري.

وهو نفسه ما ذهب إليه الفيلسوف أبو العلاء المعرّيّ في دَوْر رجال الدين عندما قال :

لعلّ أناساً في المحاريب خوّفوا بآيٍ كناسٍ في المشارب أطربوا

إذا رام كيداً بالصلاة مُقيمُها فتاركُها عمداً إلى الله أقربُ

وهكذا دواليك في أمثلة كثيرة على موضوعة الكتاب التي لم يكْتَفِ مؤلِّفُه القليوبيّ بها ، بل وضَحَ اشتغالُه أيضاً في الصياغة الأدبيّة ، وجمال التعبير ؛ فتراه يرصّع الكلام على طريقة المقامات ، ويدلّل بالأشعار.

ومن بليغ ما قاله مثلاً : «أيّ مروءة لمن يتعرّض إلى التصرّف في نفوس الناس لإقامة حظّ نفْسه».

ومن جميل حِكَمِهِ الموشّاة بحُسْن البديع قولُه : «كلّما كان الرجل مختصراً في لبسه ، جليلاً في أفعاله ونفْسه ، كان ذلك أدلّ على المروءة مِن عكْسِه».

وتكمن أهمّيّة الكتاب في تأريخه لمرحلة عاش فيها القليوبيّ ، تروي باقتدارٍ شغفَ المختصّين والباحثين لسمات المجتمعات في تلك المرحلة ، وما كان عليه العاملون في الطبّ من حال ، وما درَج في استخداماتهم من أقوال وأفعال.

ولعلّ من غرائب ما ورد في متن الكتاب قصّة الإسكافيّ الذي مرّ به المهذّب الدَّخْوار الطبيب ، فوجده يضرب ابنه ويقول له : «والله يا ابن الفاعلة ، لأعلمنّك طبيباً».

إنّ الدكتور ياسر أصاب باختياره لهذا الكتاب ، وهو ثريّ ليُفْتَحَ ويُطوَى ، وبين دفّتيه ما هو أمْتَع وأرْوَى.

أنطاكية

٢٠١٧م

بين يديّ الكتاب

❐ إنّ هذا الكتاب «**نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطبّ**» كان لمؤلّفه المبرّرات التي ذكرها في أسباب تأليفه؛ منها أنّ الهدف في تأليف الكتاب كان مصروفاً إلى تحذير من كان اتّخذ هذا العلم للاكتساب، واكتفى من الاجتهاد فيه بالانتساب ـ كما ورد في خطبة الكتاب ـ وتخويف أهل الدين منهم يوم الحساب، وأنّه وضع هذا الكتاب ليكون للكيّس الفطن كالنذير، وللغمِر الجاهل كالمنبّه والمشير.

❐ كما ويقول المؤلّف عن الكتاب: «وإن كان ظاهرُهُ كشفَ معايب هذه الصناعة وشوائبها، والتنبيه على خطر عواقبها، فإنّ الغرضَ به تبصرةُ الطبيب، عساه أن يتحفّظ ما أمكن عن هفواته، وتبصير المُستطِبّ لكي لا يُحرم نفع الطبيب بامتهانه، وتحذير الطبيب من مواضع يغلّطه بها المستطِبّون، وتعليم المستطِبّ المواضع التي يغلط فيها المتطبّبون».

❐ ويبرّر المؤلف أيضاً ذلك بوصف شرف المهنة إذا انحرف عن ذلك بقوله: «**فصناعة** الطبّ من هذه الجهة صناعة جليلة المقدار، عجيبة الأسرار، لذيذة عند النفس، مبصّرة لأهل الشوق إلى الحقّ، إلّا أنّها إذا تجاوزت هذا الحدّ الشريف إلى التبذّل للاكتساب، والذلّة في الوقوف على الأبواب، ومعاملة الأراذل، وإفهام الجهّال ما لا يكاد يفهمه الفاضل؛ صارت نوعاً من الحُمق، وضرباً من الخمول، وسقوطاً من المروءة، وذلك أنّ المروءة عند أهل الدنيا هي الترفّع عن الدناءة، وكرم الأخلاق، والجلَد على تحمّل المكارِه، والسعي في طلب المعالي، والهرب من

المعايب والنقائص ونقص الهمّة، ولو كان في ذلك على النفس أذىً، أو في المعيشة ضعف».

إلّا أن هناك من قال بسبب تأليف الكتاب: كان عن عدم محالفة الحظّ للمؤلف في الطبِّ بعد أن مهر فيه، فنرى ما جاء في تعريف المؤلِّف من قبل مصحّح المخطوط بعد أكثر من ثلاثة قرون، وكتبه في صفحة الغلاف قائلاً: «إبراهيم بن يوحنّا الوجيه القليوبي، الطبيب الأديب الفاضل، أصله من قَلْيوب، اشتغل بالأدب، ثمّ عنّ له تعلّم الطبّ، فاجتمع بأبناء بني حُليقة بمذهب الدين وعلم الدين، فاشتغل عليهما، ومهر في الطبّ وتحرّف به، ولم يساعده الحظّ فيه، فحمله ذلك على أنّه ألّف هذا الكتاب، وسمّاه «**نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطبّ**».



ترجمة المؤلّف وعصره

❐ لم تذكر كتب التراجم اسم مؤلّف الكتاب، إنّما عرف من خلال المخطوط بين أيدينا بأنّ اسمه **إبراهيم بن يوحنا الوجيه القليوبي** ـ كما مرّ معنا قبل، والقَلْيوبي؛ نسبة إلى قَلْيُوب، وهي قرية بمصر كما جاء في (ذيل لب اللباب في تحرير الأنساب ص٢٠٣)، ولقد عاش المؤلِّف في القرن السابع الهجري، لأنّه أخذ علم الطب عن مهذّب الدين محمّد بن رشيد الدين بن أبي حُلَيقة ـ كما ورد عن لسان المؤلِّف في الورقة [٥/ ظ]، ومهذّب الدين محمّد بن أبي حُلَيقة هذا عاش بين (٦٢٠ ـ ٦٧٩هـ) كما وردت ترجمته في (هدية العارفين أسماء المؤلِّفين ج٢ ص ١٣٣، وفي عيون الأنباء ج٢ ص١٣٠، ومعجم المؤلِّفين ج٣ ص٢٦٧)، كان نصرانيّاً ثم أسلم في أيّام الملك الظاهر بيبرس، وبنى المدرسة المهذَّبيّة خارج باب زويلة من خط حارة حلب بجوار حمّام قماري (كما ورد في الخطط المقريزيّة ج٢ ص٣٦٩).

❐ والمؤلّف إبراهيم بن يوحنا الوجيه القليوبي كان حيّاً سنة (٦٨٦هـ) تبعاً لما جاء في متن المخطوط الورقة [١٠٣/ و ـ ١٠٤/ ظ]؛ حيث شهد وفاة القاضي وجيه الدين البَهَنْسي، وورد قبل ذلك في الورقة [٩٧/ و] من المخطوط ذِكْرُ معالجته لعز الدين بن شداد (توفي ٦٨٤هـ). ولعله عاش بعد ذلك إلى نهاية القرن السابع أو بداية الثامن، والله أعلم.

❐ وكما ورد في صفحة غلاف المخطوط فإنّ المؤلِّف كان قد اشتغل في الأدب، ثم تعلّم الطبّ ومهر فيه وتحرّف، لكنه لم يساعده الحظّ فيه، فألّف هذا الكتاب، ولعلّه الكتاب الوحيد الذي عرف له.

❐ **على** أنّ المؤلّف ذكر في خطبة الكتاب [**الورقة ٨/ و**] أنّه أُمِرَ بكَتْبِ محضرٍ في علم الطبّ ليؤهّله للمباشرة في مهنة الطبّ، وقال في خطبته: «الحمد لله الذي منح الخلْق نعماً كانت الصحّة أجلّها...» يقول: «ثمّ نسجت على هذا المنوال، في ذكر الأمزجة والأخلاط والقوى والأرواح والأفعال، وتلوتها بذكر الصحّة والمرض والأسباب والعلامات، ثمّ ختمتُ بذكر كلّيّات المداواة». ولم نعثر على أثر لهذا المَحضر.



نسبة الكتاب إلى المؤلِّف

❐ إنّ نسبة الكتاب إلى مؤلّفه جليّة في صفحة غلاف المخطوط حيث ورد فيها : **كتاب نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطبّ لإبراهيم الوجيه القليوبي**، ثم تعريف بالمؤلّف، وقد ذُكر.

❐ أمّا ما ورد في صفحة الغلاف ذاتها عن كتاب آخر (كتاب صغير في ذم الطبّ) لعبد الودود بن عبد الملك؛ فهو عدّة ورقات بعنوان «رسالة في ذم التكسب بصناعة الطب». وهذا المخطوط يتألف من (٥ ورقات) من (ص١٢٣ ـ ص١٢٨) ضمن مجموع برقم (٦٩١/ ٥) بمكتبة حكيم أوغلي باشا، مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة ـ كما جاء في (فهرس المخطوطات المصورة ج١ قسم٢٢ ص٥٥١)، وفي فهرس مخطوطات الطب الإسلامي لرمضان ششن (ج١ ص٥٢٤).

❐وفتشت عن اسم الطبيب عبد الودود فوجدت في ترجمة أوحد الزمان أبي البركات هبة الله بن علي ملكا (٤٨٠ ـ ٥٦٠هـ) ـ في كتاب (عيون الأنباء ١/ ٢٧٨) قال ابن أبي أصيبعة: وحدثني الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي (الدخوار)

قال: حدثني موفق الدين أسعد بن إلياس بن المطران (٥٨٧هـ) قال: حدثني الأوحد بن التقي قال: حدثني أبي، قال: حدثنا **عبد الودود الطبيب** قال: حدثني أبو الفضل تلميذ أبي البركات المعروف بأوحد الزمان قال: كنا في خدمة أوحد الزمان في معسكر السلطان... إلخ». فلا ندري إذا كان هو المقصود. وقد أشرت إلى ذلك في حاشية صفحة غلاف المخطوط فيما بعد.



النسخة الخطّيّة للكتاب

❐ للكتاب نسخة وحيدة في مكتبة جوتة بألمانية تحت رقم (Ms. Orient. A 1907) ووردت بياناته في فهرس مخطوطات جوتة في الصفحة (٤٥٢ ـ ٤٥٣):

١٩٠٧ (arab.564; Stz. Dam. 64) «**نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطب**» فيه تحذير من إبراهيم الوجيه القليوبي حول تعلّم الطب وممارسته بسبب الأخطاء الكثيرة فيه، يبيّن فيه الأسباب لهذا التحذير.

❐ يقع المخطوط في (١٨٥) ورقة، كلّ صفحة فيها (١٣) سطراً، عدد الكلمات في كلّ سطر (٨) كلمات وسطيّاً، قياس الصفحة (١٧,٥ x ١٢,٥) لون المداد بني غامق، العناوين كتبت بالحُمرة، الخط نسخي قديم، لا يوجد اسم لناسخ أو تاريخ للمخطوط، لعلّه بخط المؤلِّف والله أعلم. الكلمات غير منقّطة، يوجد تصحيح وتنقيط وحواشٍ باللون الأسود لبعض الكلمات في المخطوط من قِبَل شخص آخر، وضع اسمه في صفحة الغلاف سنة ١٠٠٤هـ لكن الاسم مطموس، كما يوجد ترميم للمخطوط بنفس خط الكاتب الثاني لبعض الصفحات أشير إليها في أماكنها عند ورودها، كما يوجد بتر في أجزاء من بعض الصفحات ذكرت عند ورودها أيضاً.

❐ العنوان واسم المؤلف فيه ترميم من الكاتب الثاني «**كتاب نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطب لإبراهيم الوجيه القليوبي**».

❐ ثم بخط الكاتب الثاني ما يلي: «إبراهيم بن يوحنّا الوجيه القليوبي، الطبيب الأديب، الفاضل، أصله من قَلْيُوب (محلّة بالقاهرة)، اشتغل بالأدب، ثمّ عنّ له تعلّم

الطب، فاجتمع بأولاد بني حُليقة بمذهب الدين وعلم الدين، فاشتغل عليهما، ومهَر في الطبّ وتحرّف به. ولم يساعده الحظّ فيه، فحملَه ذلك على أنّه ألّف هذا الكتاب، وسمّاه **نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطب**».

❐ فالقسم الأوّل في ذمّ الطب من حيث الدنيا الحاضرة، والقسم الثاني في ذمّه من حيث الآخرة، والباب الأوّل من القسم الأوّل في أنّ التكسّب بالطب يُذهب المروءة، والباب الثاني في أنّه يُذهب الحياء، والباب الأوّل من القسم الثاني في أنّه يقدح في العقل، والباب الثاني في أنّه يقدح في الدين.

❐ بدايته: الحمد لله الدائم البقاء، العالي على الفناء...

❐ نهايته:... وفي آخرتك من أخطارها وأوزارها والعقوبة على ذنوبها ومضارّها، والله يهديك بالعقل والدين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، إن شاء الله تعالى. والحمد لله وحده ربّ العالمين، وسلامه على كافّة أنبيائه والمرسلين.



2) Allgemeines.

(Betrachtungen über Werth und Unwerth der Medicin u. dgl.)

1907.

(arab. 564; Stz. Dam. 64.)

نصيحة الحبّ في ذمّ التكسّب بالطبّ, eine Abmahnung vom Studium der Medicin, von ابراهيم الوجيه القليوبى. Über den Verfasser, sowie den Grund, welcher ihn zur Abfassung seines vorliegenden Buches bewog, hat eine fremde, flüchtige Hand auf Fol. 1ª Folgendes angemerkt: ابراهيم بن يوحنا الوجيه القليوبى الطبيب الاديب الفاضل اصله من مدينة قليوب[1]) اشتغل بالادب ثم عنّ له تعلّم الطبّ فاجتمع باولاد بنى خليفة بمذهب الدين وعلم الدين فاشتغل عليهما ومهر فى الطبّ وتحرّف به ولم يساعده الحظّ فيه [Hs. فى] فحمله ذلك على انّه ألّف هذا الكتاب وسمّاه نصيحة الحبّ فى ذمّ التكسّب بالطبّ. Die Eintheilung seines Buches giebt der Verfasser selbst mit folgenden Worten (Fol. 10ᵇ) an: فالقسم الاوّل فى ذمّ الطبّ من حيث الدنيا الحاضرة [Hs. الحاظرة] والقسم الثانى فى ذمّه من حيث الآخرة والباب الاوّل من القسم الاوّل (Fol. 11ª) فى ان التكسّب بالطبّ يذهب المروّة والباب الثانى (Fol. 127ª) فى انّه يذهب الحياء والباب الاوّل من القسم الثانى (Fol. 141ª) فى انّه يقدح فى العقل والباب الثانى (Fol. 161ª) فى انّه يقدح فى الدين.

---

[1]) In der Nähe von Kairo.

Anfang: الحمد لله الدّايم البقا العالى على الفيا (sic! l. الفنا)

185 Blätter (17,5×12,5 cm), die Seite zu 13 Zeilen; alte, flüchtige, die diakritischen Punkte grösstentheils weglassende Hand. Eine spätere Hand hat Correcturen angebracht, auch die verblassten Züge der alten Hand hie und da, besonders im Anfange, mit schwarzer Dinte überfahren. Fol. 8, 9, 21 u. 26 sind von späterer Hand ergänzt, Fol. 81 u. 82 mit Verletzung der Schrift ausgebessert.

محتويات المخطوط

خطبة المؤلِّف: [١/ ظ]

يبدأ المؤلِّف في كتابه «**نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطب**» بمقدّمة يتحدّث فيها بعد البسملة والحمد ـ على سبب تعلّمه مهنة الطب، بعد أن كان يعمل بالأدب. ثم تتلمذه على مهذّب الدين محمد بن أبي حُليقة، وكتابة محضر في الطب يؤهّله للتصرّف في العلاج ومباشرة عمل الطبّ.

ثمّ ينكشف له هوان الطبّ وأخطارُه، وذلّ التكسّب به، فلذلك ألّف هذا الكتاب الذي كان أكبر همّه فيه مصروفاً إلى تحذير من اتّخذ هذا العلْم للاكتساب.

❐ وقد قسّم المؤلّف الكتاب إلى قسمين، وكلّ قسم إلى بابين؛

القسم الأوّل: في ذمّ الطبّ من حيث الدنيا الحاضرة:

❐ وجعله في بابين:

● **الباب الأوّل** [١١/ ظ]: في أنّ الاكتساب بعلم الطبّ يُذْهب المروءة؛ وكان هذا من أطول فصول الكتاب، حيث تحدّث فيه المؤلِّف بإسهاب عن جميع الأشكال التي تظهر على الإنسان من المروءة، ويُذهب ذلك المتكسِّب بصناعة الطب.

● **الباب الثاني** [١٢٨/ و]: **في أنّ الاكتساب بالطبّ يذهب بالحياء**؛ وفيه يتحدث المؤلِّف عن ما يضفيه الحياء على وجه الإنسان من ماء وبشاشة، وأنّ صناعة الطبّ تقتضي للاكتساب بها ذهاب ذلك الحياء من صاحبها، بحيث يكون كالمكاديّة وهم الشحّاذون.

القسم الثاني: في ذمّ الطبّ من حيث الآخرة:

❐ وجعله أيضاً في بابين:

● **الباب الثالث (الباب الأوّل من القسم الثاني)** [١٤٢/ ظ]: **في أنّ الاكتساب بالطب**

يقدح في العقل؛ ويبدأ فيه المؤلّف بالحديث عن أهمّيّة العقل ومراتبه، وأنّه أشرفُ ما وُهب للإنسان، وأنّه محتاج إليه في صناعة الطبّ أكثر ممّا يحتاجه في غيره من الصنائع، كون الطبّ صناعة خفيّة عن الحسّ، ليست كالنجارة والحدادة وغيرها. وأنّ الاكتساب بصناعة الطبّ ممّن يظنّ أنّه يوفي الصناعة حقّها ليتناول الأجرة عنها حلالاً أمرٌ قادح في العقل.

● **الباب الرابع (الباب الثاني من القسم الثاني)** [١٦٢/ و]: **في أنّ التكسّب بالطبّ يقدح في الدين**؛ يبدأ المؤلِّف هذا الباب بقوله: إنّ الدين أو العبادة هو الغاية المطلوبة بوجود الإنسان، فإذا حصّل الإنسان جملة مُلْك الدنيا، وفاته الدينُ فهو خاسر. أمّا من كان يتّصف بالعبادة الصحيحة في كلّ أمر فهو موفّق في الدنيا وسعيد في الآخرة. أمّا صناعة الطبّ فتقتضي لأهلها عند الناس الانحلال في العقائد والاستهتار في العبادات، وتعلّق الذمّة في المعاملات. (طبعاً هذا رأي المؤلِّف). ويصفهم بانحلال العقائد، والتقصير في العبادات، ويبدو أنّ ذلك لغلبة اليهود على صناعة الطبّ في عصره، وكذلك يسري ذلك في المعاملات والذمّة، بسبب كثرة أهل الحِيَل والطرقيّة أيضاً. وهنا يؤكّد المؤلِّف على أنّ أشدّ ما على أفاضل الأطبّاء اشتراكُهم مع أمثال هؤلاء في الاسم والصناعة، وهم على ما يتّصفون به من قلّة الدين.

❐ يختم المؤلّف كتابه في الورقة [١٨٥/ ظ] بالتحذير من صناعة الطب، والنصح بتركها (وهذا من الأخطاء الفادحة طبعاً) أمام هذه السلبيات التي فيها، فضلاً عن الأخطاء التي تحصل فيها، ومما يذكره من قصص وروايات القصد منها لذمّها والابتعاد عنها، ثمّ يقول: «فارجع إلى عقلك ودينك، ولا تسلّط وهمك على نفسك، واجعل نصيحتي هذه فوزاً بيمينك، لتستريح في دنياك من هوان هذه الصناعة، وشؤمها وهمومها وغمومها، وفي آخرتك من أخطارها وأوزارها، والعقوبة على ذنوبها، ومضارّها. (وهذا لا يبرّر أبداً ترك المهنة للمتلاعبين بها دون الأشراف وأهل التقوى).

عملنا في الكتاب

❐ كانت الصعوبة الكبرى في إثبات النص، كون المخطوط نسخة وحيدة، فلم نعلم له نسخة أخرى في أيّ من مكتبات العالم حسب بحثنا، والصعوبة الأخرى أنّ الكاتب الثاني الذي صحح في المخطوط ووضع بعض النقط ورمم ما مسح منه أو بتر؛ كان هذا التصحيح أحياناً في لَبس من حيث صحة ما صحّحه، حيث أزيلت معالم الكلمة الأصلية، فلو كان المصحح عمل نسخة أخرى باسمه كان ذلك أمثل وأصوب، لذلك بقيت بعض الكلمات غامضة، وبعض الفِقَر ولكن بالندرة حسب المستطاع. إضافة لذلك فإن المؤلِّف استعمل بعض التعابير المحلّيّة المصريّة بلهجة العوامّ، فكان في ذلك صعوبة في ضبط الكلمة أو الفقرة بدقّة، فأستميح القارئ عذراً في ذلك، والكمال لله وحده.

❐ أشرت إلى بداية كل صفحة برقمها بين حاصرتين، فمثلاً [١١/و] تعني وجه الورقة (١١)، [١٥٥/ظ] تعني ظهر الورقة (١٥٥). وصحّحت ما يمكن تصحيحه وأشرت إلى ذلك برقم في الحاشية، وشرحت بعض ما يلزم شرحه من مفردات مع

الاختصار حتى لا أقحم الحواشي كثيراً، وقمت بتخريج الآيات القرآنية، والأقوال والأشعار مع ذكر مصدرها برقم في الحاشية أيضاً ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

❐ عملت فهارس عامّة للكتاب، وأشرت إلى مكان وجود المفردة برقم الصفحة من المخطوط الأصلي، وذلك كيما يتغيّر عند الطباعة، ولاسيّما أنّ كلمات كلّ صفحة قليلة وعدد الصفحات كثير يسهل الرجوع إليها. ووضعت ثبتاً للمصادر والمراجع التي استخدمتها في التحقيق.

والله الموفّق

ياسـر




كتاب
نصيحة المحب في ذم
التكسب بالطب
لإبراهيم الوحيد
القليوبي

صفحة غلاف «نصيحة المحبّ في ذمّ التكسّب بالطبّ» (١/و)

(متن المخطوط Ms. Orient. A 1907)

(صفحة الغلاف)[1] [١/و]

كتـــاب

نصيحة المحبّ

في ذمّ التكسّب بالطِّبِّ

لإبراهيم الوجيه

القَلْيُوبي

(٢)

---

(١) ما بين قوسين من وضعنا.

(٢) كتب على صفحة الغلاف هذه، بالأيسر وأعلى الصفحة وبخط مغاير للخط الأصلي طمس بعضها: (... بن عمار سنة ١٠٠٤هـ).

والعنوان واسم المؤلف فيه ترميم بالخط الحديث المغاير للخط الأصلي للمخطوط.

= وكتب بنفس الخط الحديث المغاير بوسط الصفحة: (إبراهيم بن يوحنا الوجيه القليوبي؛ الطبيب، الأديب، الفاضل، أصله من مدينة قليوب، اشتغل بالأدب، ثم عنّ له تعلم الطب، فاجتمع بأولاد بني حُلّيقة (خليفة بالأصل) بمذهب التدين وعلم الدين، فاشتغل عليهما، ومهرَ في الطبّ، وتحرّف به، ولم يساعده الحظّ فيه (في بالأصل)، فحمله ذلك على أنه ألّف هذا الكتاب، وسمّاه «نصيحة المحب في ذم التكسب بالطب».

أقول: (حُلَيقة) بالأصل خليفة، وهذا غير صحيح، ويقصد بأولاد بني حُليقة؛ هما رشيد الدين (٦٦٠هـ) وابنه مهذب الدين (٦٧٩هـ). وتفصيل ذلك في ترجمته.

كما كتب بأسفل أيسر الصفحة أيضاً: (كتاب صغير في ذمّ الطب) لعبد الودود بن عبد الملك.

أقول: لعلّه الطبيب عبد الودود الذي عاصر أوحد الزمان هبة الله بن علي ملكا (٥٦٠هـ). وهو عبارة عن عدة ورقات.

وجاء في فهرس المخطوطات المصورة (معهد المخطوطات العربية) ج١ قسم ٢٢ ص٥٥١، ميكروفيلم ـ القاهرة معهد المخطوطات ٣٥مم. حكيم أوغلي باشا ٥/ ٦٩١ ـ سياسة واجتماع: رسالة في ذم التكسب بصناعة الطب (مصغر ذم التكسب بصناعة الطب) عبد الودود بن عبد الملك الطبيب (القرن ٩هـ) لعله يقصد تاريخ النسخ- ٥ ورقات (من ص١٢٨- ص١٣٣) ٢٧ سطر.

(عن موقع معهد المخطوطات

http://41.32.191.214/cgi-bin/koha/opac-ISBDdetail.pl?biblionumber=38965)

وذكرها رمضان ششن في فهرس مخطوطات الطب الإسلامي ج١ ص ٥٢٤ (رسالة في ذم التكسب بصناعة الطب).

(مقدّمة المؤلِّف)(١)

[١/ظ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه أستعين

الحمدُ لله الدائمِ البقاء، العالي على الفناء(٢)، الغنيّ عن الأشياء، المرتدي بالجلال والكبرياء، دافعِ الأدواء، وواهبِ الشفاء، وميسّر للإنسان(٣) الصحّة لمن يشاء من الأحياء. نحمدُه وهو المحمود وحده على السرّاء والضرّاء، ونسبّحه وهو المسبَّح طوعاً وكرهاً ممّن في الأرض والسماء، **وبعد**؛

فإنّي والحمد لله منذ بلغتُ أشدّ مثلي، وبلغت إلى بارقةٍ من عقلي، لمْ تحنّ إلى غير العلوم نفسي، ولمْ تجمح لي خيولُ الصِّبَى إلى شهواتِ حسّي، بل منذ كنت صغيراً متعلّماً لم أزل حريصاً على علمٍ يُستفاد، [٢/و] مشغولاً عن لعبِ الأتراب ولو بكلمةٍ حسنةٍ تُستزاد، وأنا مع ذلك أحنّ إلى ذكْر العلْم حنين الغريب إلى وطنه، وأسكنُ بالطبع إلى أهل العلوم سكون الخليلِ إلى خلّه وسكنه.

---

(١) ما بين قوسين من وضع المحقق.

(٢) بالأصل الفياء.

(٣) بالأصل (للنسان) يوجد إعادة تحبير على أكثر الكلمات بقلم أحدث من الأصل، لعلها بالأصل للناس، ولعلّ المخطوط بيد المؤلّف، والله أعلم.

فأوّل ما أخَذ[١] قلبي علمُ الأدب بزُخرفه، وشاقني بفنون ملَحه وطُرَفه، ورأيتُه علْماً ينطّق اللسان، ويفتّق الأذهان، ويطرد اللُّكَن، ويحسّن المنطقَ ولو كان المعنى ليس بالحسَن، فتزوّدت منه الكفاف، وتحلّيتُ من مذهَّبات نظمِه ونثرِه بما أتجمّل به بين الأدباء الظراف. ثمّ رأيت أنّه ليس من العلوم العامّة، ولا العربيّة[٢] بلغة كلّ أمّة، وأنّه وإن اشتمل [٢/ ظ] على قواعد مشترك فيها بين اللغات، فإنّه ليس من العلوم التي تُكْسِب العقلَ أفضلَ الملكات. فملْت إلى العلوم الدينيّة، وعزّزتها بما يزيد فيَّ استبصاراً في فهم أسرار الديانة من العلوم العقليّة.

ولمّا بلغت السنَّ الذي يُكلَّف بالغُه الأعمال المعاشيّة، والتخفيفَ عن المتكفِّل بطعامه ورياشِه[٣]؛ عرضْتُ علَى النفْسِ جميعَ الحرَف المناسبة لأهل الترَف، والموسومةِ بالرئاسة والشرف؛ كالفقْه والقضاء، وصناعة العدول والخطباء، وكتابة الحساب والإنشاء، فما راقتْ لي منها صناعة، ولا وجدتُ النفسَ إليها مطواعة.

أمّا [٣/ و] الفقهاء؛ فذووا إملاق ودقّة أرزاق، وغاية أجلهم أن يُستفتَى إذا كان فاضلاً، وقد يخطئ الصواب؛ فيقْتُل، ويقطَع، ويجلِد باطلاً.

---

(١) لعلها كذا بالأصل، ومصححة بالخط المغاير (اتخذ).

(٢) مصححة في الحاشية (القريبة) بقلم إعادة التحبير على الكلمات، وهذا ما غيّر بعض رسم الكلمات، مما صعّب قراءة الكلمة أحياناً.

(٣) الرياش: هو اللباس.

وأمّا القُضاة فيذوقون مرارة العزل بعد التمكين، ويُذبحون من الخصوم بغير سكّين .**وأمّا** العُدول فيَقذِفون بِزُورِ الكلام، ويكابدون عند الأداء صولةَ الحكّام، ويُنسب ما يتأدّونه على الشهادة إلى الحرام، ويَنْكَبّون عند القسمة بالمناقشة على أخسّ الأقسام.

وأمّا الوعّاظ والخطباء فمُتولّون منابرَ الأنبياء، ومُتحلّون بحُلى الأولياء، والأبصار ترمقُهم من سائر الأرجاء، فمتى لم تكن أفعالُهم أفضلَ من [٣/ ظ] أقوالهم، وما يعِظُون به الناسَ بعضَ أحوالهم؛ تطرّقَت الألسنُ إلى كشف عيوبهم، وقيل: «إنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم».

وأمّا كَتَبَة الحسابات؛ فمتّهمون بالسرقات ويُصادَرون في أكثر الأوقات .**وأمّا** كتاب الإنشاء؛ فنُسّاخ بالأجر، ومؤاخذون بالسرّ إذا ظهر.

ولمّا ازدريتُ هذه الصنائع لعائبها، وسوءِ عواقبها؛ خطر ببالي أنّ صناعةَ **الطبّ** هي المنهجُ السالم، والمتجرُ الغانم، إذ كانت ممّا يَحتاج إليه كلُّ إنسان، ويُطلب في كلّ زمان، وينفق في كلّ مكان، ويُخطب[1] من كلّ سُوَقة وسلطان، ولا يُستغنى عنه مادامت الناس في أبدان. وصاحبُها يُهرع إليه [٤/ و] عند الشدائد، ويُنزّل في الحياة منزلة الوالد، ثمّ جانبُه من الكافّة موقّر، ورزقُه عن المناقشة موفّر، يُعطاه ونفْسُه متعزّزة أنِفة، ويُحمل إليه على صورة الهديّة والملاطفة.

هذا ومهنته شريفة، وآلاتها خفيفة، إذ كان عملُها رأياً يشير به على ذوي السقم،

---

(١) أي يطلب.

وآلتُها ليس سوى قرطاسٍ ودواةٍ وقلم، وعيادتُه المرضى محسوبةٌ من حسناته، وعطاؤه على ذلك يُعدّ من أقلّ مكافآته، ولايزال ملحوظاً بالفضل والأفضال، ولا يأكل طعامَه بعد توفية الاجتهاد إلّا من أحلّ الحلال، ولا يؤذَى خاطرُه من أحد ـ إذ كان يُرجَى لمصلحة الأنفس، ولا يُخشَى منه على [٤/ظ] الأموال(١).

ولمّا استحضرتُ للطبِّ هذه المناقب، ورأيت أنّه أنفعُ العلوم وأهنأ المكاسب؛ تُقْتُ إلى تعلّمه توقان الصادي(٢) إلى الزلال، وحنّيتُ إليه حنين الناقص إلى الكمال، فسألتُ الخبيرَ بأئمّته، وبالغْتُ الفحص لعلّي أسقط على ابن نجدته، فانتهى بي الدأب، فأدّاني الطلب، إلى جمال دهرهم، وطراز عنصرهم، والسادة النجباء، والكرام الأدباء، والرؤساء على الأطبّاء؛ بني الرئيس الفاضل الرشيد الذي عمر رَبع المجد الدارس، المعروف بابن أبي حُلَيقة بن الفارس(٣). فشممت بهم روح الأنس، ووجدت بمكانتهم(٤) شفاء النفس، وألفيتهم عصبة يتهلّل البشر من مفارقهم، [٥/و] ويقطر المجد من معاطفهم؛ إذا بدَوا خِلْتَ النجومَ تشرق، وإذا تكلّموا قلتَ:

---

(١) **هذا ما كان يظنه المؤلف في فضل الطب، بينما نجد أن ما جاء به في هذه الفقرة يتعارض تماماً مع ما جاء به في نهاية الكتاب حتى نراه يصل إلى أن الأطباء لا ينظر إليهم يوم القيامة، من شدة نقمته على هذه المهنة الشريفة.**

(٢) الصَّدى: شدّة العطش (ابن منظور: لسان العرب).

(٣) يقصد مهذب الدين محمّد بن أبي حُليقة رشيد الدين بن الفارس، وأخاه علم الدين إبراهيم أبا النصر. قال ابن أبي أصيبعة في نهاية ترجمة مهذب الدين (٢/ ١٣١): والأخ الآخر علم الدين أبو نصر، وهو الأصغر، مفرط الذكاء، معدود من جملة العلماء، متميّز في صناعة الطبّ، وافر العلم واللب. وهما ابنا رشيد الدين (٦٦٠هـ).

(٤) بالأصل مكاونتهم؛ وهي من العامية تعني المشاجرة والتحدي والمعاركة والمصارعة.

«الجوزاءُ تنطق»، قد أحسن خَلْقَهم وخُلُقَهم الصانعُ الباري، فهُم يتلألؤون ولا الدراري،

مَن تَلْقَ منهم تقُلْ: «لاقَيْتُ سيِّدَهم» مثلُ النجوم التي يسري بها الساري[١]

وطالعْتُهم بما وفدْتُ لأجله عليهم، وشددت لطلبه الرحَال إليهم؛ من الشوق إلى تعلّم الطبِّ، وأنّ عندي إليه وَلَهَ الصَّبِّ المحبّ، فما منهم إلّا من أجاب دعوتي، واعتزّ[٢] لبُغْيتي، فأوْسَعَ لي في المحلّ، وعطفَ عليَّ عطْفَ المثريِّ على المُقِلّ، وأسعفني بالقَراء[٣] قبل الإقراء، وما حلّ لي أنحني[٤] حتى سمح بالحباء.

[٥/ظ] إلّا أنّ أكبرَهم سنّاً، وأعظمهم ذهناً، وهو شيخهم المجرَّب، والذي هذَّبَتْه العلوم فهو كاسمه المهذَّب[٥]، كان كلّما خلا بي في مجلسه، وظفرتُ منه بسكونه إليّ وأُنْسِه، أسهبَ في ذمّ اتّخاذ الطبِّ سبباً، وأخذَ ممّن له ذهن ولا يخْشَ بدناءة الاكتساب به عَجَباً، وجزَمَ بأنّ أحداً لا يُقْدِم على معالجة الأدواء، حتّى يَعْرَى من العقل والدين والمروءة والحياء، وحكَى أنّه أحسّ برداءة هذه الصناعة قبل تعلّمها، وشعر بأنّها أجمحُ المطايا قبل تسنّمها.

---

(١) البيت للعرندس الكلابي، وقيل: هو أبو العرندس، من بني أبي بكر بن كلاب. (معجم الشعراء للمرزباني ص٢١٣).

(٢) مصححة على الهامش بالخط المغاير: وأتميز.

(٣) القراء: الضيافة (المعجم الوسيط).

(٤) الكلمة غير منقوطة بالأصل- كما هو حال أكثر الكلمات، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٥) هو مهذب الدين محمد بن رشيد الدين أبي حُليقة (٦٧٩هـ).

وسأل والدَه منذ راهق أن يُعْفِيَه من هذه الصناعة[١]، وأن يعلّمه التجارةَ أو الزراعة، هذا مع ما يشاهد [٦/و] والدَه فيه يومئذ من الدرجات العليّة، والخلعِ البهيّة، والمواهبِ السنيّة، حتّى إنّه رآه وقد خُلع عليه في يوم واحد ثلاثون خلعة شريفة، إحداها خلعة مولانا الإمام الخليفة. وما يُعطَى من الذهب المكيّس، وما له من الأقطاع المحيّس[٢]، وهو في عزّ دائم، وجاه قائم، مبجّل من فلولِ علماء، ووزراء حكماء، إذا دعي من أحدهم دُعي دعاء الوالد، وإذا انصرف انصرف مملوء المزاود[٣]، وقد اقتنى من ذلك الخيل والخَوَل[٤]، والحلي والحلل.

قال: «وأنا مع ذلك لا أزداد من الطبِّ إلا نفوراً، ولا أجد في نفسي لتعلّمه نشاطاً ولا سروراً، مِن غير [٦/ظ] أنْ أباشر مساوئَه بالعمل، إلّا شعورٌ من الطبع السليم عن الزلل، حتى إذا دخلْتُ في التقمّص بشعارِه قسراً، ولم أستطع أن أعصيَ للوالد في ذلك أمراً؛ شاهدتُ من معايبِهِ، ولقيت من شوائبِهِ، أضعافَ ما كانتْ النفْسُ تكْمنُهُ، والذهن يحدسُهُ ويخمّنُهُ.

هذا وقد اتّفق لي فيه أمران سعيدان، وتهيّأ لي حالان حَمِيدان؛ **أحدهما** أنّني

---

(١) لذلك نرى الكثير من الأطباء وغيرهم يريدون لأبنائهم أن يكونوا مثلهم أو مثل ما يرونه على الأطباء المرموقين، وهذا من الأخطاء الشائعة قديماً وحديثاً، لأن مهنة الطب لا تورث كغيرها من الصنائع وذلك لحساسيّتها وصعوبة سلوكها والتعايش مع أصناف الناس بآلامهم واتهامهم الطبيب بالتقصير، إلا من رحم ربك.

(٢) المحيوس: الذي قد أحدقت به الإماء من كل وجه (المحيط).

(٣) المِزْوَد: جلد الماعز أو الغنم المدبوغ يحمله المسافر على ظهره وفيه زاده. (تكملة المعاجم).

(٤) الخول: العبيد والنعم (المحيط).

لا أخاطب[١] إلّا الملوكَ والوزراء، والصدورَ والأمراء، وإلّا الأكابرَ الأعيان، وفي أقلّ الأزمنة والأحيان، وتقضي لي سعادة الجد أن لا أعالجَهم إلّا في المرض السليم، وأن يُحال بيني وبينهم في الداء الوخيم، [٧/و] فأمّا أوساط الناس؛ فلا يؤمّلون[٢] مني بلوغ هذا المراد، فضلاً عن العامّة والسواد[٣]، فربّما قطعت العام والعامين ولا يتّفق لي أن أعالج واحداً أو اثنين .**وثانيهما** أنّ أمرِي في الحكماء هو المطاع، ولم يزَل لي من دونهم الجرايات والأقطاع»[٤].

فحين أطنَبَ في ذمّ هذا الفنّ، خيّل لي ـ والمحبّ مولعٌ بسوء الظنّ ـ أنّه يريد بذلك الصدّ والإبعاد، أو امتحان الرغبة والاجتهاد. فما أورثني قولُه إلّا أُواماً[٥]، ولا زادني عذله[٦] إلّا وجداً وغراماً؛ فكنت كما قيل:

كأنّ من لامني في الحبّ يُغريني[٧]

فبالغتُ في الاهتمام، واستغرقت الجهد في بلوغ [٧/ظ] هذا المَرام، وألّا أحُطّ رحلي دون هذا المقام، وحملتُ قول المشار إليه والمشير، كما حُمل قول أبقراط:

---

(١) كتب على الحاشية بخط الترميم بالمداد الأسود: لا أطبّ.

(٢) بالأصل يأمّلون.

(٣) طبعاً هذا مخالف لشرائع وقوانين الطب.

(٤) انتهى كلام المهذب، ويعود الكلام للمؤلف.

(٥) الأُوام: شدة العطش. (لسان العرب).

(٦) العذل: اللوم. (لسان العرب).

(٧) لعل أصل القول من بيت للبحتري: يكاد عاذلنا في الحب يغرينا (ديوان البحتري؛ أبو عبادة الوليد بن عبيد ٢٨٤هـ، ص ٢٢٠٠).

«العمر قصير»[١]، على التحريض لا التعريض، والتنشيط لا التثبيط، حتّى إذا حصّلت من العلم والتدرّب ما أحتاج، والتمست منه الإذن بالتصرّف في العلاج، كان ـ حرسه الله ـ كما قيل[٢]:

أمَرتهمُ أمري بمنعرج اللوَى فلم يستبينوا النُّصحَ إلّا ضحَى الغَدِ

فلمّا عصَوْني كنت منهم وقدْ أرَى ضلالتَهم رُشداً وإنّي لمهتدي

وكقول الآخر[٣]:

وخِلٍّ كنتُ عينَ النصح منه على حالٍ ومُستمعاً مُطيعا

[٨/ و][٤] أطاف بِغَيّةٍ ونَهَيْتُ عنها وقلتُ تجنّب الأمرَ القطيعا

أردتُ رشادَه جهدي فلمّا عصَى أمْري ركِبْناها جميعا

فأذِنَ بكتبِ محضرٍ، فأنشأتُ فيه خطبة تدلّ على جودة الفهم، وتشتمل على أكثر أصول هذا العلم، وأوّلها: الحمد لله الذي منح الخلْق نعماً كانت الصحّة أجلّها،

---

(١) القول مشهور لأبقراط: العمر قصير، والصناعة طويلة.

(٢) القول في (ديوان دريد بن الصمّة) ص٦١:

أمرتهمُ أمري بمنعرِج اللوى فلم يتبينوا الرشد إلا ضحى الغدِ

فلما عصَوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأنني غيرُ مهتدي

(٣) القول في (شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٤٨٧):

وخِلٍّ كنتُ عينَ النُّصحِ منه إذا نظرَتْ ومستمعاً سميعا

أطاف بِغَيَّةٍ فنَهَيْتُ عنها وقلتُ له: أرى أمراً شنيعا

أردت رشادَه جَهدي فلمّا أبى وعصَى أتيناها جميعا

(٤) هذه الصفحة حتى [٩/ ظ] هي بخط مغاير لأصل المخطوط، وهي بمداد أسود، ولعله المستخدم في ترميم بعض الكلمات كما ذكرت قبل.

وأنعم عليهم بمنح كانت العافية جلّها، وأتْبَع صحّة النفْس صحّة البدن إذ كان موضوعها ومحلّها، ووقف حصول العلوم على حصول الصحّة الموقوف على علم الطبِّ فكان بمرتبين قبلها. وتبارك الله الذي جمع بين الأضداد من العناصر، وفسّر كيفيّاتها على الامتزاج وكانت النفس هي القاسِر[1]، واستخرج من جملتها مركّباً هو لكلّ [٨/ ظ] واحد منها مُغايِر، ثمّ خلع عنه صورة وحدة التركيب بالانحلال فهو إلى عدد ما تركّب منه صائر.

ثمّ نسجت على هذا المنوال، في ذكر الأمزجة والأخلاط والقوى والأرواح والأفعال، وتلوتها بذكر الصحّة والمرض والأسباب والعلامات، ثمّ ختمتُ بذكر كلّيّات المداواة.

فافتتن بها مشايخ هذه الصناعة، وشهدوا بعد المباحثة بالأهليّة والكفاية والبراعة، ثمّ كمّل المكتوب ـ أسعده الله ـ بالإسجال، وأنعم بالإذن في المداواة متفضّلاً بالإكرام والإجلال.

وبلغتُ الأمل، [٩/ و] وابتدأتُ على اسم الله في العمل، وباشرتُ المرضى في البيوت والأسواق، وشاركتُ في علاجهم الأطبّاء المقصّرين منهم والحذّاق، وحضرني كلّ داهية من القوابل والدايات، وأصحاب الحيل والترّهات، والتجأت إلى مخاطبة الخواصّ والعوامّ من الناس، وذي المكر والالتباس، والعالِم والجاهل، والظالم والعادل، والجليل والحقير، والغنيّ والفقير، والمشايخ والصبيان، والرجال

---

(١) أي التي تجبر وترغم.

والنسوان، وإلى مخالطة الكحّالين والجرائحيّة، والمجبّرين والآسية[(١)]، والعشّابين والطُّرُقيّة[(٢)]، والصيادلة والحواة[(٣)] الوحشيّة.

فانكشف [٩/ظ] لي هوانُ الطبّ وأخطارُه، وذلّ التكسّب به وصَغارُه، وهوانُ المتّسمِ به وعارُه، وهفواتُ المقصّر فيه وأوزارُه، وعلمْتُ صحّةَ ما أشار به المهذّب الحكيم، وأنّ شعورَه به قبل مزاولته لدليل على نفْسٍ أبيّة وطبعٍ سليم.

وحرّكتني الحميّة لأبناء الجنس، والرحمةُ لأهل أدب النفس والدرس، على أنْ أصنع لهم كتاباً يكون للكيّس الفطن كالنذير، وللغَمِرِ الجاهل كالمنبّه والمشير، **وأكْبَرُ همّي فيه مصروفٌ إلى تحذير مَن اتّخذ هذا العلم للاكتساب**، واكتفَى من الاجتهاد فيه بالانتساب، وتخويف أهل الدين منهم يوم الحساب، ولكي أبيّن للمجتهد منهم أنّ ساعده فيه عن [١٠/و][(٤)] الاجتهاد منحسرٌ، وأنّ مدارَه على أمرين؛ التجربة وهي خطَر، والقضاء وهو عسِر.

ثمّ ما أدوّنه في هذا الكتاب ـ وإن كان ظاهرُهُ كشفَ معايب هذه الصناعة وشوائبها، والتنبيه على خطر عواقبها، فإنّ الغرضَ به تبصرةُ الطبيب، عساه أن يتحفّظ

---

(١) الآسية: هي المعالجة والمداوية، والجمع آسيات وأواس. (كتاب العين) .**الآسِي**، بالفتح وكسر المهملة: الطبيب، والجمع أُساة كقُضاة، والأسَى بالفتح والقصر: المداواة والعلاج، والحزن، والإساء بالكسر والمدّ: الدّواء. (اصطلاحات الطب القديم). وهنا المقصود جمع آسي.

(٢) الطرقية: هم الأطباء الدجالون الذين يبيعون الدواء في الطريق. (تكملة المعاجم).

(٣) الحواة: هم المشعوذون. (تكملة المعاجم).

(٤) يعود الخط هنا إلى الأصل.

ما أمكن عن هفواته، وتبصير المُستطِبّ لكي لا يُحرم نفع الطبيب بامتهانه، وتحذير الطبيب من مواضع يغلّطه بها المستطِبّون، وتعليم المستطِبّ المواضع التي يغلط فيها المتطبّبون.

ولست أخليه من بعض تهكّم بأصحاب هذا العمل، وتنبيه المُتعاطين منهم على أنّهم عند الناس بهذا المحلّ، [١٠/ظ] لعلّي بذلك ـ وإنْ لم أقدر على صدّ العاشق المتهالك، أنْ أُكسِبَه صورة المتثيّب المتمالك، وأعلّمه أنّه ليس هنالك.

ثمّ لا أجعله كلّه حدّاً، ولا أبالغ فيه في الفكاهة حدّاً، بل أمزجه بدُعابة تطيّب مذاقتَهُ، وتمكّن من القلوب علاقتَهُ؛ فإنّ الأكثرين أمْيَلُ إلى الهزل، والطبيعة فيها أظهرُ من العقل.

❐ وقد قسمته إلى قسمين، وكلّ قسم إلى بابين:

■ **فالقسم الأوّل**: في ذم الطبِّ من حيث الدنيا الحاضرة[1].

■ **والقسم الثاني**: في ذمّه من حيث الآخرة.

■ **والباب الأوّل من القسم الأوّل**: في أنّ التكسُّب بالطبِّ يذهب المروءة.

■ **والباب الثاني**: في أنّه يُذهب الحياء.

[١١/و] ■ **والباب الأوّل من القسم الثاني**: في أنّه يقدَحُ في العقل.

■ **والباب الثاني**: في أنّه يقدح في الدِّين.

---

(١) بالأصل الحاظرة.

وإنّما قسمته على أربعة أبواب مطابقة لقول الرئيس[١] الذي قدّمته في صدر هذا الكتاب، وقد بدَتْ عنه في تعليل حكمه، وإن كان ذلك مغترَفاً من بحر علمه، وسمّيته «**نصيحة المحبّ في ذمّ الاكتساب بالطبّ**»، والله المستعان على الخير، والمستعاذ به من الضَّيْر، وهو المسئول غفرانَ الذنوب والهفوات، والإعانة على اكتساب الخيرات العقليّة قبل الفوات، إنّه سميع عليم رؤوف رحيم.



(١) يقصد رشيد أبا حليقة. ولعل المقصود في الأبواب الأربعة هي ما جاء عن لسان مهذب الدين: العقل والمروءة والحياء والدين.

الباب الأوّل من القسم الأوّل
في أنّ الاكتساب بعلم الطبِّ [١١/ظ] يُذهب المروءة

اعلم أيُّها الطالب للاكتساب بعلم الطبِّ ـ أرشدك الله إلى الصواب، وعصمك من وصْمة هذا الاكتساب، أنّ علمَ الطبِّ ـ وإن كان جليلاً قدْرُه ـ عظيمٌ خطرُه، لأنّه يقف العالِم به على بليغ حكمة الصانع وقدرته، وتلطّفه(١) وسياسته، ويكشف للمخلوق من الخالق سرّ عظمته، وأنّه قد أودع هذا البدن الذي هو من أقلّ مخلوقاته، وأصغر موضوعاته ـ من المنافع والآيات والحكَم البالغات ما يعجز الذهن عن حصرها، ويقف دون إدراك كنْهِ سرِّها.

وقد اجتهد القُدماء من العلماء ـ وخصوصاً **جالينوس** ـ غاية الاجتهاد، ولم [١٢/ و] يبلغوا من الإحاطة بذلك بعضَ المُراد؛ فإنّ جالينوس وضع كتابه المعروف في «**منافع الأعضاء**»، فذكر فيه ما أراد على العدد من المنافع التي تتعلّق خاصّة بصُور الأعضاء ومقاديرها وعددها، ووضْعِها من حيث الحكمة الهندسيّة فقط، وهو مع ذلك مُقرٌّ بالتقصير، معتذرٌ فيما أتى به من ذلك المقدار اليسير.

وإنّما جاءت الحكمة الإلهيّة في خلق هيئة كلّ عضوٍ صالحةً لفعله، موافقة للمطلوب به؛ **كخلْق الكفّ** مثلاً مُقعّرة الراحة، محدّبة الظهر، ومفصّلة الرسغ والمشط والأصابع، وخلق الأصابع خمساً فقط، وكون الوسطى أطْوَلَها، ثمّ تتدرّج

---

(١) بالأصل وتلطيفه.

في القصر منها إلى الخِنصِر [١٢/ظ] وإلى الإبهام، وكون الإبهام في وضعه يعادل الأربع أصابع الأخرى، وكون الأنامل منها أُدْغمت بالأظفار.

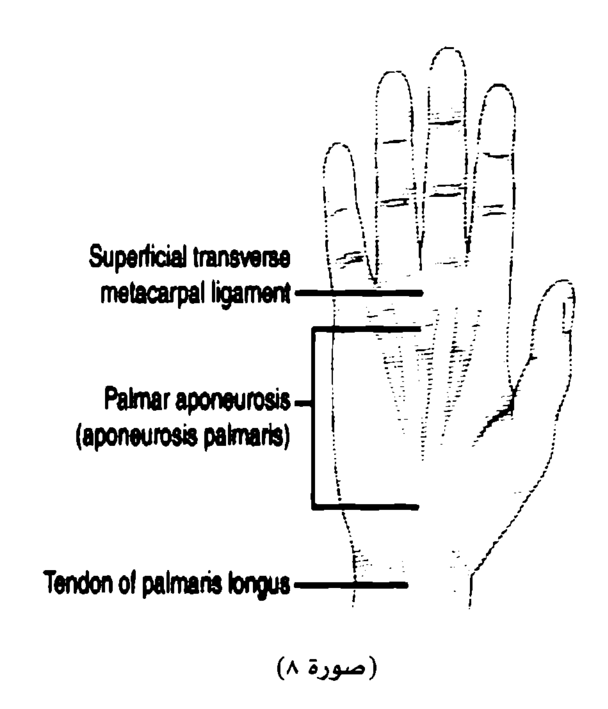
وأمّا منافع الظفر، وكون الراحة أجري عليها من تحت الجلد غشاء عصبانيّ صلب(١) لكيلا ينفذ منه البخار الدخاني فينعقد شَعراً. كلّ ذلك ليتمّ فعل الكفّ في القبض والاشتمال، وإحساس الراحة والأنامل بالمقبوض عليه، وهذا علمٌ يتهيّب عليه المُشاهدة، وهدى إلى معرفته الغاية من فعله.

فأمّا الأسرار التي لا تشاهد بالبصر، ولا تُدرك بالبحث والنظر، فإنّها لا تُحصَى ولا تُحدّ، ولا تُسْتقصَى؛ مثل السرّ في كون المرأة خُلقت بغير لحية، وكون الصبيّ

---

(١) يسمى في الطب الحديث aponeurosis وهو صفاق رقيق قوي في راحة الكف.

Ex. Palmar Aponeurosis



(صورة ٨)

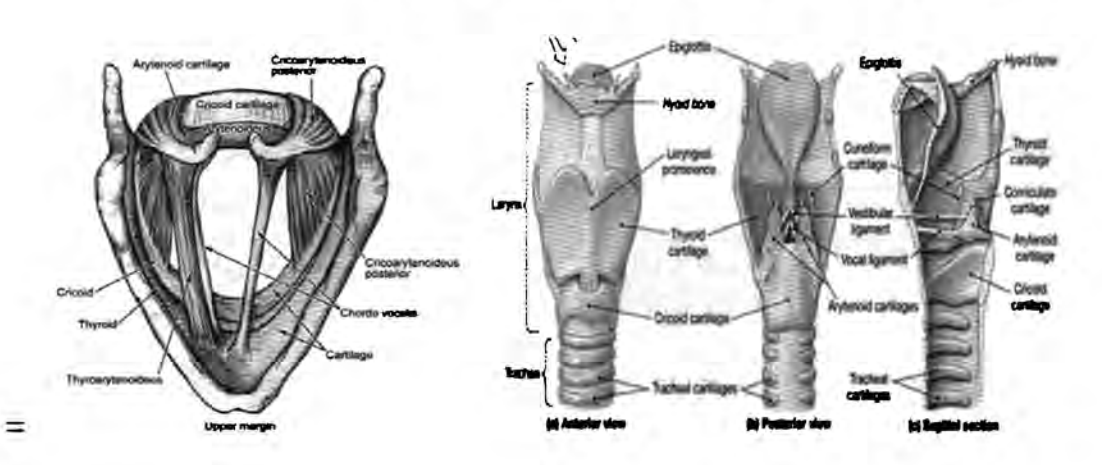
يتأخّر نبات لحيته إلى قريب العشرين سنة من عُمره، وما العلّة في [١٣/و] ذلك. ومثل السرّ في امتناع نبات اللحية بعد الإخصاء، وما تعلُّق الأنثيين باللحَى[١]. ومثل السر في خلق الثديين للرجل، وليس كذلك بقيّة ذكور الحيوان الآخر. ومثل السرّ في كون الوجه إذا كان الوجه خالياً من الشعر حرّك النظر إليه بشهوة الجماع، وإذا علاه الشعر لم تتحرّك الشهوة إليه، وما العلّة في هذه الصورة المخصوصة، ولـمَ كان هذا حدّاً للجمال، ونبات الشعر مُذهباً له. ومثل السرّ في كون الصبيّ إذا بلغ الحلم غلُظ صوتُه بعدما كان في رقّة أصوات النساء، وما الذي فعله الاحتلام في ذلك الوقت.

وأمّا ما هو أدقّ من هذه الأسرار؛ مثل أنّ الطبيعة عملت من النُّغم [١٣/ظ] المختلفة من الحدّة والثقل ببخش واحد في الحنجرة، يضيّقه ويوسّعه بانضمام **الطرجهاري إلى الدرقي**[٢]، والدرقي إلى الذي **لا اسم له**[٣] تارة، وتباعُدُهما أخرى،

(١) هو معروف بالطب الحديث أن ذلك يتعلق بهرمون الأندروجين.

(٢) هما غضروفا الحنجرة الطرجهاري **Arytenoid**، والدرقي **Thyroid cartilage**.
وهذا ما من شأنه أن يشد الحبال الصوتية أو يرخيها فيغير التواتر وهو عدد الهزات في الثانية **Hetrz**، والتي تغير النغمة.

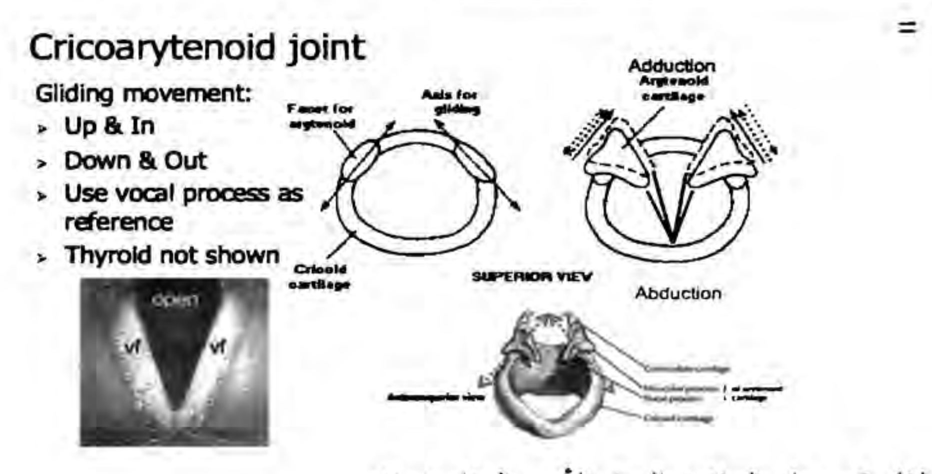
(٣) هو العظم اللامي **Hyoid bone**. وهذه غضاريف الحنجرة:



ما لا توفّيه الأبخاش الكثيرة في الآلات المصنوعة، ولا الأوتار الكثيرة، وكيف يولّف النُّغم المحتاج إليها من غير رويّةٍ[١]، وفي زمان خفيّ عن الحسّ.

ومثل أنّ القوّة الواحدة المميّزة، أو المغيّرة، تفصل هذه أو تغيّر هذه من الأخلاط البسيطة عند الحسّ، ثمّ ما يصلح أن يصير صلباً أبيض في العظم، ولدناً علِكاً في العصب، وفيما بينهما في الوتر[٢].

ومثل أنّ السطح في **الجليديّة الموازي للثقب العنبيّ**[٣]؛ ينطبع فيه أو يخرج منه[٤] [١٤/و] مخروط من الشعاع ينطبق على نصف كرة العالم، وينفذ إلى فلك البروج فيبصر الكواكب الثابتة وبيننا وبينها مسافة آلاف سنين.



(١) كتب على الحاشية بالمداد الأسود المغاير: وزنه.

(٢) أضاف في الحاشية بالمداد الأسود المغاير: والرباط، وأحمر كمداً متلزّزاً في الكلى، وأحمر صافياً متخلخلاً في الرئة.

(٣) الجليدية: هي العدسة Lens، والثقب العنبي: هو البؤبؤ ثقب القزحية Pupil.

(٤) قوله: ينطبع فيه أو يخرج منه: لو بقي على الأول (ينطبع فيه) لكان الصحيح، لأن نظرية الإبصار كانت بخروج مخروط النور من العين إلى الجسم المرئي وقد دحضت هذه من قبل ابن الهيثم في نظرية الإبصار بأنه بشعاع يخرج من الجسم المرئي إلى العين، وهي الثابتة حالياً.

فتلك أسرار تُشعر العقل بعجزه عن إدراكها لعظمة مقدارها والعالِم بسرّها، هذا مع العلم بمنافع الحيوان والنبات والمعدن، ومضارّها، وما لها من المناسِبات والمنافِرات بينها وبين أعضاء مخصوصة؛ كمناسبة الطبيب للأعضاء الرئيسة، وخصوصاً القلب، ومضادّه المبيّن لها، وكالمضادّة التي بين الذراريح(١) والمثانة من دون بقيّة الأعضاء، ومثل أنّ السقمونيا(٢) تخطف المرّة الصفراء خاصّة من أقطار البدن، [١٤/ ظ] والأفثيمون يخطف المرّة السوداء، والغاريقون(٣) يخرج البلغم، وأنّ فعلها كفعل المغناطيس في الحديد.

وهذه المناسِبات، والمضادّات؛ تارة تنسب إلى المِزاج، وتارة يعجز عن تعليلها للحيرة فيُتوكّأ على الحاسّة المحيّرة، وذلك أيضاً من العلوم الجليلة والمنبّهة على عظيم عنايةٍ من الصانع.

فصناعة الطبّ من هذه الجهة صناعة جليلة المقدار، عجيبة الأسرار، لذيذة عند النفس، مبصّرة لأهل الشوق إلى الحقّ، إلّا أنّها إذا تجاوزت هذا الحدّ الشريف إلى التبدّل للاكتساب، والذلّة في الوقوف على الأبواب، ومعاملة الأراذل، [١٥/و] وإفهام الجهّال ما لا يكاد يفهمه الفاضل؛ صارت نوعاً من الحُمق، وضرباً من الخمول، وسقوطاً من المروءة، وذلك أنّ المروءة عند أهل الدنيا هي الترفّع عن الدناءة، وكرم الأخلاق، والجلَد على تحمّل المكارِه، والسعي في طلب المعالي،

---

(١) الذراريح: واحدتها ذرّوحة، طائر كالزنابير لونها بني تكثر في الربيع وتهوى النبات كثيراً والضوء. سامة للمثانة وتقرحها (اصطلاحات الطب القديم).

(٢) سقمونيا: نبات يسمى المحمودة، مسهل.

(٣) الأفثيمون، والغاريقون، أنواع نبات.

والهرب من المعايب والنقائص ونقص الهمّة، ولو كان في ذلك على النفس أذىً، أو في المعيشة ضعف ـ كما قال المتنبّي:

تلذّ له المروءةُ وهي تؤذي ومن يعشقْ يلذّ له الغرامُ[1]

وكما قال أيضاً:

وترى المروّة والفتوّة والأبوّ ةَ فيّ كلّ مليحةٍ ضَرّاتِها

هنّ الثلاثُ المانعاتي لذّتي في خلْوتي لا الخوفُ من تَبِعاتِها[2]

[١٥/ظ] فمن المروءة الصبر عن الشهوات، وأن لا تُبذل النفس، ويُباح العرض، ويُضاع حسن الثناء، ويحتمل سوء المعاملة والمخاطبة والذكْر، حرصاً على بلوغ مقصد أو نيل شهوة.

والمروءة تظهر على الإنسان من طعامه وشرابه ولباسه وركوبه، وحركته وسكونه، وصناعته ومعاملته، وكرمه وعلومه، **وكأنّ المروءةَ عبارةٌ عن جَلَد القوّة الحيوانيّة على طلب ما يستحسنه العقل**، وهربها ممّا يستقبحه من السياسة المدنيّة والمنزليّة، وسرعة النهوض إلى ذلك، وعدم المهابة فيه.

والمتكسّب بصناعة [١٦/و] الطبِّ تلجئه صناعته إلى ذهاب المروءة في ذلك كلّه، ممّا يتبيّن لك **فصلاً بعد فصل**؛

فأوّل ما يأخذ في الاشتغال بهذا العلم يعزم لا على أنّه يكتسب علماً يطّلع منه على أسرار المخلوقات، ويعْلم به حكمة الصانع في المصنوعات، ويزكّي نفسه

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ص ١٠٣.

(٢) البيتان في ديوان المتنبي ص١٨٦.

بجنس الملكات، بل على أن يحصّل شيئاً ولو كان كذباً يقتني به الدرهم والدينار، ويلبس بها الثياب الكبّار، ويتشكّل بشكل الحشمة والوقار، ويُلحظ بعين الاحترام والتعظيم، وأنّه سوف يقال له: «يا مولاي الحكيم»، [١٦/ظ] وتراه يقرأ ـ على شحّه ـ وهو عجلان، ويودّ لو قطع الكتاب في ساعة بل في آن، ولا يبالي أصحيحٌ أم صحّف، أم بدّل الكلمة أم حرّف.

ولقد حضرت رجلاً من الصدور كان يشتغل بعلم الطبّ على بعض مشايخه، وكان يقرأ باباً ويصفّح بابين، وإذا قطع في أمسه إلى الباب العشرين مثلاً ثمّ حضر اليوم وسأله الشيخ: «أين بلغت»؟ قال: «إلى العشرين»، فخلوت به وقلت له: «ما الفائدة التي تحصُل بهذا الاشتغال وأنت تصفّح أكثر الكتاب، والذي تقرأه أيضاً تقرأ منه سطراً وتهمل سطرين»؟ فكان جوابُه أنْ قال: «علم الطبِّ علمٌ يمْكن [١٧/و] الإنسان أنْ يطالعه ويفهم معانيه من غير شيخ ولا مُوقّف، وليس المراد بقراءتي على الشيخ إلّا لكي يَكتب لي على الكتاب، ويسهّل لي الإجازة والأهليّة».

وكان هذا العامل يقرأ أكثر أسماء الأمراض والأدوية مصحّفة[١]، وما علِمَ أنّ الشيخ الرئيس ابن سينا ـ على جلالة قدره وغزارة علمه ـ لمّا اقتنع برأيه في قراءة

(١) حاشية بالمداد الأسود المغاير لخط المخطوط الأصلي: فيقول في مرض الفعل إنه مرض العقل- بالقاف- ويسمي السكّر الشحري بالشين المعجمة والحاء المهملة- بالجيم المفتوحة نسبة إلى السجر، ويسمي ليحيطوس- وهو الدواء المعروف بالحرباء ـ ليخيطوش بالخاء المعجمة والشين المعجمة، ويظن الكرمة البيضاء والسوداء عنباً لو عن العنب الأبيض والأسود، ويسمي العَبلين المعروفين بالفخذين الموضوعين من الدماغ العنبين فبدل الباء الأول بالنون. ومثل ذلك كثير لو عددته.

الأدوية المفردة صحّفها تصحيفاً فاحشاً؛ فأورد الدواء المسمّى بنطافلن[١] بتقديم الباء على النون ـ في فصل النون وسمّاها نبطافلن بتقديم النون على الباء، وذلك لأجل عدم الموقّف، وقد طُعِن عليه [١٧/ظ] في مواضع منها.

وهذا الفعل من هذا الرجل مضادّ للمروءة، لأنّه كسلٌ منه عن توفية ما يجب من الاشتغال بهذا العلم، وسقوط همّته، وقلّة جلَده على طول المدّة، والحامل على ذلك كلّه العجلة على الاكتساب بالطبّ، والشعور بأنّه لا يعود يُسأل عن شيء بعد أن يؤذَن له بالعلاج.

فلذلك نجد المجتهد منهم يحصّل ما يحصّله من هذا العلم كالآلة لقتال مشايخه عند التزكية، فإذا صُرّف ترك الاشتغال البتّة، وانهمك في الاكتساب، فقد صار طلب الاكتساب مثبّطاً للمروءة في تكلّف ما يحبّ، فكيف نفس التكسّب، ولاسيّما [١٨/و] أن يخيّل للمشتغل بهذه الصناعة أنّه ممّن يرجو أن يخدم الملوك والوزراء، ويركب البغال، ويلبس الخلَع، فإنّه يكاد أن يقطع كتابه في يوم واحد.

وربّما أنّ منهم من ساعَدَهُ المال والجاه على أنْ أُتيح له التصرّف في العلاج، وهو عارٍ من أكثر هذا العلم، وذلك وإن دلّ على ضعف في الدين؛ فإنّه أيضاً سقوط من المروءة، وأيّ مروءة لمن يتعرض إلى التصرّف في نفوس الناس لإقامة حظّ[٢] نفسه، وهو مع ذلك يعلم أنّ ضرره لهم أكثر من نفعه.

ثمّ إذا قرأ الطالب مقالة من مقالات «فصول أبقراط»؛ ركبه من الإعجاب بنفسه

---

(١) بنطافلن: نوع نبات.

(٢) مصححة بالمداد الأسود المغاير (حفظ).

والتطاول على [١٨/ظ] غيره ولا ابن سينا بتحقيقه، أو ابن الخطيب[١] بتدقيقه، وعلاه من التعيّب على الزمان، والغضب على الدهر، والتظلّم من رؤساء هذه الصناعة، لكونهم لا يفسحون له في العلاج ـ مع تميّزه على أكثر المتصرّفين في الطبّ ـ ما يحمله على أن يطوف على الأطبّاء في الورّاقين[٢] وغيره من الشوارع، ويجلس عند واحد واحد منهم، وخصوصاً عند من يتوهّم فيه التقصير في الجهد[٣] العلمي، ويلقي عليه مسألة يكون عهده بقراءتها قريباً، ومعناها عنده جديداً، ويستدعي منه الجواب استدعاء ممتحنٍ مستهزئ، فإنْ اتّفق أنّ ذلك [١٩/و] الطبيب يجيب سؤاله، ولكن بلفظٍ غير ما تقلّده عن شيخه؛ أنكر ذلك الجواب وكابر عليه بقِحّة[٤] شديدة، جهلاً منه، فإنّ من قدمت هجرته في العلوم، وتمكّن من فهم المعاني؛ تصرّف في الألفاظ كما يختار، ولم يحتجْ أن يحفظ النصوص من الأصول والشروح، وإنّما يحتاج إلى ذلك من إذا نسي لفظ النصّ أو الشرح لم تكنْ له قدرة على صياغة لفظٍ آخر. وإن اتّفق لذلك الطبيب أنْ يتوقّف في جوابه، إمّا ذهولاً عن تلك المسألة بعينها، وإمّا انفحاماً من سؤال مثله؛ فتراه يتضاحك ويهزّ رأسه، ويتنهّد تنهّد من قد غُبن وأُبخس حقّه، وأنّه كان أوْلى [١٩/ظ] بالتصرّف من ذلك الطبيب وأمثاله.

وكلّ ذلك عدم مروءة في حقّ من هو أكبر منه سنّاً، وأقدَم في هذه الصناعة هجرةً، فهذا فِعْله أوّل ما اهتمّ بقراءة علم الطبّ رجاءً في الاكتساب به، وهو عدم

---

(١) لعله يقصد ابن خطيب الري؛ فخر الدين محمد بن عمر الرازي (٥٤٣- ٦٠٦هـ).

(٢) هو سوق الوراقين بالقاهرة.

(٣) بالأصل الجد، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٤) القحة: هي الوقاحة.

المروءة في التعدّي على الأكابر، فبسبب ذلك بأجمعه طلب الاكتساب بالطبّ، فأمّا إذا اكتسب؛ فيكون في هذه الرذائل أعظم من ذلك كثيراً.

ولهذا كنت أسمع الشيخ المهذّب[1] كثيراً ما يقول: «لا يزال الإنسان حسن التدبير والسيرة، خيّراً، إلى أن يقرأ: إلى كم جزء ينقسم الطبّ؟ فعند ذلك يصير أشرّ الخلق»، [٢٠/و] وذلك قول محقّق بما ذكرناه.

ولقد رأيت من أشرار هؤلاء الطلبة مَن يؤذي الأطبّاء، فيدسّ عليهم من يعرض عليهم قوارير[2] الجُلّاب وماء التين وأبوال الدوابّ، فربّما خفيت عليهم لكثرة لغط المستطبّين حولهم في السوق، وقلّة احتيالهم في التبصّر في القوارير والتحديق إليها، وبُعد الوهم عن هذه الحيلة والامتحان، فيعرّضهم ذلك للهزء بهم والاستخفاف

---

(١) هو مهذب الدين بن أبي حليقة، وقد مر.

(٢) قارورة البول:



والضحك من تغفّلهم، وخصوصاً إن قالوا عن قارورة ماء التين، أو الجلّاب، أو الزعفران، أو الدواب[١]: إنّ صاحب هذه القارورة ممتلئ[٢]، أو به حمّى حادّة، أو مُحْتَمٍ لشرب الدواء، [٢٠/ظ] فيشتدّ ضحك الناس منهم، ويمتهنون[٣] بذاك أهل هذه الصناعة، وينسبونهم إلى الجهل والتقصير.

ومِن هؤلاء الطلبة من يحْمله فرط التهالك والشغف على أن يجلس إلى جانب من يستضعفه من الأطبّاء في السوق أو في بعض البيوت التي يصادفه فيها، فيراسلَه في الصفات، ويسابقه في البحث والمساءلة، ويبيّن له غفلَته عن بعض ما كان يجب أن يبحث عنه من حال المريض وأهله، وينبّهه قدّام الحاضرين كمن هو أبصرُ منه بالطبّ، وإذا وصف له دواءً عارضَه فيه بنقلٍ فاسد أو قياسٍ ضعيف، بحسب فهْم مثله من المبتدئين، فيخيّل للسامعين [٢١/و][٤] أنّه قد برع، وأنّه أفضل من الأطبّاء المتصرّفين.

ثمّ إنّه بعد انصراف الطبيب يُظهر للحاضرين أنّه مغبونٌ ومظلوم، وأنّ النظّار في أمر الأطبّاء إنّما يحكمون بالوجوه وبالأغراض والرشا، وأنّ المستحقّ محروم، ويوقع في أنفسهم أنّه لو أُنصِفَ لكان يطبّ من سنين، وأنّهم لو اقتصروا عليه في طبّ مريضهم لكان أنفع لهم من هذا الطبيب وغيره، وربّما أفسحوا له في ذلك فأهلَكَ المريض بجهله.

---

(١) يقصد أبوال الدواب.

(٢) الممتلئ: هو المصاب بامتلاء الدم في الطب القديم، ويقابله ارتفاع التوتر الشرياني.

(٣) من المهانة.

(٤) هذه الورقة (٢١/ و/ ظ) كتبت بخط الترميم المغاير بالمداد الأسود.

ولقد جاءني مرّةً شابٌ يلتمس منّي أن أصحّح له ما يريد أن يحفظه من كتاب «**الفصول**»[1]، رغبةً منه في تعلّم [٢١/ظ] الطبّ، فكرّهته في هذه الصناعة، وأوضحت له سوء عاقبتها وذلّة المتكسّب بها، فزعم أنّه أغنى من ذلك، وكان في هذا صادقاً، وأنّه أخْوَف من الله أن يتصدّى لعمل يكون الغلط فيه مؤدّياً إلى قتل الأنفُس، وأنّه لو أحسّ من نفْسه في هذا العلم بأنّه قد فاق **جالينوس وأبقراط** الثاني والأوّل، **وإسقليبيوس**[2] الصغير والكبير؛ لَما استحلّ أن يعالج أخفّ الأمراض.

(١) هو كتاب الفصول لأبقراط. ويسمى فصول أبقراط.

(٢) إسقليبيوس تلميذ هرمس (النبي إدريس) ومن سلالته أبقراط وجالينوس، وهذه صورهم على الترتيب من اليمين الأقدم إسقليبيوس ثم أبقراط.







فما كان بأكثر من أنْ حفظ نصف المقالة الأولى حتّى اتفق حضوره معي عند بعض أقاربه من المرضى، فجاراني في الوصف، وجاذبني في الحكم على المرض، وعلى الأدوية بأيّ شيء حضر، فجعل الدواء الحارّ بارداً، [٢٢/و] والبارد حارّاً، وغير ذلك من التخليط، لا عن علمٍ إلّا لكي يظهر لأهله أنّه قد شارك في العلم والعمل.

وبلَغني قبل ذلك أنّه أخذ في علاج أهله، فكان مثَله في ذلك مثل الذي تولّى ولايةً وافتتح بصفْعِ أبيه ليظهر الحزم، وهذا افتتح بقتل أهله ليظهر العلْم، على أنّه كان مشهوراً بالدين، غير أنّ هذه الصناعة مباحة للفضول فيها ممّن لم يلمّ بها البتّة، فكيف ممّن شمّ رائحتها.

❐ **فعلمْت أنّ ربح هذه الصناعة يورث الحُمق، ويسقط المروءة.**

وما أعجبني مثل مروءة الذي قرأ على ابن جَمِيع[١] اليهودي ودينه، فحكى لي جماعة حكاية تداولها [٢٢/ظ] الناقلون ممّن عاصر ابنَ جَمِيع صاحب كتاب «**الإرشاد**»، قال: مات رجلٌ موسر، وخلف لولده مالاً كثيراً، وكان ولده أديباً عاقلاً، ذا مروءة وديانة، فعرض على نفسه جميع أسباب الكسب، فلم يجدها خالية من شُبهة، فاقتصر على البطالة والإنفاق، فاجتمع به بعض أصحابه ولامَهُ على رأيه، وأنّه ليس برشيد، وأنّ الذي بيده ينفد ولو كان قناطيرَ، وينفد أخيراً ويلتجئ إلى أخسّ المكاسب.

---

(١) هبة الله بن زيد بن جميع الإسرائيلي (٥٩٤هـ): طبيب ولد بفسطاط مصر، ونشأ به، وخدم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وارتفعت منزلته عنده. من تصانيفه: الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد (معجم المؤلفين ٤/ ٥٦).

وأشار إليه بأن يفتح دكّاناً للصرف، وبيّن له أنّ صاحب هذه الصناعة يمكنه أن يخلص الذمّة بأن يأخذ الحقّ [٢٣/و] ويُعطيه، بل ويمكنه أن يحصّل الأجر بأن يعطي راجحاً ويأخذ ناقصاً، ويبيع ويشتري بفائدة معلومة ينفقها على نفسه. فقبِل الشابّ مشورته، وفتح الدكّان، وأقام مدّة يعطي راجحاً ويأخذ ناقصاً، ثمّ شحّت نفسه بذلك فأخذ الحقَّ وأعطاه، ثمّ بدأت نفسه تتسامح بأن يعطي ناقصاً ويأخذ راجحاً؛ الحبّة والدانق[١]، ويستصغر ذلك ويحتقره في جنب التعب على تحرير الوزن وإنفاقه.

ثمّ انتبه لنفسه وخاف أن تستدرجه إلى أقبح من ذلك، فضمّ المال وأخلى الدكّان، وجلس في بيته على عادته من البطالة، فأتاه صاحبه يستعلم منه السبب، فعرّفه [٢٣/ظ] به، فقال له: لقد فكّرت لك في صناعة جليلة تجمع بين الأجر والآخرة، وهي صناعة الطبّ، وهي من العلوم الجليلة، وعملها يُعدّ من الصدقات، لأنّه عيادة المرضى، وإعانتهم بما يسكّن آلامهم وأوجاعهم، وينفّس كربهم، والأجرة عليها خالية من الشبهة، لأنّها تؤخذ على سبيل الهبة، ولذلك يسمّون الأجرة حقّ الركوب[٢]، بمعنى أنّ الطبّ ليس عليه أجرة، لأنّه مشورة ورأي يشير به العالِم بالشيء على الجاهل به، ثمّ يمكنك فيها أن تتناول من الأغنياء وتنفق على الفقراء[٣]، فتكسب فيها أجراً ثانياً، وتُصادق بها الناس، وتسعف [٢٤/و] بها الأصحاب في شدائدهم.

---

(١) الحبة: وحدة وزن، وهي شعيرتان. والدانق: عند الأطباء وزن ثماني شعيرات. (اصطلاحات الطب القديم).

(٢) ويقال له أيضاً بالعرف الدارج عندنا (قدمية).

(٣) وهي سنة أبقراط في الطب: الطب للأغنياء اكتساباً، وللفقراء احتساباً.

فاستحسن الشابّ رأيه، وقبل مشورته، وابتدأ في قراءة «الإرشاد» على ابن جَمِيع مصنِّفه، وأكرم منحَهُ وأهدى له ولاطفه، وأنس منه الشيخ بالعقل والدين والأدب، وركن إليه وجعله خصيصاً به.

فدخل على ابنِ جَمِيع يوماً فوجده مفكّراً مكتئباً، فسأله عن السبب فقال له: يا ولدي، دعني من السؤال ولا تقعد، بل ارجع من فورك إلى الشارع الفلاني إلى حارة كذا وكذا، إلى زقاق كذا، إلى الدار التي صفتها كذا، فتسمّع، فإن سمعتَ البكاء والصراخ فاسأل الجيران عن ذلك، فإنْ [٢٤/ظ] قالوا: إنّ فلاناً قد مات، فعد إليّ وأنت صامت، وإن لم تسمع شيئاً فاطرق الباب وسائل أهل المريض هل سقَوْه الدواء الذي وصفناه له، فإن كانوا قد سقَوْه وإلّا فامنعهم من سقيه إيّاه.

فأسرع الشاب إلى الدار بعينها، فما أقبل من طرف الزقاق إلّا والصراخ قد ارتفع، فسأل عن السبب، فقيل له: إنّ فلاناً قد مات الساعة.

فلمّا عاد وأخبر ابنَ جَمِيع[1] ضرب بيده، وعضّ على شفته، وهزّ رأسه، وحولق واستغفر، فسأله الشابُّ عن السبب فقال: إنّي وصفت له دواءً مركّباً من أدوية كثيرة، فلمّا [٢٥/و] حضرت إلى البيت وطالعت كتب الطبّ؛ وجدته ينقل عن أحد تلك الأدوية أنّه قتّال، بالخاصّة لصاحب ذلك المرض.

فلمّا سمع الشابّ كلامه نهض من ساعته يريد الانصراف، فقال له ابن جَمِيع: «لمَ لا تجلس لتقرأ درسك»؟ فقال: «اعلم أنّني هجرت صناعة الصرف حذراً من أن يعاقبني الله على سرقة الحبّة والدانق، فما لي ولصناعة يبعد عليّ فيها أن أصير ماهراً حاذقاً كحذقك، وهذا أقلّ غلطاتك».

---

(١) شكلها في النسخة جُميع بالضم، بينما هي في كتب التراجم جَمِيع بالفتح.

وانصرف ولم يشتغل بالطبّ بعد ذلك، **وكان فعله هذا دليلاً على مروءته ونزاهته وديانته.**

[٢٥/ظ] **وقد** يبلغ من حمق بعض الطلبة لحدّ أن يلتمسوا من رئيسها الإذن في المعالجة قبل أن يستكملوا قراءة ما لابدّ منه للمبتدئ المقصّر، فإذا احتجّ الرئيس عليهم أو على شفعائهم بذلك؛ كان جوابهم أنّه إذا أذِن لهم في العلاج تعيّشوا أو اكتسبوا ما يستعينون به على نبهة الاشتغال، وكأنّهم يقولون: «إنّا نعرف الطب قبل أن يُعرف الطب»، وليسوا أوْلى بالإذن لهم من السمّاكين والبقّالين وجميع الناس إذ كانوا في الطبّ مثلهم.

فإنْ كان من أهل الجاه أو من أولاد أطبّاء المملكة؛ فليس تصرّفهم في العلاج وقفاً على قراءة شيء [٢٦/و][١] البتّة.

ولقد كنت في أواخر اشتغالي بهذا العلم ـ وقد عُلِمَتْ مني الفطنة والحرص، والأيدي والأعراض تتدافع بي في التزكية لضعف الحال وقلّة الجاه ـ أتردّد إلى بعض أولاد أطبّاء المملكة، فأحلّل له معاني «فصول أبقراط»، وما قالته الشرّاح فيها، فلم أشعر إلّا وقد أُطلِقَتْ له **الجامكيّة**[٢]، وتصرّف في علاج خواصّ المملكة، وركب البغلة. وأنا شيخه الذي أقرأته ممنوع من التصرّف[٣]، وهذا الجور في هذه الصناعة

(١) هذه الورقة [٢٦/و/ظ] مكتوبة بالخط المغاير السابق ذكره.

(٢) جامكية: فارسية، جامكي: جامه تعني ثوب أو لباس، ومعناها الأصلي المال المخصص للملابس، جمعها جوامك وجماكي: عطاء، راتب، أجرة، وظيفة. (تكملة المعاجم).

(٣) حاشية: بل ممنوع من الصرف لا التصرف للعلميّة والعجمة وهكذا الحكم في إبراهيم. (لعله يقصد المؤلف).

لا يُعرف بغير مصر والشام، بل العادة في جميع الأقاليم أن يقرأ الطبّ على مشايخه [٢٦/ظ] ممّن أجازه الشيخ، وكتب له بذلك؛ تصرَّف وعالج كما يقرأ القرآن والفقه والنحو واللغة وغيرها.

وأعرف من حمَل على الرئيس[١] أهلَ الجاه ومن لا يمكن مدافعتهم، فأذِن له بالجلوس وهو لا يعرف ما يقول، ولا ما يفعل، فأقام مدّة على دكّان العطّار كذلك، إلى أن تشفّع إلى بعض الأطبّاء المهرة فكتب له كرّاساً رتّب فيه كيف يسأل وكيف يصف، وكان إذا أتاه مريض أو أتى إلى مريض؛ يمسك الكرّاس بيده اليسرى مفتوحاً، فقرأ فيه: «امسك النبض أولاً»، فيمسك النبض، ثم عاد بوجهه إلى الكرّاس، فقرأ فيه: «وقل: بك حمّى؟» فيقول: بك حمّى؟ [٢٧/و] ثمّ يعود إلى الكرّاس فيقرأ فيه: «ثمّ قل له: تحسّ عطشاً؟» فيقول: «تحسّ عطشاً»؟ ثمّ يقرأ فيقول: «في فمك مرارة»؟ ثم يقرأ ويقول: «هل بك صداع»؟ ثمّ يقرأ ويقول: «الطبع عادة»؟. ثمّ يقول للعطّار: «أعطه شراب إجّاص ونُوفر وبزر رَجلة[٢]، واجعل الغذاء مزوّرة[٣] حب رمّان». فأقام زماناً لا يعرف أكثر من ذلك، وعرّضه الطبيب الواضع له الكرّاس إلى الهُزء به والضحك من فعله.

وجلس إلى جانبي آخر من هذا الصنف، وكان طويلاً لحيانيّاً، وكان الزبون

---

(١) يقصد ابن أبي حليقة.

(٢) نوفر: نيلوفر، نبات معروف. الرجلة: نوع نبات.

(٣) **المزوّرة** والمزوَّرات: كلّ غذاء دبّر للمريض بدون اللحم، وهي اسم مفعول من التزوير، أو من الزّور وهو الكذب. (اصطلاحات الطب القديم).

يقصده من باب القيساريّة[١] لطوله وكبر لحيته، فإذا شكى إليه [٢٧/ ظ] لم يعرف ما يصف له، فيسارع عطّاره ـ وكان يهودياً خبيثاً ـ فيقول: «يا حكيم ما يصلح له شراب **قراصيا**[٢] وليمون»؟ فيقول: «ما نصف لهذا المرض غير ذلك، أعطه». وكان العطّار يتصرّف في الزبون كما يختار، ويمنع عليه ما يريد من رخيص الأدوية وغاليها، ومناسبها ومنافرها، ونافعها وضارّها برأيه، والطبيب لا يزيد على أن يقول: «ما نصف غير ذلك»، أو: «هذا هو الرأي»، وأن يقاسم العطّار في الفائدة .**وكلّ ما وصْفُه من ذلك ليس من صفات أهل المروءة من الناس.**

وإذا أكمل أحدهم ما يحبّ من الأشغال، وأُذن له بحقٍّ، [٢٨/ و] فأوّل ما يجلس للطبّ اضطرّ إلى التشكّل بشكل الطرقيّة وأصحاب الحيَل في لباسه وهيئته وكلامه؛ فيكبّر عمّته، ويطيل **عَذَبَتَهُ**[٣]، وينفش **لمّته**[٤]، ويوسّع أكمامه، ويربّع جلسته، ويقيم[٥] صدره، ويعبس وجهه، ويعضّ على أطراف لحيته كأنّه مفكّر في أسرار ودقائق خفيت عن العلوم الإلهيّة والمعارف الربّانيّة والدرجات الروحانيّة، وقد انكشف له المُعطَى، ولاح له سرّ الملأ الأعلى، ولا يعلم أنّ علْمه الذي يتبجّح به،

---

(١) نسبة إلى المدرسة القيسارية بالقاهرة التي بناها الأمير فخر الدين شركس (أو جهاركس) أحد أمراء الدولة الصلاحية (توفي سنة ٦٠٨هـ). (الدارس في تاريخ المدارس، ١/ ٣٨٠).

(٢) قراسيا، وقراصيا: هو الكرز أو حب الملوك.

(٣) العذبة: هي طرف الشيء. والاعتذاب: أن تسبل للعمامة عذبتين، محركة، من خلفها، وهما طرفا العمامة. (تاج العروس).

(٤) اللمة: شعر الرأس إذا كان فوق الوفرة، وقيل: يجاوز شحمة الأذن. (لسان العرب).

(٥) كذا بالأصل، ولعل صحتها ويستقدم، أو ويقدم.

والشامخ[١] بمعرفته على تقدير أنّه قد أتْعَبَهُ ـ وذلك كالممتنع على ما سنبيّنه ليس سوى النظر [٢٨/ظ] في عظم وأعصاب وعروق وأوتار ولحم وشحم وأخلاط[٢] وأمشاج، وبول وبراز سائل من أعفاج، وقيح ومخاط وفُساء وضُراط وصُنان ورمص[٣]، وأقذار محشوّة في قفص، وهو كما قيل[٤]:

وما الجسمُ إلا نطفةٌ في مشيمةٍ ... يُغذّى دماءَ الطمثِ شرّ غذاءِ
وما هو إلّا ظَرفُ بولٍ وغائطٍ ... ولو أنّه يُطلى بكلّ طلاءِ

وقد حُكي أنّ رجلاً من الموسرين مرّ بسقراط فلم يتحفّز له، فسبّ سقراط وقال كالمفتخر: «أمَا تعرفني»؟ فقال: «نعم، أعرفك نطفة مدرة، ثمّ تصير جيفة قذرة، [٢٩/و] وأنت فيما بينهما بول وعذرة».

---

(١) شطبت بقلم مغاير وكتب في الحاشية ويتسامخ.

(٢) الأخلاط: جمع خِلط بالكسر، وهي أركان العالَم الصّغير الذي هو الإنسان، النّظائر لأركان العالم الكبير التي هي الأسطقسات، والأخلاط هي الدّم والبلغم والصّفراء والسّوداء، وتسمّى الأمشاج أيضاً؛ فالدّم حارّ رطب وهو نظير الهواء، والصّفراء حارّة يابسة وهي نظيرة النّار، والبلغم وهو بارد رطب وهو نظير الماء، والسّوداء باردة يابسة وهي نظيرة الأرض. (اصطلاحات الطب القديم).

(٣) **الرَّمَص**: بالتحريك، وسخٌ جامدٌ يجتمع في المؤق. وقيل: هو الرطوبة الجامدة في العين، وأكثر ما يكون في المؤق، فإن سالت فهي الغَمَص. (اصطلاحات الطب القديم).

(٤) والقول في (معاهد التنصيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي - ٩٦٣هـ- ج٢ ص١٨٣) للمؤتمن الأدفوي:

هل النفس إلا نطفة من مشيمة ... نمت بدم الأحشاء شرّ نماء
وهل هو إلا ظرف بول وغائط ... ولو أنه يطلى بكلّ طلاء

وليس هو ناظراً في الإنسان من حيث إنّ له نفْساً ناطقة عاقلة باقيةً ملائكيّةَ الأخلاق، وإنّ لها لذّاتٍ عقليةً، ونعيماً روحانيّاً يجب أن يحافظ على طلبه، ويهرب عن صدّه، وإنّ للنفس أمراضاً تقعدها عن غايتها وسعادتها، ولتلك الأمراض أدوية من العبادات يرتّلها، فإنّ الغاية من هذا العلم باقيةٌ، دائمة، حسنة العاقبة في الدنيا والآخرة.

ولا هو ناظراً فيما دون ذلك من أنّ جسم الإنسان وغيره؛ هل هو مركّب من الجوهر الفرد؟ أو يقبل القسمة قطَعاً وقرصاً إلى غير نهاية؟ وهل [٢٩/ظ] النفس حالّة في البدن، أو متعلّقة به تعلّق الثديين؟ وما هي أوّل قواها المفاضة عليه؟ وهل تعلّقها منه بأعضائه، أو بأخلاطه، أو بأرواحه؟ والبحث عن إدراك كيفيّة إدراك الحواسّ الظاهرة والباطنة، فما يحكم فيه صاحب العلم الطبيعي ويُنسب للطبيب للتحكّم فيه إلى الفضول.

وليس هو ناظراً أيضاً في البدن مطلقاً، بل من حيث يصحّ ويمرض، ولا من هذه الجهة أيضاً مطلقاً، بل من حيث يحفظ صحّته ويزيل مرضه، فهو علم جريء ناظر في موجود، لو اجتمع أهل الأرض كلهم أطبّاء [٣٠/و] على صيانته من المرض لم يقدروا على ذلك، ولا الملوك الحكماء بقادرين على دوام الصحّة ولو احترزوا في المأكل والمشرب، والنوم واليقظة، والحركة والسكون، والحوادث النفسانية؛ كالغضب والفرح المفرطَيْن(١) لا يمكنهم دفعها، وكذلك الحركات البدنيّة.

---

(١) حاشية بالقلم المغاير: والاستفراغ والاحتقان وإن كان ذلك ممتنعاً، لأن الحوادث النفسانية.

ولو أمكن ذلك لم يمكن التحفّظ من فساد الهواء المستنشق، والماء المشروب، ولو أمكن ذلك كلّه لم يمكن للطبيب دفع الآجال الطبيعيّة، ولا دفع الأمراض الكبار؛ كالسكتة القويّة، والسلّ، وسقيروس[١]، ولا يقبل أحد رأيه في زمن الصحّة ويترك لذّاته. ولا يُدعى لجميع الأمراض، بل من [٣٠/ ظ] الأمراض ما يُستغنى عنه فيها، ومنها ما لا يلحقه، ومن الناس من لا يعرفه؛ كأهل البادية وسكّان القرى، وربّما كانوا أصحّ أبداناً وأطْول أعماراً، كما قال المتنبّي:

يمُوتُ راعي الضّأنِ في جهْلِهِ ... مِيتَةَ جالينوسَ في طِبّهِ

وربّما زادَ على عُمرِهِ ... وزادَ في الأمنِ على سِرْبِهِ[٢]

فتقعُدُ ذا الطبيب حينئذ، وهمهمته وتمتمته[٣]؛ إمّا أن يكون مع جهل بما يترجّاه[٤] وذلك من حُمقه، وإمّا مع علم به وذلك يُعدّ من مكره وغريته.

وليس ذلك من [٣١/ و] صفات أهل المروءة، وكرم الطباع، فلباس الطبيب لَبسٌ، وصناعته ربحٌ، لأنّها تخمين وحَدْس، فالهيئة كبيرة، والغاية حقيرة، والطلل هائل، ولا عائل، وكلّما كان الرجل مختصِراً في لبسه، جليلاً في أفعاله ونفسه، كان ذلك أدلّ على المروءة من عكْسه.

---

(١) سَقِيروس: بفتح السين وكسر القاف وضم الراء؛ ورم صلب سوداوي يتولد عن سوداء أو عنها وعن بلغم تحلل لطيفه، فإن كان مادته سوداء محضة فيقال له الخالص، وإن كان مع بلغم يقال له غير الخالص، ويفرق بينه وبين السرطان بما يذكر فيه. (اصطلاحات الطب القديم).

(٢) القول في ديوان المتنبي ص ٥٥٨، وقال الشارح: أي أن راعي الضأن ربما زاد عمره على عمر جالينوس (وهو الحاذق في الطب) وزاد عليه في الأمن على نفسه (سربه: نفسه).

(٣) بالأصل وتتمّسه.

(٤) لعله كذا. أو سر جناه.

وإنّ بين الطبيب في ذلك وبين **الأحنف بن قيس**[1] لَبَوْناً بعيداً؛ فممّا حُكي عنه أنّ جماعة من وجوه العرب اجتمعوا بمسجد الأنصار، وتنازعوا بسبب ديون ثقيلة لبعضهم على بعض، فأرسلوا للأحنف رسولاً أنْ احضُر فأصلِح بين الجماعة، [٣١/ظ] فاستأذن الرسول عليه، فأذِن لهم، فلمّا سلّم وجلس وأدّى الرسالة، وجد الأحنف يرقّع في **مبطّنة**[2] له، فازدراه، ولمّا فرغ من ترقيعها لبسها، فاستدعى الماء فتوضّأ وصلّى، ثمّ استدعى الطعام، فأحضر طبقاً من السعف عليه رغيفان من الشعير وزيت (...)[3] وقصب، فدعا الرسول إلى الأكل فأكل معه وقد ازدراه بذلك أكثر، ولمّا فرغ الأحنف من الأكل قام فصلّى ركعتين شكراً لله، ثمّ قال: «يا ربّ، من أنا في عبيدك حتّى أنعمت عليّ بشعير الحجاز، وزيت الشام، وقصب العراق»، ثمّ نهض مع الرسول وأتى إلى المسجد [٣٢/و] فاحتبى في صدر المجلس، قال: «فوالله ما حلّ حبوته حتّى تحمَّل عن القوم مائة ألف درهم من ماله».

والطبيب على حسن لباسه، إذا جلس في مجلس، ولكن من مجالس المرضى، لم يحلّ حبوته حتّى يعرّض بالكذبة مائة ألف لون من التعريض؛ فيقول: «داويت فلاناً الأمير والوزير أو غيرهما، وما كان مرضه في عِظَم هذا ولا في خطره، فأعطاني كذا كذا ألف درهم، وخلع عليّ، وحمل لي الغلّة والهدايا. وفلان بخيل ما يساوي شيئاً، داويتُه فشحّ عليّ، لا جرم أنّه يطلبني ما أرضى أروح إليه»، وينشد:

---

(١) الأحنف بن قيس (٣ ق.هـ - ٧٢هـ)، يضرب به المثل في الحلم. (الأعلام ١/ ٢٧٦).

(٢) المبطنة: رداء مبطن بالفرو. (تكملة المعاجم).

(٣) كلمة ممسوحة.

[٣٢/ ظ] إنّ المنجّم والطبيبَ كلاهُما لا ينصحانِ إذا هما لمْ يُكرَما[١]

فانظر إلى بزّته ما أكبرها، وإلى نفسه ما أصغرها، وإنّما المراد باللباس الكبير مطابقة الوقار والجلالة وكبر الهمّة، وليكون دليلاً على اليسار والحدّة[٢]، هذا عند من يحبّ التفخيم، وإظهار السعادة، والتطاول على الأقران. وأمّا عند العقلاء من الناس؛ فلا يرون ذلك، ولا يستحسنونه، وليس الوقار عندهم إلا التقمّص بلباس أهل الدين والعقل والمروءة والكرم.

وهذا الأسلوب خاصّة في أهل مصر؛ فإنّ أحدهم يملك [٣٣/ و] من الألوف من الذهب، ويكون في داره ولا أسعد الملوك من الأثاث والآلات والفرش وحُسن المعيشة، وكثرة الجواري والغلمان، وهو مع ذلك مختصر في لباسه، والمشارِقة بالضدّ من ذلك.

ولمْ أرَ أشدّ قبحاً من تعظيم الملبوس مع خسّة القدر، حتّى إنّ عندنا من الأطبّاء

---

(١) هما بيتان ينسبان للإمام الشافعي (والأغلب مجهول القائل) والله أعلم:

إنّ المعلّم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يُكرما

قيل: الكرم هنا تعني الثقة والاحترام.

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلّما

وفي رواية:

فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلما

وفي الحاشية:

فاصبر لدائك إن جفوت طبيباً واصبر لجهلك إن جفوت منجّما

(٢) بالأصل (الخدة): وهي التأثير.

من لا يخدم سلطاناً، فيعتذر بأنّ الملوك لا يمكن الدخول عليهم بلباسٍ حقير، ولا بدّ من الخيل والبغال والأسفار معهم، بل هو من أطبّاء العوامّ، ومع ذلك إذا رأيت ركبته وبزّته ظننت أنّه إن لم يكن وزيراً كان دون ذلك قليلاً، ما بقي خائفاً أن يلقاه [٣٣/ ظ] بعض الأراذل فيستوقفه ساعة ويستوصفه، فيظهر للعابرين أنّ ذلك **الدست**[١] العظيم ليس وراءه شيء ـ إذا سمعوه يقول لذلك العامّيّ العارف به: «خذ لك شراب ليمون ونوفر[٢] فيزول السبب»؛ ضعيفٌ[٣]، والهيئة كبيرة، فيرمقونه بعين الحُمق.

وحَكَى لي في مثل ذلك الأمير **حسام الدين بن باد** قال: دخلت إلى دمشق مع الملك المظفَّر، فولّاني البرّ، فاستدعيت عريف **المشاعليّة**[٤] بها ليهيئ مشاعل برسم الدهليز، فأتى رجلٌ على فرس كأنّه الطود، وعليه **أقبية**[٥]، **وبَغالطيق**[٦] مَرْوَزيّ[٧] وأطلس، منزلة[٨] بالسنجاب والغبب[٩]، وشاشهُ مقصب [٣٤/ و] بالذهب، فما

(١) الدست: اللباس، وصدر المجلس، واللعبة. (تاج العروس). ودست الغسيل: مركن تغسل فيه الثياب (تكملة المعاجم).

(٢) ليمون: بالأصل ليمو، وهو نفسه الليمون. نوفر: هو النيلوفر، أو اللينوفر.

(٣) بالأصل ضعيفاً.

(٤) المشاعلية: الذين يحملون المشاعل ويهتمون بها. وهم أيضاً الذين ينظفون المراحيض والكنف والأقذار. (تكملة المعاجم).

(٥) القَباء: من الثياب، مشتق من ذلك لاجتماع أطرافه، والجمع أقبية. (لسان العرب).

(٦) بغطاق أو بغلوطاق، فارسية، وجمعها بغالطيق أو بغالطق: قميص لا أكمام له، أو له أكمام قصيرة جداً (تكملة المعاجم).

(٧) مروزي: نسبة إلى مرو؛ مدينة بفارس، على غير قياس، والنسب إليها مرْوي ومرَوي، والثوب مرْوي على القياس. (لسان العرب).

(٨) كذا بالأصل، حاشية بالقلم المغاير: مفرّاة.

(٩) كذا، ولم نتحققها.

شككت أنّه بعض أمراء دمشق، فنهضت له قائماً وأجلسته إلى جانبي، وأقبلت عليه بالمحادثة والأدب معه ساعة، ثمّ التفتُّ إلى الرحّالة أستحثّهم في أمر عريف المشاعليّة، فأشاروا إلى أنّه هذا الجالس بتلك الحال فتمزّقت[١] من الغيظ وقلت له: «أنت عريف المشاعليّة»؟ فقال: «فهو كل» بلثغة الكاف، فحلفت: لا بات بالمشعل عند الدهليز غيره، فاستعفى من ذلك، فلم أعْفِه غيظاً مِن حُمقه في هيئته.

هذا إذا كانت البزّة حسنة مثمنة، والمركوب حسناً، وإلّا فمن الأطبّاء من يركب فرساً كالقفص، وعليه جبّة [٣٤/ظ] كانت حريراً، **وبَقيارٌ**[٢] كان شَرِباً، كأنّهما طيلسان **ابن حرب**[٣]، وكأنّه الخائل[٤] بالشعراء.

ومنهم من يُحضر إليه الفرس ليركبه إلى المريض، فيفرح بذلك، ويركبه بعُدّة الجند وثياب الفقهاء، فيُضحِكوا الناس منه ويقولون له: «طلع الهلال». وربّما صرخوا على الفرس ونغزوه فتشوّش وقوي عليه، فيصير كأنّه راكبُ نعامةً، ويضحك منه.

---

(١) بالأصل فتمرن.

(٢) بَقيار: فارسية؛ ضرب من العمائم كبيرة يعتمرها الوزراء والكتاب والقضاة (تكملة المعاجم).

(٣) يشير إلى قول إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه، أبي علي الحمدوني، جده حمدويه صاحب الزنادقة على عهد الرشيد، اشتهر بقوله في طيلسان ابن حرب ابن أخي يزيد المهلبي، وقيل: إنه عمل في هذا الطيلسان مائتي مقطوع، منها: (في فوات الوفيات ج١ ص١٧٣).

يا ابن حرب كسوتني طيلساناً ... ملّ من صحبة الزمان وصدّى

طال ترداده إلى الرفو حتى ... لو بعثناه وحده لتهدّى

(٤) الخائل: المختال، وهو مثل يضرب لمن يورد نفسه موارد الهلكة طلباً للترؤس، يقال: مخيلة تقتل نفس الخائل. (مجمع الأمثال للميداني). والخائل: الراعي، والحافظ (الصحاح).

وإذا كان اللباس الكبير مع وجود اليسار والرئاسة يُعدّ من الحُمق؛ فكيف إذا كان مع الفقر وخسّة القدْر؟ إنّما يُعدّ حينئذ من المسخركية[(١)] [٣٥/و] والمحايلة.

وأكثر من يعاني[(٢)] بحسن لباسه من الأطبّاء وغيرهم من المسترزقين؛ إنّما يقصد بذلك إمّا تكميل ما نقص من نفسه، وإمّا إظهار الهيبة على الناس والقدرة، وإمّا تخييل الناظر إليه أنّه لو لم يكن من الخواصّ، ومطلوب من الوزراء والأمراء والرؤساء لم تكن هذه بزّته.

وهذا مخصوص بالأطبّاء، فإنّه يبلغ من تهافتهم وغريتهم إلى أن يشتروا أو يستعيروا القماش المعروف بالخِلع، ويلبسونه ويطوفون به في الأسواق والأزقّة والشوارع، ليظهروا للناس أنّهم من المشهورين والمنجحين في الطبّ، فيرغبوا إليهم، وذلك [٣٥/ ظ] ضرب من الغباوة[(٣)] والكذب، والكذب من المهانة (...)[(٤)] ـ كما قيل[(٥)]:

لا يكذبُ المرءُ إلّا مِن مهانتِهِ ... أو عادةِ السوءِ أو مِن قلّةِ الأدبِ

لَجيفةُ الكلبِ عندي خيرُ مأكلَةٍ ... مِن كذْبةِ المرءِ في جدٍّ وفي لعِبِ

---

(١) لعلها عامية؛ من السخرية والاستهزاء.

(٢) كذا بالأصل، ولعلها يعنى.

(٣) بالأصل العبارة.

(٤) بياض لكلمة.

(٥) ذكر الوشّاء (محمد بن أحمد بن إسحق بن يحيى- ٣٢٥هـ) البيتين في كتابه (الموشى ص٤١)، وقال: أنشدني بعض الأدباء. وفي الشطر الأول من البيت الثاني: لجيفة الكلب عندي خير رائحة.

وكلّ ذلك ليس من أخلاق ذوي الكرم والأنفة والمروءة من الناس، بل من أخلاقهم أن ينافوا من ذلك، ولهم القدرة عليه ديناً وجلالة.

وإن كان في الأطبّاء نصران، أو ملّته من خواصّ المملكة؛ يليق بهم اللباس ليشرّف مكانهم واتساع جاريهم، فالمتشبّهون بهم [٣٦/ و] بمنزلة المسافر.

على أنّ أولئك أيضاً لو تركوا ذلك لكان أجمل وأقرب إلى الدين والوقار؛ فإنّ الخبر الصحيح عن **عمر بن الخطّاب** رضي الله عنه ـ أنّه كان في ثوبه سبع عشرة رقعة، وليس ذلك من العجز، وكيف يعجز وقد ملك طرفي العمارة وما بينهما من الشرق إلى الغرب؟ وقد كان الإمام **الحاكم**[١] ـ رضي الله عنه ـ من الخلفاء الفاطميّين يلبس جبّة وطيلساناً، ويركب حماراً، نزاهة وقدرة.

وحُكي عن السلطان محمود[٢]، المعروف **بخوارزم شاه** أنّه كان يلبس الأقبية[٣] المزركشة بالذهبِ [٣٦/ ظ] المرصّعِ باللؤلؤ والياقوت، ثمّ يلبس من فوق ذلك قَباءً مهلهلاً ومُرقّعاً، ثمّ يقول: أمّا الأقبية المرصّعة فيقدر على مثلها الملوك، وأمّا هذا القَباء المرقّع فلا يقدرون على لبسه.

وأُخبرت عن **السلطان محمود** من ملوك العجم، يُعرف **بالعودي**، قيل: وكان

---

(١) الحاكم بأمر الله، منصور بن عبد العزيز حكم مصر بين (٣٨٦- ٤١١هـ). مولده ٣٧٥هـ. الزنديق المدعي الربوبية. (تهذيب سير أعلام النبلاء).

(٢) محمود بن خوارزمشاه أرسلان بن أتسز، صاحب مرو تملك بعد أبيه سنة ٥٤٨هـ. (تهذيب سير أعلام النبلاء ٣/ ١٢٢).

(٣) القَباء: الذي يُلبس، والجمع الأقبية، وتقبّبت قباء، إذا لبسته، والقبْو: الضم. (الصحاح). وهو اسم ثوب يلبس تحت آخر (تحتانية) (تكملة المعاجم).

محافظاً على إقامة الدين والعدل، فبلغه عن الإمام **الناصر** لدين الله[1]، من الخلفاء العبّاسيّين، أنّه قد تصدّى إلى الجور واختلاس أموال الرعيّة، فعسكر إلى العراق، وكان يعرض في ثلاثمائة ألف راكب، فلمّا نزل بأطراف العراق خاف منه الإمام الناصر، فأرسل ابن **الشهرزوري**[2]، وحكى أنّه حين بلغ إلى معسكره شاهد من العظمة [٣٧/ و] ما لم يشاهده قطّ لملك قبله؛ من الخيل والرجال والمماليك والسلاح والعُدد، ورأى من جملة ذلك دهليزاً مضروباً، لم يرَ أعظم منه، يأخذ مقداراً عظيماً من الأرض، وأعلاماً تكون من البناء المرتفع، وهو مصوّر من داخله من جميع الصور الموجودة بألوان من الصيدات[3]، وعُمده مفصّلة بأقماع الفضّة، ومن داخله وخارجه خلق لا يحصى عددهم؛ من **الترك والديلم والخِطا**[4]، مشمّلين السلاح، مُطرِقين من الهيبة، ينظرون كالأُسد إلى الداخل شزراً، ولا يتحرّكون كأنّما ركزوا في الأرض.

قال: فارتعدتُ خيفة من تلك الجلالة، ثمّ انتهيت إلى جهة أخرى [٣٧/ ظ] من داخله، ظاهرها من الديباج، وباطنها من الأطلس على اختلاف الألوان والتصاوير،

---

(١) الناصر لدين الله، الخليفة أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، ولد سنة ٥٥٣هـ، وبويع سنة ٥٧٥هـ، وتوفي سنة ٦٢٢هـ. (تهذيب سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٠٤).

(٢) بالأصل السهرردي. ابن الشهرزوري: (٥١٦- ٥٨٦هـ) محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم أبو حامد، محيي الدين، ابن الشهرزوري، قاضي الموصل، كان رئيساً كريماً. (الأعلام). والإمام الناصر هو الخليفة (٣٤) من العباسيين (٥٧٥هـ).

(٣) الصيدات: جمع، أقمشة من حرير. (تكملة المعاجم).

(٤) **بلاد الخِطا**: بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألِف في الآخر؛ وهم جنس من الترك بلادهم متاخمة بلاد الصين. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٤٨١). والديلم بلاد معروفة قرب طبرستان بإيران.

وأوتادها من الفضّة، وعمدها ملبّسة بالفضّة، ومن داخلها صفوف من التُّرك المُرْد، والجيش الحصّان بالأقبية الأطلس والمناطق الذهب، **والكلوتات**[١] الزركش، والسيوف المحلّاة بالذهب الأصفر، كأنّهم العرائس، ينظرون إلى الداخل ولا يتكلّمون بكلمة، ولا يلتفتون يمنة ولا يسرة من الوقار والهيبة. قال: فازددت هلعاً وخيفة، واضطربت في المشي، ثمّ انتهيت إلى جهة ثالثة مضروبة من داخل الثانية، [٣٨/و] ظاهرها كلّه من الأطلس الأحمر يأخذ بالبصر، وباطنها كلّه مزركش بالذهب، وعمدها ملبّسة بالذهب، وأطيانها[٢] من الإبريسم، وداخلها خلق من المماليك الصينيّة، والخصيان الهنديّة، كأنّهم الجواري والوِلدان قد نفروا من الجنان، وعليهم من الأقبية المزركشة والسرابيس[٣] المرصّعة، والحوائص[٤] المكلّلة، ما لا يُعرف له قيمة، وهم قيام وبأيديهم سيوفهم مستلّة تخطف بالأبصار، وكأنّهم يشترّون بها إلى قتل الداخل، فخانتني رجلاي من الخوف، وسقطت على الأرض كالمغشيّ عليّ، فأقامني الحجّاب الموكلون [٣٨/ظ] بي، وسكّنوا روعي حتّى قدرت على المشي، فانتهيت إلى خَرْكاه[٥] من خشب مغشّاة باللبد الأبيض، فتعجّبت من ذلك[٦] بعدما

---

(١) الكلوتات: هي نوع من القلنسوة توضع على الرأس. (ينظر خطط المقريزي ج٢ ص ٢١٧).

(٢) كذا.

(٣) كذا بالأصل، ولعلها السرابيل. السربال: هو القميص، والدرع. (لسان العرب).

(٤) الحوائص: هي المناطق (جمع نطاق). مفردها حياصة.

(٥) الخَرْكاه بالفارسيّة القبّة التركيّة، ويقال في تعريبها: خرقاهة، الجمع خَرَكات وخَرْكاهات. وهي الخيمة التي تصنع من قطع من الخشب تركب على شكل قبة ثم يوضع عليها قطع من اللباد. (محيط المحيط، وتكملة المعاجم).

(٦) في الحاشية: ذلك عظمة. (طبعاً وكما ذكرت سابقاً الحواشي بقلم مغاير لخط النسخة).

رأيت وشاهدت قبله، ثمّ أُذن لي فدخلت الخَرْكاه، وإذا بالملك جالس على سرير من خشب ساذج، وعليه قَباء من اللبد الأبيض، وبغالطيقة[(١)]، **وشِعارة**[(٢)] من الثياب القطن، وعلى رأسه سراقور[(٣)] من لبد أبيض، وهو جالس على فروة من سلوخ الضأن.

قال: فكانت هيبته من قلبي وجلالته في عيني ـ مع حقارة لباسه ـ أعظم من كلِّ ما رأيت. وكان من بعض ما سأله[(٤)]: السبب في هذا اللباس؟ [٣٩/و] فقال: «إنّ جميع ما رأيتَه قبل وصولك إليّ هو للمسلمين يرهبون به عدوّ الله، وهذا الذي عليّ هو ما خصّني من بيت المال، مع أنّ التعاظم على الملبوس أعظم من التعاظم به، وحسبنا في ظهور القدرة والنعمة ما رأيته على الحاشية، وهو أولى بالصبيان، وأولئك يذلّون به البأس على القرب منّا، ونحن غنيّون عن الانتساب، وكلّ شيء انتهى إلى غايته عاد إلى بدايته، على أنّ إظهار القدرة باللباس دليل على العجز، ولو ملكت النفس القدرة لما تكلّف إظهارها البأس».

قال: فكان وعْظُه لي أعظم عندي ممّا رأيته من عظمة ملكه [٣٩/ظ] وتواضع نفسه.

---

(١) ينظر بغالطيق، سبق ذكرها، وهي القميص بدون أكمام.

(٢) الشِّعار بالكسر: ما ولي الجسد من الثياب. (مختار الصحاح).

(٣) كذا بالأصل، ولعل صحتها شُرْبُوش (أو سَرْبُوس)، وتجمع على شرابيش وشرابش؛ وهو قلنسوة عالية على شكل مثلث يعتمر لها من غير عمامة، وهي العمرة المميّزة للأمراء، ولم تكن تلبس من قبل الفقهاء، وقد بطل استعمال الشربوش في الدولة الجركسية. (تكملة المعاجم، ومحيط المحيط).

(٤) في الحاشية: سألته.

فهذه صفات الفُحولة من الناس، والصدور، وأهل كرم الطباع والمروءات، وليس كمن يتكلّف شراء خلعة، أو قد خلعتْ عليه على الحقيقة، وهو من أهل العلم، فيمشي بها بين العامّة ليفتخر بأنّ بعض النساء، أو واحداً دون قدره ودون علمه قد احتاش الأموال حراماً وحلالاً ـ شرّفه بذلك، ولو كان هو الذي خلعها على غيره ثمّ أظهر ذلك لكان قبيحاً، فكيف وهو يظهر أنّه مشتريك[1] ويطلب بذلك الجلالة والهيبة، ولا يعلم أنّ جميع أرباب الحرف والصنائع العلميّة والعمليّة عائلة على أرباب الأموال [٤٠/و] ومسترزَقون منهم؛ كالجندي، والكاتب، والطبيب، والمنجّم، والنجّار، والبنّاء وغيرهم.

والقواعد من الناس صنفان فقط؛ الفلّاح والتاجر، ومن عداهم أصحاب أجر، يعملون بالأجرة، وأضعفهم سبباً الطبيب، لأنّ البنّاء والنجّار والحدّاد والصائغ وغيرهم تظهر عنهم أعمال محسوسة دائمة، تذكر أبداً بصانعها.

وأمّا الطبيب فإنّ عملَه لا يُحسّ به، وأكثر عمله أن يقول كلمتين، أو يكتب جرارة ورقة لطيفة، وإذا ساعده التوفيق وعوفي المريض يُنسب ذلك إلى قدرة الله سبحانه وتعالى، **فلذلك كان ما يُعطاه من الأجرة أثقل الأشياء على** [٤٠/ ظ] مُعطيها.

وقد حكَى لي طبيب قال: كان قد أصاب ولدي خُراج، فاحتجت إلى جرائحي يلصق عليه ويبطّه وينقّيه ويدمله، فدعوت بعض الجرائحيّة، فكنت أعطيه في كلّ أسبوع درهمين، فلم أجد في كلّ ما أنفقه أثقل على قلبي من تلك الدرهمين، وكنت أتحيّل أنني أعطيها عتباً، لا على عمل موجود محسوس، وأنّني المغبون، مع أنّ عمل الجرائحي أظهر للحسّ من عمل الطبيب.

---

(١) كذا.

فعلمت بذلك أن أجرتنا أثقل شيء على الناس، ولذلك صار الطبيب لا يتناولها إلا بعد تولّيه من[١] بيت المستطَبّ، ولا يقدر على مواجهة المعطي، ولا على مخافقته[٢] على نقص بعض الدرهم، ولا على [٤١/و] ردّ الزيف من الدراهم، كلّ ذلك لا وقاراً ولا حياء، ومن أين له ذلك، بل إحساساً بأن المستطبّ يرى أنّه لم يعمل شيئاً، بل الطبيب نفسُه يحسّ بأنّه لم يعمل إلا شيئاً مظنوناً غلب فيه الظنّ، فهو أبداً خائف أن يكون حدسُه مخطئاً، وأنّه قد ضرّ ولم ينفع، ولهذا متى خافق على الأجرة، وناقش واشترط؛ قام عليه العالم، وساعدوا المستطبّ عليه كما يساعَد المظلوم على الظالم.

ولوّعني[٣] الطب يوماً فقلت لرجل دعاني إلى مريض في مكان بعيد: إنّ ركوبي إلى هناك بدرهمين، فصرخ وشغّب واجتمع علينا خلق، فما رأيت أحداً منهم ساعدني بكلمة واحدة؛ فقال مثلاً: [٤١/ ظ] «يستاهل، فإنّه طبيب حاذق، وطالِبُهُ كثير، والمكان بعيد، ويفوته به ما يفوت[٤]»، بل كلّهم يقول: «ما أقساكم»، «ولكن قتلة»، «وما أقتلكم»، «تيسير». ويقول آخر: «وأيّ شيء يعمل هذا حتى يأخذ درهمين؟ هذه أجرة البنّاء الذي يبني كلّ يوم إسقالتين[٥]، وينجّر بها النجّار بابين، ويعمل بها الفاعل في الطين أربعة

---

(١) توليه من: بالأصل توليته بمن.

(٢) كذا بالأصل، والخفق: الاضطراب، والحركة ذهاباً وإياباً. والمقصود هنا الاستجداء عند تلقي الأجر، والمساومة.

(٣) الكلمة مكانها تمزق في الورقة (ولوعلطب)، فلعل الصحيح ما أثبتناه.

(٤) لعل العبارة بالأصل: ويفوته به يفوت.

(٥) إسقالة: ويقال أيضاً سقالة وإصقالة وإسكله جمعها أساكل، إسبانية وهي السلّم، والسلم المتحرك، وربما كانت ألواحاً من الخشب. (تكملة المعاجم). وهي معروفة عندنا ما يضعه البناء من ألواح الخشب ليصعد عليه ويبني البناء. والمقصود هنا الدورين من الصف الحجر في البناء.

أيّام». ويقول آخر: «رُح وخلّه يا إنسان، إن كانت العافية من عند هذا فضعّفها الله».
ويقول آخر: «والله يا شيخ هذه كيميا، كلّ بيت درهمين، هذا مال ممدود».

ولو أتى أحدهم إلى بعض المشاعليّة فدعاه إلى أن يكنف[1] له حيناً واشترط المشاعلي الأجرة، [٤٢/و] ورفع السوم؛ لم يخاطَب إلا بالملاطفة والسياسة إلى أن يرضيَه، ويغذّيه مع الأجرة ويكرمه.

فتُبتُ بعدها أن أنطق بذكر أجرة، أو أطلب شيئاً، ولو ركبت إلى آخر الدنيا بربع درهم أو بغير أجرة.

وأغرَبُ من هذه السعادة والجلالة وأعجَب منها أنّ المنغمس فيها مفتخر بالملبوس، وينفخ أشداقه بالخلعة، ويطوف بها المدينة، ولا يعلم أنّ ذلك نوع من الجُرْسَة[2]، وإن كان بها فخر فهو لمعطيها، لأنّ المعطي أشرف من المعطَى له. ولله درّ الغلام الذي أنشد المتنبّي حين رأى عظَمته وكبْره وحماقته وميله إلى محبّة الغلمان فسأل عن الصناعة؟ فقال: شاعراً [٤٢/ظ] أمدح الملوك وآخذ جوائزهم، فقال الغلام[3]:

لستَ تنفكّ طالباً لوصالٍ ... من حبيبٍ، أو راغباً لنوالِ
أيُّ ماءٍ لوجهِ مثلك يبقَى ... بعدَ ذلِّ الهوَى وذلِّ السؤالِ

---

(١) يكنف: أي جعل له كنيفاً، وهو الساتر. والمشاعلية: وردت، وهم من ينظفون الكنيف وغيره.
(٢) التجريس بالقوم: التسميع بهم والتنديد، والاسم الجُرسة. (تاج العروس).
(٣) البيتان في (معجم الأدباء لياقوت الحموي ج٤ ص١٥٢٥) منسوبان إلى ابن المعتز عبد الله بن الزبير في أبي تمّام، وفي حاشية المحقق: ينسبان إلى خالد الكاتب، والشطر الأول من البيت الثاني فيه: أي ماء لحرّ وجهك يبقى. . . ونسبا أيضاً لعبد الصمد بن المعذل (في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني).

وقد استغنى أكثر الأطبّاء بلباسه عن الاشتغال والتميّز[١] في العلم، فمتى لبس جبّة حرير واسعة الأكمام ازدرى جالينوسَ، وإن كان له مع ذلك بَقْيار[٢] مرقوم، أو خفّ من أديم، وبغلة أو حمار[٣] بسرج؛ صار أبقراط يُحمل عنده بالقفّة، وينسى أنّ السيّد أبقراط قد أوصى أنْ لا تكون بزّة الطبيب سنيّة، لئلّا يحتشمه المريض [٤٣/و] أو يهابه، ولا ينبسط في شكوى حاله وإذاعة أسراره، ولاسيّما إن كان من المساكين والفقراء. وأن لا يكون لُبْسه أيضاً خَلَقاً أو دنِساً فيهون عند المريض ويُزدرى، بل يتوسّط في لباسه، ويلبس لباس أهل الورع والعقل.

ويُكره للطبيب أيضاً أن يحْسن لباسه جدّاً، وأن يكثر من الطيب، لئلا تميل إليه النساء، فإنّه ممّن يدخل على الحريم ـ وأنّه مروءة لمن يتّكل على تحسين نفسه ولبسه ويهمل معاودة بحثه ودرْسه، وقد اعتاد[٤] بذلك الجمهور من الناس فصاروا لا يميلون إلا لمن عظمت جثّته، أو طالت لحيته، أو حسنت بزّته، أو علَت وغلَتْ ركبته، أو فخمت نسبته؛ حتّى [٤٣/ظ] إنّني سمعتهم في البيوت يقولون: «هذا الطبيب يمشي أو راكب»؟ «وهل هو راكب حماراً أو فرساً»؟ فيعطون الكاغدة[٥] بحسب تفاوت هذه المراتب.

---

(١) على الحاشية: والتمهر.

(٢) بَقيار: فارسية؛ ضرب من العمائم كبيرة يعتمرها الوزراء والكتاب والقضاة (تكملة المعاجم).

(٣) حاشية: حمار عال.

(٤) بالأصل أعدوا، ومصححة كذا بخط مغاير.

(٥) الكاغدة بالأصل الورقة، أو الرزمة، أو جزء من ورقة، وما يصلح للتغليف. (تكملة المعاجم).

ورأيت حتى بعض اليهود من الأطبّاء إذا سئل عن نفسه[١] قال: أنا من أولاد **أبي الحوافر**[٢]؛ وأولئك من أكابر المسلمين فيتمتم عليهم، وربّما صار ذلك عرفاً عند قوم، فإذا طلبوا طبيباً ـ أيّ طبيب كان ـ يسمّونه **ابن أبي الحوافر**، وقوم يسمّونه **ابن أبي شاكر**[٣]. وسمعت امرأة تقول لأخرى: «ركبت لمريضي **ابن صغير** الذي في حارة الديلم»؛ تريد بذلك ابن أبي الحوافر، فقالت الأخرى: «ما ركبت أنا [٤٤/و] لمريضي إلا ابن صغير الذي في دار الرشيد»؛ تريد بذلك أحد **بني حُليقة**. فإذاً عندها أنّ كلّ طبيب من لوازمه[٤] وصفاته أن يكون ابن صغيّر لأجل اشتهار هذا الاسم. ومنهنّ من تقول: «ركّبتِ لمريضك اليهودي»؟ تريد بذلك أيّ طبيب كان، لكثرة اليهود في هذه الصناعة.

ورأيت الرجال والنساء إذا دخلوا إلى الورّاقين[٥] ليستوصفوا طبيباً، أو يركّبوه إلى مريض؛ نظروا يميناً وشمالاً، وقايسوا جثّة هذا الطبيب إلى جثّة هذا، ولحية هذا إلى لحية هذا، ولباس هذا إلى لباس هذا، فيقفون عند أكبرهم جثّة، وأطولهم لحية ـ عالماً كان أو جاهلاً.

---

(١) في الحاشية: نسبته.

(٢) منهم أحمد بن عثمان بن هبة الله القيسي المعروف بابن الحوافر (٦٥٧هـ) طبيب كحال. وولده عثمان (٧٠١هـ) عالم بالحيوان (معجم المؤلفين ١/ ١٩٢، ٢/ ٣٦٤). وأبوه عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل القيسي، جمال الدين (٦٢٠هـ): أكبر أطباء عصره، ولد ونشأ في دمشق، وخدم الملك العزيز (عثمان بن يوسف)، وأقام معه في الديار المصرية، فولاه رئاسة الطب. ثم خدم الملك الكامل (محمد بن أبي بكر) وبقي معه إلى أن توفي بالقاهرة (الأعلام ٤/ ٢١٥).

(٣) هم أولاد أبي حليقة، بني شاكر. ينظر ترجمتهم قبل.

(٤) بالأصل لازمه، ومصححة لوازمه بالقلم المغاير.

(٥) يقصد سوق الوراقين.

وقد قيل [٤٤/ ظ] في طبيب بهذه الصورة[١]:

ربّ طبيبٍ ذممتَ خبرتَه بَوّرني[٢] والزبون مغدورُ
بلحيةٍ جاوزَتْ حواليه طولاً وإنْ كان فيه تقصيرُ
كأنّه هامّة[٣] إذا انتفشتْ لكنّني في يديه عصفورُ
يكادُ من فرطِ طول لحيتهِ يقصدُها وخْدَها القواريرُ[٤]

وفي هذا المعنى وغيره أيضاً:

كلّ الأطبّاء له شافعٌ بالحُسْنِ واللِّبسِ أو اللَّبسِ
أو قولهم إنْ كان أبو حدّةٍ مِن حكماءِ الخاصّ بالأمسِ
[٤٥/ و] أو كونُه مستحقَراً ساقطاً ماتِرِيُّ القدْر والجِنْسِ
يسلبُ بالحيلة أضعافَ ما يبذلُهُ بالثمنِ البخسِ
وليسَ لي مِن دونهم شافعٌ غير اقتناءِ العلْمِ والدرْسِ
وجيلُنا لو قامَ فيهم أبقـ ـراط لما واسَوْه بالفِلسِ
ما أكسدَ المعقولَ عندَ الورَى أو مثّلُ الناس آل الحسِّ

---

(١) لم نتوصل إلى قائل الأبيات فيما توفر لدينا من مصادر.
(٢) بوّر: أخزى. (تكملة المعاجم).
(٣) الهامّة: كل حشرة مؤذية من الهوام، وتطلق على البومة، وعلى الخفاش مصاص الدماء. (تكملة المعاجم).
(٤) القوارير: هم النساء، شبههم الرسول ﷺ بذلك لضعف عزائمهن.

فقد بيّنت لك أنّ ملبوس الأطبّاء لا يطلبون به إظهار الجلالة والوقار والرئاسة والحدّة والقدرة والتنعّم كما يفعله الأخفّاء[١] [٤٥/ظ] من أرباب الأموال، وإنّما يريدون به الخداع والزعبرة[٢] والعِيارة[٣]. والدليل على ذلك أنّك إذا تأمّلت لابس الجبّة الكبيرة منهم؛ وجدت الذي من تحتها إمّا **أطماراً**[٤] أو **أخلاقاً**[٥]، أو ثياباً غليظة خشنة غير مناسبة الظاهر، هذا في أكثرهم، وأمّا في الكلّ فإنّهم يأوون مع ذلك اللباس إلى بيوت ـ كما قيل:

أُطـــوِّف مـــا أُطـــوِّف ثـــمّ آوي إلـى بـيـتٍ قـعـيـدتُـهُ لَـكـاعِ[٦]

أمّا المسلمون منهم؛ فأكثرهم عزّاب، وأنت تعلم عيشة العازب، فإنّها كعيشة المسافر والنازل في الخانات، ولا أقول [٤٦/و] الحانات، وأكثرهم مفتاح بيته في كمّه، وبعضهم معذّب بمقاساة غلام تولّى أمره، فإن طبخ له أمرقهُ، وإن طبخ عند الشرابجي أقرفهُ وسرق النصف، وإن اشتغل بغسل القماش تعذّر عليه طعامه وكنْس بيته وملء كوزه، فتجد بيته في الغالب وسخاً عديم الترتيب، ليس له حرمة، يهجمه الناس بغير إذن لعلْمهم بعدم الحريم فيه، وأيّة حاجة أرسل فيها الغلام تعطّلت الحاجة

---

(١) على الحاشية: الأخيار.

(٢) بالأصل العزبرة. الزعبرة: المكر، والمشي بزهو وتكبر. (محيط المحيط، وتكملة المعاجم).

(٣) العيار: الكثير التطواف والحركة، والتردد والمجيء والذهاب في طلب الصيد. (تاج العروس).

(٤) الطِّمْر بالكسر: الثوب الخلَق، وجمعه أطمار. (تهذيب اللغة- الأزهري).

(٥) ثياب أخلاق: بالية. (نثر النظم وحل العقد للثعالبي- ص ٦٧).

(٦) لكاع: المرأة الحمقاء. والبيت للحطيئة، جرول بن أوس ٤٥هـ (ينظر ديوان الحطيئة ص١٢٨، والصحاح).

الأخرى، ونفسه أشحّ، ومكسبه أضعف من أن يستكثر من الغلمان، ولو استكثر منهم تنازعوا في الحاجات واتّكل بعضُهم على [٤٦/ظ] بعض، وأضاعوا مصلحته، وتخاصموا على الشغل، واصطلحوا على النهب والسرقة، وسبب ذلك عدم من يرتّب البيت من المرأة الرئيسة والجواري كما يُعرف من المحتشمين. وإنْ اتّخذ جارية تعاملت مع الغلمان ونهبت الكلّ.

فأفضل أحواله أن يكون إمّا وحيداً يكنس بيته بيده، ويشتري حاجته بنفسه، كفعل سائر المحارَفين[١]، وإمّا أن يتّخذ غلاماً واحداً فيكون على ما وصفت، لا يقلّ اشتغاله، وهو بمنزله بمفرده، فكيف إذا ورد عليه ضيوف.

وإنّما قلت هذا على طريق المبالغة، وإلّا [٤٧/و] فذلك شيء غير معروف عند الأطبّاء، ولا هم مؤهّلون للقصد، ولا يعرفون الخلطة والعشرة وعمل المهمّات والولائم والضيافات، ولا الناس أيضاً يصلونهم[٢]، لأنّ المؤاكلة إنّما تكون بعد المصادقة، والمصادقة بين الناس إنّما تكون بسبب التعاون على اكتساب الأموال وإحراز المناصب، **وهؤلاء بمعزل عن الناس في ذلك، وكأنّهم فضلة منسيّة إلّا عند المرض**، فتوجب الضرورة طلبهم، كما قيل[٣]:

ولولا الضرورةُ لم آتِهِ وعندَ الضرورةِ آتي الكَنِيفا

[٤٧/ظ] **ولو كان** لأحدهم بيت أو مُقام لَما كان فيه مهناً؛ كالبيّاع والبقّال في أكله

(١) المحارَف: الذي يحترف بيديه. (لسان العرب).

(٢) في الحاشية: يضيفونهم.

(٣) القول لابن بسام البغدادي علي بن محمد بن نصر (٣٦٠هـ) في (ديوان ابن بسام ص ٥٠).

وشربه، ولكن بينما هو قد أتى هالكاً بالجوع، وقد وضعت له المائدة إلّا وطالبٌ يطلبه، فإن كان من أطبّاء الخدمة أتى إليه جندار[١] من باب السلطان يقول: «يا سيّدنا جُرِح الساعة أستاذ الدار بنفسه وأقلب الدنيا وقال: الساعة يحضر فلان»، ويوهم أنّ الملك بنفسه مريض أو بعض أولاده، ويكون الطلب بسبب ركبدار[٢] بعض المماليك، أو فرّاش بعض الخدّام.

وإن كان من أطبّاء السوق يصرخ عليه **عُطيّ** [٤٨/و] أو **قُسيّم** ويقول: «يا حكيم، المريض الذي سقيتَه الدواء ها هو ذا يموت الساعة»، ويترامى ويتغاشى، فيقوم غير مهنّأ بأكله أو بلذّته أو بعشيرته، ليلاً كان أو نهاراً.

وليس هم عند الناس من المحبوبين، لأنّهم إنّما يُطلبون في وقت مكروه، حتى إنّني وجدت الأطفال ينفرون من الأطبّاء[٣]، أمّا من الجرائحيّة والكحّالين فالسبب ظاهر؛ وهو الخوف من المشراط والكحل، وأمّا من الطبائعيّة[٤]؛ فعلى سبيل الإلهام الطبيعي، لأنّهم إنّما يعطون مكروهاً من الطعام والشراب، ولولا أنّ الكاملين من الناس يملكون أنفسهم [٤٨/ظ] لأظهروا أيضاً كراهيتهم لأنّهم لا يرونهم في وقت خير.

---

(١) جندار، وجاندار: فارسية تعني حامل السلاح (سلاح دار) جمعها جاندارية وجنادرة، وكان في مصر أيام المماليك (تكملة المعاجم).

(٢) ركبدار: هو مروض الجياد. (تكملة المعاجم).

(٣) مع الأسف في وقتنا الحاضر يخوف الطفل ويهدد بالطبيب، فهو الذي يعطي الحقن (الإبرة) إذا لم ينفذ الطفل أمر أهله.

(٤) الطبائعي: هو الطبيب الداخلي.

ولقد رأيت جماعة من العقلاء ـ فضلاً عن الرعاع ـ إذا رأوا الطبيب اقشعرّوا منه وقالوا: «اللهم اكفنا شرّه»، وذلك لأنّ شخصه يذكّر بالمرض، وناهيك أنّه دعوة؛ إذا قيل: «طلبك فلان»، قال: «طلبه طبيب».

وقد قيل: إنّ طبيباً كان بجواره مطربٌ، فإذا طرق باب الطبيب طالبٌ أخرج رأسه من طاقته وقال: «خيراً»، فيجاوبه المطرب ويقول: «لو كان خيراً طلبوني أنا».

وأكثر من يراني على باب صديق لي وله، يرتجف ويصرخ ويقول لي: «خيراً إن شاء الله، [٤٩/و] بفلان شيء»؟ فأقول: «لا والله، بل جئت أسلّم عليه»، فيقول: «كذا؟ الحمد لله». وإذا أتى صديق ليسلّم ولقيه صديق آخر فيقول: «إلى أين»؟ فيقول: «أريد فلاناً»، فيقول: «خيراً»؟ بصرخة، «أعندكم أحدٌ مريض»؟

هذا حال الطبيب، فلذلك لا يضيف ولا يضاف، ولا يدعى في الأفراح؛ للتنغّص بنظره، ولا في المآتم؛ للغيظ منه، ولا في المواسم الدينيّة؛ لأنّه عند الجمهور لا دين له، فبياض أهل الدين يشمئزّون من انحلاله، وسواد الناس يستثقلون شخصه، والأوساط يحسّون منه باستجهاله إيّاهم لأجل الكلمتين اللتين عرفهما، فهو **مصروم**(١) من الناس، مستوحش، لا [٤٩/ظ] أنيس له، وإنْ علقه بعضهم فليس للودّ، بل للخوف أن يحوجه إليه الدهر(٢).

ومن أعظم جزائه أنّه لو مات ولده أو أخوه لما حسُن به أن يمشي في جنازته، حذراً أن يُرمق بأنّه أخطأ فيه، ويصير بمشيته بين الحاضرين ممازحةً ومضاحكة.

---

(١) مصروم: مقطوع (تاج العروس).

(٢) كثيرون إذا صاحبوا الطبيب يقولون: «قد نحتاجه في يوم من الأيام».

فتأمّل حاله ما أضعفها، وعيشته ما أذمّها، هذا حال المسلمين منهم.

وأمّا اليهود؛ فظنّ شرّاً، ولا تسأل عن الخير؛ الصُّنان والنُّتان، والقتام والظلام، والذلّ والهوان، والبخل والقذارة، والقرَف الذي ليس له دواء، وناهيك أنّك إذا مررت بشوارعهم سددت أنفك، وشددت من الصداع [٥٠/و] رأسك، إذا طبخ أحدُهم المسكَ طعاماً صارت العذرة أطيب منه، وإذا لبس الصافي الأبيض ليلة واحدة أصبح كأنّه غسله بصفار البيض، أو بسُلاحة.

فليت شعري من يكون هذا بيته وهذه عيشته ماذا ينتفع بحسْن بزّته؟ وليس هو حينئذ إلا كما يقول العوامّ: «مثل قبور اليهود، من ظاهرها رُخام، وفي باطنها سُخام»، أو كما يقول الفصحاء: «كنيفة في جيفة».

وما السعادة إلا أن يكون ما خفي من الحال أحسن ما ظهر، فكيف يُعدّ من ذوي المروءات والكرم مَن لباسُه عِيارة، وبيتُه كالقبر ولكن لا يستحقّ الزيارة، وليس فيه ودك للفأرة.

[٥٠/ظ] ثمّ ليت لباسَه الزُّور يسلم له كما تسلم مُرقّعة الفقير أو مُضريّة[1] الفقيه من النجاسات والأقذار، بل هو في غالب الأوقات إمّا بين قارورة[2] مشقوقة تسيل على لباسه، وإن رفعها جدّاً سالت على لحيته، وإن كانت قنّينة ضيّقة العنق لا تسع مجرى البول سال أكثره على ظاهرها وأُحضرت إلى الطبيب وهي طريّة نديّة، فتمتلئ بها يده وتقطُر على ثيابه. وإمّا بين جلوس على أثر إسهالات المرضى وقيئهم وقيحهم

(١) كذا، ولعلها مصرية.

(٢) يقصد قارورة البول.

ودمائهم، وربّما بال عليه الصبيّ المريض وسلحَ حين يتناوله من أمّه ليُفلت [٥١/و] جسمه إن كان فيه ورم أو في بطنه نفخة، وربّما أُلجئ إلى أخسّ أمراض في الدبر كالأورام والبواسير ونتوء المقعدة والشُّقاق، فيزرق على الطبيب، وقد يتقرب إليه والقيء يحضّه فيتقيّأ عليه.

وممّا رأيته أنّي وطبيباً آخر كنّا نعود شابّاً من أولاد الأمراء، نظيف[1] الصورة، يغلب عليه دلال وترافة، بل وركاكة وثقالة، فرتّبنا له دواء كان مضروراً إلى شُربه، على أنّه يستعمله في غد ذلك اليوم، وكان صعب المراس فيما يشربه من الشراب، فضلاً عن الدواء المُسهل، فلمّا بكّرنا إليه من غدٍ وجدنا الدواء في القدح [٥١/ظ] وأصحابه حوله يتضرّعون إليه أن يتناوله، وهو يأبى ذلك ويشتمهم، وكان رفيقي ما يخلو من خفّة وقلق، وكان أقدم منّي هجرة في معرفته بذلك الشابّ، وكان من خفّته يظهر الإدلال عليه، وأكثر ذلك لكي يكون في الموضع أَمْيَز منّي ـ كما عليه جُلال[2] الأطبّاء من سوء العشرة وشدّة المسابقة.

وكان إذا كلّف الشابّ شُرب شراب افترى عليه وشتمه أقبح شتم، وهو لا يَرْعَوي[3]، وأبي الصحّة وانتبر عليه أن يرفع تعيينه عن ذلك، وهو يقول: «هذا إلّا ولدي»، فلما كان يوجر الدواء أظهر الحرد منه وأوجعه [٥٢/و] بالتعسّف، وذرّعه بأولاد أمراء أُخر أنشط منه للشرب، وأكثر طاعة للطبيب، وأسرف في ذلك، والشابّ يختنق منه غيظاً، ثمّ تناول الطبيب القدح وقرّبه إلى فم الشابّ، وحلف لابد وأن

---

(١) بالأصل نضيف.

(٢) بالأصل خلال.

(٣) ارعوى، يرعوي: يكف عن الأمر ويمسك. (شرح نهج البلاغة، والصحاح).

يشربه، فملأ منه شدقيه، وكان على صُفَّةٍ والطبيب من تحتها، ثم قذفه على بَقيارِهِ فنزل على وجهه ولحيته، فقال: «والله إنّك ثقيل»، فازداد منه غيظاً، وتناول منه القدح، وقلبه على ثيابه، وأتْبعه بصفعة، وأردفها برفسة، وأمر بإخراجه، فخرج إلى الطريق عُصَرةً وتجرّس إلى بيته.

وجرى لي أنا أيضاً مع شابٍّ آخر من بياض الناس [٥٢/ظ] كان به **حمّى مُطْبقة**(١)، وكان ذهنه يختلط مرّة ويفيق أخرى، فوصفتُ له دواءً، فهيأوه له في زبديّة من الفخّار وقدّموها إليه، فحلف أن لا يشربها حتى أحضر، فأرسلوا إليّ فحضرت، فأوهمني أنّه اتّهمهم في أمر الدواء، فعرّفته أنّني الذي أشرت به، فقال: «إذا كان سيّدنا ـ أبقاه الله ـ هو الذي أمر به نشربه على الرأس والعين»، ثمّ تناول الزبديّة وقذفها بأسرها على ثيابي وقال: «هذا جزاء من يكلّف الناس ما لا قدرة لهم عليه»، ثمّ نام وغطّى وجهه، فنسي أهلُه ما عندهم من أمره واشتغلوا بالضحك من أجله، وصرت أنا عُصرةً، فاستحَوا منّي، ونزعوا ثيابي وألبسوني غيرها، وانحبست [٥٣/و] عندهم إلى أن غسلوا الثياب وجفّت ولبستها، واعتذروا منّي بأنّه مخلّط الذهن.

وأخبرني بعض الأطبّاء قال: دُعيت إلى مريض وغفلت أن أسأل الرسول عن مرضه، وربّما كنت سألته فلم يخبرني عن شيء وادّعى أنّه لا يعلم، فساقتني الرغبة في الدرهم إلى أن صرت مع المريض، وجلست على العادة بالقرب منه، ولدهشة القدوم لم أتأمّل وقوف أهله منه بعيداً، وهم أيضاً لم يحذّروني منه، إمّا قلّة احتفال بي، وإمّا

(١) **الحمّى المطبقة**: هي كل حمى لا تقلع نوباتها، وهي حمى حادّة دائمة. (اصطلاحات الطب القديم).

لوهمهم أنّه يهابني دونهم، وإذا به **مانيّاً**[١]، وهو مسلسل، والسلسلة مخبّأة تحت الثياب لحشمة القوم، فما لبث أن نزل عليّ وقال: يا قوّاد [٥٣/ظ] أنت جئت تحقنني، وكاد أن يقتلني لولا حالوا بيني وبينه، هذا بعد أن ضمّخني ببرازه. وإذا به قد كان أحدث وحصله منذ سمع أنهم يدعون الطبيب، **فعلمت أنّ بغْضَ الطبيب كامنٌ في النفوس، وإنّما أظهره الاختلال.**

وحكى لي العمِص[٢] وهو رجل كان يتصدّى الطبّ في مدينة **قليوب** من غير أن يقرأه، إلّا دربة اكتسبها من دكّان العطر، قال: أتاني رجل من قرى القليوبيّة، شعث الحال، وذكر أنّ عنده مريضاً ولم يذكر لي مرضه، ولا شيئاً من أحواله أستنِد إليه في إعطائه حاجة من دكّاني، على أنّي لم أكن [٥٤/و] أقف مع غيره في ذلك لو لوجدت لي فيه مهرباً، فأردت التسويف به ودفعه عنّي، فقلت: «أحضر لي قارورة هذا المريض»، فقال: «وأيّ شيء هذه القارورة»؟ فقلت بحُراقي: «خذ بولته في وعاء وائت به إليّ»، ولم أقلْ له: «إراقته الماء والتي تخرج من ذكَره»، ولا قلت له: «واجعله في وعاء زجاج».

فمضى الرجل وغاب، وذهب عن خاطري، إذ كان ليس فيه صيدٌ، ثمّ حضر في اليوم الثالث ومعه كوز فخّار أبو أذن الذي من عادته أن يجلب فيه السمن، وهو مشدود الرأس بقبضة من **القُرط**[٣] الأخضر، وكان زمان الربيع، فما شككت أنّه

---

(١) مانياً: هو المصاب بالمانيا؛ وهي الجنون Mania.

(٢) كذا بالأصل، والعَمِص هو المولع بأكل الحامض (تاج العروس).

(٣) القرط: حشيش بمصر يزرع ويحصد (معجم النبات ١٤٣/ ١٨).

[٥٤/ظ] أهدى إليّ سمناً، فنشطت للسلام عليه وأجلسته بالقرب منّي على المصطبة وقلت: «يا أبا فلان، تعذّبت»، فقال: «ما عليّ، هات يدك»، فظننت أنّه يريني حُسن السمن، فمن شرهي وفرحي به ذهلت عن حساب آخر، فمددت إليه يدي وهو على حجري، فدفق من الكوز دفقة ملأت يدي وثيابي وتعدّت إلى حصير المصطبة، وإذا به براز في غاية النتن، وكادت روحي أن تخرج من كراهته، وقلت: «يا شيخ ما هذا الذي فعلت»؟ فقال: «أنت قلت لي أحضر بوله»، فقلت: «يا شيخ الذنب لي». وبحَت الجيران بأرجلهم من الضحك.

فهذا حال [٥٥/و] الطبيب في غالب الأوقات، فهو لا يثق بطهارة ثيابه، ومن أين له ذلك؟ وهو يعاني طول نهاره من النجاسات؛ من بول، وغائط، ودم الحيض والبواسير والجروح، وقيح القروح. ولا يحتشمه الناس، ويحتشمون أقلّ الناس من ذكْره فضلاً عن رؤيته.

ولقد تُزاحم عليه في بيته أو في دكّانه القوارير، وصحاف البراز، وأقداح نفث المسلولين، فيقول الرجل العاقل للمرأة: «لا تقرّبي القارورة إلى باب الحكيم»، فتقول: «يا ويلي كان يترك الطبّ ويفتح دكّان عنبري، أليس لهؤلاء شغل؟»، فإن حملت الطبيب الأنفة حتى يغلط فيظهر التأفّف من القارورة [٥٥/ظ] أو صحفة البراز قالت: «رُح، والله ما تعرف شيئاً، وذا عجب عظيم ما أنت طبيب، أنت أمير، كان والله فلان الطبيب يدخل إلى عند ابني وهو مسهول، يقلّب برازه بيده، ويشمّه، وإلّا يا خْتي[١] فلماذا يصلح الطبيب؟».

---

(١) (يا ختي) يستعمل المؤلف اللهجة المحلية المصرية هنا وفي العديد من الأقوال.

وسمعت جماعة حتّى[١] من بياض الناس يقولون لي ولغيري من الأطبّاء: «يا حكيم، حقّاً ما الصناعة؟ تأمر الطبيب أن يذوق براز المريض وبوله»؟ فيقول له رفيقه: «خلَق الله ذا»، فيقول: «اسكت، ما تعرف شيئاً، هذا إلّا تستدلّ بطعمه؛ هل هو مرّ، أو حامض، أو مالح؟» ومعلوم أنّ ذلك يقتضيه [٥٦/و] القياس الصناعي.

ولذلك يقول **الشيخ الرئيس** في كتاب[٢] «**القانون**» - حين ذكر الاستدلال بمقدار البول، وقوامه، ولونه، وصفائه، وكدورته، ورسوبه، وزبَده، ورائحته، قال: «ومن طعمه، وقد أسقطنا ذلك»[٣]. أي أنّ الصناعة تقتضيه، وناهيك عن تقلّد المنن بكونه يوفّر من ذوق البول والبراز، ويفرّح بتركه.

وأخبرني بعض الأطبّاء قال: دُعيت إلى صبيّ به دوسنطاريا، وهو يختلف[٤] برازاً ودماً غُسالياً ودُردياً[٥] شديد النتن، فكانوا يُحضرون إليّ الصحاف صحفة صحفة، ويقرّبونها من أنفي بالقصد، [٥٦/ظ] لكي أشمّ رائحتها، لأعرف كيف أعالج، ولا أخرج من عنده إلا دائخ الرأس مصدّعاً.

فاتفق يوماً أنّ عجوزاً حضرت معي عند الصبيّ، فقالت لأبيه - وهو رجل تُركيّ

---

(١) على الحاشية: شتى.

(٢) في الحاشية: كليات. والشيخ هو ابن سينا، وكتابه «القانون في الطب».

(٣) على الحاشية: ولكنا أسقطناه تخفيفاً عن الطبيب.

(٤) **الاختلاف**: هو الإسهال الكائن بالأدوار؛ Periodic diarrhea. وقيل: الاختلاف والخِلفة كنايتان عن تواتر القيام للبراز. (اصطلاحات الطب القديم).

(٥) **الدُّرْدِي**: بالضم، ما بقي أسفل الزيت وغيره من كلّ مائع، وهو كدر كلّ شيء، خلاف الصافي. وقيل: هو الرَّوْبة. (اصطلاحات الطب القديم).

غضوب شديد البأس، وكان متحرّقاً على الصبيّ: «يا خَوَند[١]، ذاق أحدٌ براز الصبيّ إلى الساعة حتّى يعرف هل هو من كبده؟» فقال: «لا والله، ومَن يفعل هذا»؟ قالت: «هذا من لوازم المولى الحكيم ـ أبقاه الله؛ كان الحكيم فلان ـ رحمه الله ـ طبيب السلطان، وكان قد عرض لولد السلطان مثل هذا، فكان كلّ يوم يذوق ما يُقدّم إليه من إسهاله، وإلّا فكيف يداويه؟»

فأشار إليّ التُّركي [٥٧/و] بأن أذوقه، فقلت: «يا سيّدي، هذا شيء ما جرت به عادة»، فقال: «مليح، فقل إنّك هذه المُدّة تحنَث[٢] عليّ وتفرّط في ولدي وأنت الذي قتلتَه»، وأخذ بلحيتي وأطواقي وقال: «ما أتركك[٣] إلى السلطان»، وكان له جاه وحرمة، فخفت أن تتّسع الدائرة وأتجرّس معه في الطريق وهو راكب وأنا ماشٍ وممسوك، فلم أجد بدّاً من ملافاته بأن ذُقت البراز، وخرجت من عنده، فأقمت شهرين مريضاً على صماخ أذني، لا أشرب الماء إلا وأقذفه للوقت قرَفاً[٤].

وأمّا إحضارهم للطبيب ما يخرج في الإسهال الكبدي من قطع اللحم لكي يشمونه

---

(١) خوند: سيد. هي من لغة الأتراك الشرقيين. (تكملة المعاجم).

(٢) الكلمة غير منقوطة بالأصل. الحِنث: الذنب العظيم، والحِنث إذا لم يبرّ بيمينه، وقد حنِثَ يحنَث. (كتاب العين). ولعل صحتها: تكذب.

(٣) أتكل بالأصل.

(٤) أصلحه الله، لو كنت مكانه لعملت كما عمل أستاذ المخبر عندنا في كلية الطب؛ حيث قال: يجب على الطبيب أن لا يقرف من شي، حتى البراز يمكن أن يذوقه، وكان مستحضراً لطبق فيه شيء من البراز فعلاً، وغمس أصبعه فيه وتذوقها بلسانه، وطلب أن يحضر أحد منا ليجربه، فوضع إصبعه فيه ولكن لم يتذوقه قرفاً، حينها اعترف لنا الأستاذ بأنه لمس أصبعه بالبراز فعلاً ولكنه تذوق الإصبع التي بجانبها دون أن نلحظ ذلك، وضحكنا.

ويشمّه، ومن نفْث المسلول [٥٧/ ظ] **المنتن لكي يمتحنه بالماء وبالنار**[١]؛ فذلك كثير. وكذلك ما يحتاج إلى تصفية البول عنه؛ كالرمل والمِدّة[٢] التي تخرج من الكلى والمثانة. وكذلك اعتباره **للخشَم والبخْر**[٣]؛ هذا حال الطبيب الطبائعي.

وأمّا من هو مقروح[٤] مندرج معه في أعمال الطبّ **كالأُساة**[٥] والجرائحيّة؛ فإنّهم غارقون في الدم والمِدّة والبول والبراز عند قطب الجراح وتنظيف القروح وشقّ المثانة وردّ المقعدة وعمل الحقنة، وغير ذلك، فمن أين تجتمع هذه الصناعة والنظافة والترف.

وأمّا الانتفاع باللباس الحسن، وهو في الغالب نجس وسخ، تأباه [٥٨/و] الأنفس الأَنِفة والطباع الطاهرة. والرضا بذلك، والطمأنينة إليه، والاستمرار عليه يدُلّ على زوال الأنفة وسقوط المروءة.

فقد اتّضح لك أنّ لباس الطبيب، وعيشته في بيته، وطعامه وشرابه، وإضافته وعشرته تدلّ على سقوط مروءته.

ثمّ لنعُدْ إلى ما كنّا فيه من ذكْر حال المبتدئ أوّل جلوسه للطبّ، وبعد تفخيم

---

(١) امتحان النفث بالماء والنار يكون برسوب مِدة النفث في الماء، وإنتانها على النار، بعكس البلغم فهو طافٍ في الماء، غير منتن على النار. (ينظر القانون لابن سينا ج٢ ص٣٥٣).

(٢) المِدّة: هي القيح.

(٣) الخشَم هنا يقصد به رائحة الأنف الكريهة (في الطب الحديث بسبب التهاب الأنف الضموري Ozena، والبخر؛ هو رائحة الفم الكريهة Halitosis).

(٤) كذا، ولعلها مقدوح، أو ممدوح.

(٥) الأساة: جمع آسٍ، وهو المعالج أو المداوي. (كتاب العين).

لباسه وجلوسه على المصطبة العالية، ومن خلفه العَتَبة العبَدانيّة[١]، يسرع في أذى الأطبّاء ونيلهم وذمّهم وسبّهم، كائناً من كان، ولو ذكر له شيخه الذي أقرأه وكان جالينوس عصره، ينقّصه ويُحطّ من [٥٨/ظ] مقداره، وإن لم يجد طعناً على علمه طعن في معالجته، وقال له: «اشتغل بكثرة العلوم والنظر في حسن ترتيب المباشرة والمعالجة، وإنّ حُسن الدربة والعلاج هي الغاية المطلوبة من علم الطبّ، وإذا لم يحْسن الطبيب ذلك لم يُنتفَع بعلمه».

ويضاحك المستطبّين ويداعبهم، ويؤانسهم ويبجّلهم ويكرمهم، فيقوم لهم ويبالغ في إكرامهم وقضاء حوائجهم، والتردّد إلى بيوتهم ابتداءً منه، بأجرة وبغير أجرة، والتقرّب إلى قلوب النساء بما يوافق آراءهنّ وأغراضهنّ، والسؤال عنهنّ وعن أولادهنّ، وخصوصاً [٥٩/و] إن كان يهوديّاً؛ فإنّه لا يأنف من ذلك، وإنّما يفعل ذلك مع الناس ليفسدهم على بقيّة الأطبّاء، ويتصيّد الزبون بعينيه وفمه ويديه، ويستدعي المساعدة له على ذلك من عطّاره، ويوهمه أنّ الحظّ الأوفر له في ذلك، فربّما صدق له وتواطأ معه على الطرقيّة، وربّما انفرد عنه بالراحة أو بأكثرها وساسه ببعضها، وكلّ ذلك يدلّ على عدم المروءة في حقّ عطّاره الذي هو عنده كالضيف عند المُضيف، فيخون مضيفه ويسبّ أكثر فوائده؛ فهو كما قيل[٢]:

وكنتَ إذا نزلتَ بدارِ قومٍ   رحلتَ بخزيةٍ وتركتَ عارا

---

(١) لعلها نسبة إلى عبَدان، وينسب إليها الحصر وغيرها.

(٢) البيت لجرير في هجاء الفرزدق:

وكنت إذا حللت بدار قوم   ظعنت بخزية وتركت عارا

(وفيات الأعيان ج٦ ص ٩٠).

[٥٩/ظ] ويقول في البيوت إذا وصف دواء: «خذوه من عند عطّارنا فإنّه متفوّق نَصُوح، وعنده حاجة مليحة»، ثمّ يستثني كالناصح لهم فيقول: «إلّا أنّ **الراوند**[١] الصيني الذي عنده ما هو بذاك الطائل، ومثلكم أنتم ما يطلب إلا راونداً صينيّاً طيّباً أعلى ما يكون، فإنّي أعرف شرف نفوسكم»، ثمّ يدلّهم على عطّارين أو ثلاثة يعلم أنّ ما عندهم الكمّون **والأنيسون**[٢] فضلاً عن الراوند، فيمضون إليهم فلا يجدون شيئاً، فيعودون إليه فيقولون: ««ما رضوا يقرّون به»، فيقول لهم: «هاتوا ثمن مثقال أو مثقالين حتى تستعملوا بعضه وتدّخروا البعض، [٦٠/و] فهذا ما يؤخذ في كلّ وقت»، فيأخذ منهم عشرة دراهم، ثمّ يحضر لهم مثقالاً أو مثقالين من الراوند التركي المثقل بماء الهندباء من صنعة ابن العجمي، أو نُصير الذي يسمّي نفسه الكوهين[٣] ليتعيّش على اسمه.

وأمّا إذا وصف **طيناً مختوماً**[٤] أقلب الدنيا وقال: «هذا اليوم معدوم، ما يؤخذ عند الملوك والوزراء إلا عند شخص من المواريث، فضل عنده قليل من عهد أجداده كانوا من الوزراء أو من الملوك ولا يمكن أن أسمّيه لأنه يخاف أن يُقلع منه،

---

(١) هو نوع خشب يستخدم في العلاج.

(٢) هو اليانسون.

(٣) لعله نسبة إلى كوهين العطار ابن أبي نصر (٦٥٨هـ) صاحب كتاب (منهاج الدكان ودستور الأعيان).

(٤) **الطين المختوم**: طين أحمر اللون طيّب الرائحة، يلصق باللسان والشفة، يجلب من موضع يسمى بحيرة، من مغارة في جزيرة من بلاد الروم (لمنيون)، وعليه خاتم الملك اليوناني Artemis، وقيل: هو معروف بطين الكاهن، ومختوم بخاتم عليه صورة الراهب. (اصطلاحات الطب القديم).

والأسرار عند الأحرار، وما يحلّ لي أن أحرم الناس نفْعَه والانتفاع بما عنده»، ولا يزال يكري[١] عليهم إلى أن يعطوه ثمن نصف درهم [٦٠/ ظ] منه ديناراً، ثمّ يحضّر لهم **طيناً أرمنيّاً**، أو **مغرة**[٢] مصوّلة، مدسّمة ببعض العطريّات[٣]، مختومة.

وكذلك يفعل في الكحل الأصفهاني[٤]، وفي الساذج الهندي[٥]، فيبدّل هذا بخزّ الوادي[٦]، ويجري عليه عيوناً من ورق الذهب، ويبدّل الآخر بدواء يُعرف بالطاليسفر[٧] فيه شبه من الساذج. وقد يبدّل لهم الزمرّد بالزجاج المصنوع، وكذلك الياقوت الأحمر.

ولقد أخبرتني بعض نساء الأمراء المُعدّلات قالت: حضر إليّ طبيب، وسمّته لي، وزعم أنّني لا أجد البرء ما لم يركّب لي معجون **المفرّح الياقوتي**[٨]، فجمعنا أدويته،

---

(١) كذا، ويكري: تعني يؤجر، ولعل هنا من العامية (يكري: بالجيم المصرية، تعني يكثر الكلام).

(٢) الطين الأرمني، وطين المغرة، من الأطيان أيضاً .المَغَرَة: بالتحريك والسكون، طين أحمر اللون يصبغ به، وهو المشق، ومنه الثوب الممشّق، منسوب إلى بلاد السويس. (اصطلاحات الطب القديم).

(٣) على الحاشية: اللعابات.

(٤) هو الإثمد، وهو حجر يؤتى به من أصفهان ومن المغرب. (اصطلاحات الطب القديم).

(٥) هو نوع نبات. سمي كذلك لأن أوراقه سبطة لا خطوط فيها. (معجم النبات ٤٩/ ٤).

(٦) لعله خز الماء، وهو نوع طحلب، ينظر معجم أسماء النبات ١٠٦/ ١٥.

(٧) هو جوز الطيب (معجم النبات ١٢٢/ ٦).

(٨) المفرح الياقوتي: أحد الأدوية المركبة، وهو من المفرحات، وأحد مفرداته الياقوت. والمفرح هو كل مركب اشتمل على تصفية النفْس والقوى والفكر. (تذكرة داود ٢/ ١٦٣). وتركيبه في (منهاج الدكان ٣٧).

[٦١/و] وأظهر الاحتراز بأنّه لا يصنعه إلا بين أيدينا، ثمّ قال: «يا سيّدتي، هذا الدواء يقوَى ويضعُف بحسب علوّ الهمّة»، فقلنا له: «وكيف ذلك»؟ فقال: «من الناس من يجعل فيه من سحالة الياقوت العَشِم[1]، واللؤلؤ الخردلي فيأتي في غاية الضعف، ومنهم من تعلو همّته فيكسر فيه فصّاً جليلاً من الياقوت الأحمر وكبار اللؤلؤ فيأتي عظيماً».

فأرَيْناه فصّ ياقوت أحمر له ثمنٌ عظيم فقال: «مثل هذا يصلح لمثلكم، والذي يقوّي الإنسانُ به قلبَه خير من الذي يضعه في إصبعه، أو يتجمّل به من خارج وهو ضعيف الباطن»، فهوّن علينا أمره، ثمّ قال: «دعوه إلى نهار الغد واسحقوا [٦١/ظ] غيره من الأدوية حتّى أُحرّر لكم طالعاً جيّداً لسحقه».

ثمّ عاد إلينا بعد يومين وهو عجل، كأنّه ظفر بطالع سعيد يخاف أن يفوته، فقال: «هاتوا الهاون»، فأحضرناه، وقال: «أروني الفصّ»، فأخذه بيده، قالت: وأنا أرمقه من وراء الستر، فدكّه بين أصابعه، وأظهر من يده الأخرى فصّاً يشبهه في لونه وتكوينه وقدره، وألقاه في الهاون، وقال: «يا جارية اسحقيه بيدك»، فلمّا دقّته دقّة واحدة انكسر، فعلمتُ أنّه ليس بياقوت، فقلت: «يا جارية هاتِ الهاون حتّى أشاهد تكسير الياقوت إن كان كظاهره»، وكان قصدي أن أعلم ما هو لئلّا يكون زجاجاً [٦٢/و] فأتضرّر به في الدواء، فلمّا أحضرته وجدته كما ظننت، وغضبت عنه، وقلت للجارية: «كمّلي سحقه»؛ لكي لا يحسّ أنّني فهمت، ولمّا خرج رميت به وبدّلت بغيره.

---

(١) العشم: اليابس (لسان العرب).

وكذلك أخبرتني أخرى عن بعض الكحّالين ـ وسمّته لي ـ أنّ الحاجة دعت إلى **كحل أغبر**(١) يعمله، وأخرجت له لؤلؤتين لهما مقدار، فرأتهما مِن غده ومعه لؤلؤ كان قد خرطهما وهندمهما من الصدف على قدر اللؤلؤتين، واستحضر الهاون، واللؤلؤتين بدّلهما، وطرح الذي معه، واستحيت وأغضبت إلى أن خلط الكحل، ثمّ رميت به ولم أدَعْ أحداً يستعمله.

ولقد بالغ أحدهم إلى أنْ قال لبعض المرضى: «إنّ في الجامع الفلاني [٦٢/ظ] طاقة متى كتبت اسم المريض عليها برئ من مرضه»، فسألوه أن يفعل ذلك لسذاجتهم وشدّة لهفهم على المريض، فزعم أنّ ذلك لا يقدر عليه إلّا قيّم الجامع، وأنّه لا يكتبه إلّا بمائة درهم، فأعطَوه المائة درهم، واجتمع بالقيّم ومعه خادم صغير من عندهم وأعطاه عشرة دراهم، ففرح بها وكتب على الطاقة ما أراد!!.

ومن أطبّاء الأسواق من يعرف في الأدوية، فيسمّيها بأسماء لا حقيقة لها، ويتواطأ مع بعض العطّارين فيبتاعها منه بجملة يقتسمانها.

أخبرني بعض الأصحاب قال: كان طبيب يعودني في المحلّة(٢)، وأنا في مرضة شديدة، [٦٣/و] فكان يعرف في الأدوية، فيكتب في الورقة: «يؤخذ شرماطوس، وورق القاطرخون»(٣)، ومثل هذه، فيطوف المحلّة عليها فلا يجدها، فيقول: «معاذير، هذه أدوية ما عليهم الإقرار بها لأنّ فيها خطراً عظيماً عليهم، ولا يقرّون بها

---

(١) الكحل الأغبر: هو باعتبار الصفة، وهو من صنعة جالينوس. (اصطلاحات الطب القديم).

(٢) هي منطقة في القاهرة.

(٣) هذه الأسماء لا وجود لها بين الأدوية في الطب القديم.

إلّا لطبيب، وأنا لأجلكم أروح بنفسي وآخذها منهم»، ثمّ يستدعي عشرة دراهم[١]، ويستصحب معه بعض الغلمان فيوقفه بعيداً، ويقول له: «لا تقرب الدكّان لئلا يختبئ[٢] ولا يخرج هذا أبداً»، ويتحدّث مع العطّار حديث من يهزّ معاطفه ويقرّره، ثمّ ينتقل منه ويذهب إلى آخر، ثمّ يعود إلينا ومعه حاجة ما ندري ما هي، فيسحقها ونستعملها.

[٦٣/ظ] فلمّا منّ الله بالعافية اجتمعتُ بالعطّارين الذين كان الغلام يراه عندهم، وعاتَبْتهم[٣] على إنكارهم تلك الأدوية، فحلفوا أنّ ذلك لم يقع قطّ، وأنّ الطبيب كان يشتري منّا ذلك بفلسين، وهو كذا وكذا.

فتأمّل إن كان هذا المتكسب يدلّ على مروءة الكرام وأنفة الأعزّاء، أو على سقوط النفس ودناءة الهمّة، هذا حال من يستعمل منهم الطرقيّة والحيلة والغريّة[٤].

وأمّا من لا يتصدّى إلى ذلك منهم، ويقتصر على أجرته، فإنّه يقابل بأجرة لو قوبل كَنّاف أو كَنّاس[٥] أو مرقّع يقطع الخفاف والنعال؛ فلا يقال له كما قال للمشقّع والمرقّع: [٦٤/و] «يا أخي هذا الخُفّ أو هذا الدلق[٦] بكم تشقّعه أو ترقعه»؟ فيقول: «بكذا وكذا»، ويستقلّ منهما أجرة معلومة، ولا يسلّم صاحب الخفّ خفّه، ولا المرقّع مرقّعتَه إلّا أن يستوفي الصانع أجرته عن آخر درهم وفلس.

---

(١) عشرة دراهم: بالأصل غلامه، ومصححة كذا.

(٢) لم نتحقق الكلمة.

(٣) بالأصل وعتبتهم.

(٤) لعلها كذا. والغرية: طائفة من الأكراد. ولعلها العرنة: وهو رجل شديد لا يطاق، والصريع الخبيث.

(٥) كتب على الحاشية: لحمل الحمير وللبغال وقطع.

(٦) كذا بالأصل، ولعلها الدلو.

وأمّا الطبيب؛ إذا وقف الزبون عليه فأوّل ما يهينه بقوله: «قُم يا حكيم أبصر لنا هذا المريض»، فيقول له: «أين الموضع»؟ فيقول: «هنا قريب عند **باب زويلة**»[١]، ويكون عند **جامع ابن طولون**، أو يقول: «عند باب الفتوح»، ويكون عند دير الخندق، أو يقول: «خارج باب القنطرة»، ويكون عند باب البحر، [٦٤/ظ] فإن غلط وقال: «أمعك حقّ الركوب»؟ صرخ وجلّب واستدعى[٢] الحاضرين وقال: «نحن من أظراف الناس»، ويكون إمّا عُطَيّ الفرّان، أو عُزيّز الزبّال، ويقول: «يا أصحابنا هذا طبيب؟! صارت الأطبّاء أيضاً يشارطون في الطبّ؛ هي شقّة أطلس، أو قُلّة زبيب، أو بطة عسل، ثمّ غير كلمتين يكتبها في ورقة، اللهم انزعه علماً من صدورهم، وأغننا بالعافية عنهم، والك يا عُطَيّ، رُح بنا وخلِّ المريض يموت، ولا الحاجة إلى هذا»، فيقول الحاضرون: «يا حكيم، ما يكون كذا، هذا إلّا شخص في شدّة، إن أعطَوك شيئاً وإلّا لك الأجر وما يضيع عند الله»، ويكلّفوه القيام معه.

فإن كان حوله [٦٥/و] جماعة يستطبّونه على الدكّان وأراد القيام مع الزبون قالوا: «إلى أين يا حكيم، ما تصف لنا، كيف يحلّ لك أن تقوم لأخذ الدرهم، وتترك الفقراء والذين لأجل الله»، ويقول الزبون: «يا سيدنا، خَفِ الله، هذا المريض في شدّة، وإلى الآن ما أفطر، وقوّته ساقطة».

فيحتار بين القيام معه وبين طبّ أولئك، وتفترق عليه قُضاة الطريق؛ فواحد يقول: «كان الواجب أن يروح أوّلاً إلى هذا المريض الملهوف»، وآخر يقول:

---

(١) باب زويلة: أحد أبواب القاهرة.

(٢) في الحاشية: واستدعى مساعدة الحاضرين. (أقول: ومثل ذلك يقال في زماننا: يا دكتور أنت عملك إنساني!!).

«ما يجوز أن يترك هؤلاء ويمضي»، وتصير صورته صورة المقبّح في الأمرين وتركهما، فإن كان نطاسيّاً[١] أخذ يهدر لأُولئك عجلاً [٦٥/ ظ] ليجمع بين المصلحتين، وهو تارة يتكلّم وتارة يمشي، والذي قدّامه يستعجله، والذي وراءه يمسك بثوبه[٢] ليقف حتّى يحدّثه، فتراه كأنّه مجنون، يجري خلف واحد ويجري خلفه آخرون.

فتأمّل هذه الحال المريرة[٣] عند استدعائه، فإذا فكّ الله أَسْرَهُ من أولئك الذين يحلّقون عليه ويصفونه بالقساوة، وسار مع الزبون إمّا ماشياً وإمّا راكباً تجاذبه الناس، فيدعوه السمّاك والإسكاف والطبّاخ وأمثال هؤلاء فضلاً عمّن هو أكثر منهم معيشة، فيقول: «يا حكيم، يا حكيم»، فيقول آخر: «اسكت الحكيم الله»، قصداً في النكاية لا العبادة. فإن تمادى ولم يلتفت [٦٦/ و] شتمه[٤] السوقة والسُّواد وقالوا: «أبصِر ما أحمقه! الله لا يعافيكم، هذا المسكين يدعوه وهو يسمع ويتخابث»، ويقول آخر: «يا أخي أيّ شيء ترجو من يهودي عدوّ الله ورسوله» ـ لأنّ الغالب عندهم أنّ كلّ الأطبّاء يهود.

وربّما جرى بعضهم خلفه وأمسكه إمساكاً مؤذياً بعنف وقال: «ما تسمع هذا المريض كيف يستغيث إليك؟»، فيردّه إليه قسراً، هذا والزبون يستعجله ويطرق يداً على يدٍ ويقول: «لا حول ولا قوّة إلا بالله، صار الظهر يا شيخ، أروح آخذ طبيباً آخر غيرك».

---

(١) النِّطاسيّ: عالم بالأمور حاذق بالطب وغيره. (لسان العرب).

(٢) حاشية: بغير احتشام.

(٣) بالأصل المدبرة.

(٤) بالأصل شتموه.

فيكون هذا الكلام[١] عند الطبيب أشدّ من الموت، خوفاً من ضياع تعبه [٦٦/ ظ] ورجوعه إلى السوق خجلاً وفوات الدرهم، فما يصدّق أن يصف لذلك السمّاك فيريد مفارقته، فيمسكه بيده ويقول: «يا حكيم تمهّل عليّ لله»، ويقول أعوانه أشدّ من ذلك، ثمّ يأخذ السمّاك يصف له ما كان أصابه من عام أوّل، وكيف كان مرض وأفاق، ثمّ مرض وأفاق، ربّما جعل السبب في مرضه ما يلقاه من صناعته، وانتقل من شكوى المرض إلى شكوى الصناعة وتعبها وغرامها، كلّ ذلك **بألفاظ عامّيّة** ثقيلة على القلوب والأسماع، لا يُفهم منها معنىً البتّة، والطبيب يتفتّت ويذوب من ذلك، والمريض متشبّث به، هذا والسمّاك متّكئ [٦٧/ و] والطبيب قائم على قدميه أو على دابّته، والعابرون يضحكون من وقوفه.

فإذا فرغ صاح به آخر من الجانب الآخر وقال: «يا كوهين»، أو «يا ريّس»، ولو كان شريفاً فلا يُجْرونه إلا مجرى اليهود، ومنهم من صار اسم الحكيم عنده عَلماً لليهودي، فإذا قال: «يا حكيم»، كان في نفسه أنّه قال: «يا يهودي». ولقد سمعت صبيّاً يقول لطبيب مسلم: «يا حكيم»، فأنهره رجل شيخ، إنهارَ عارفٍ بالأمور، عاقلٍ على نفسه، وقال[٢]: «إنكم جيل رديء! تقول لرجل مسلم يا حكيم؟ هو يهودي؟ استغفر الله».

ثمّ إذا فتح الله وتخلّص من عُطَيّ السمّاك، ورثى[٣] له البقّال، ووقوفه على قدميه

(١) الكلمة بالأصل.

(٢) أضاف في الحاشية بالقلم المغاير: لا أنشاك الله ولا حياك.

(٣) بالأصل ورنا.

على دكاكين أمثال هؤلاء؛ [٦٧/ظ] وهم متّكئون، ولا يحتفلون بقيامه، وربّما قطعوا كلامه بالحديث في أخسّ الأشياء؛ مثل حالة مقشّر السمك، ورباطه الوصفة[١]، والطبيب يهذي في الحوائج[٢]، وينصرف آخر الأمر بغير حمد ولا ثناء، لأنّه لا ينفصل من أمثال هؤلاء إلا بعد أن يُكرّر له الوصف ألف مرّة، ويقول: «والله يا حكيم ما حفظت شيئاً ممّا قلت لي»، ويعدُه وعداً جميلاً ينفصل به مسروراً إذ يقول له: «رُح الساعة يا حكيم إلّا أنت مستعجل إلى أن تعبر إن شاء الله في العودة، وتكتب لي الذي قلته في ورقة».

فينفصل عنه وهو كالمصفوع المهان، [٦٨/و] وما يكتفي بذلك حتى يشبعوه بأن يقول أحدهم للآخر: «ما يعرفون شيئاً»، فيقول الآخر: «لهم في أكتاف الناس رزق (وإن بري بري وإلّا ترلري)[٣]».

وربّما مرّ طبيب آخر والسوقة يتزاحمون عليه، فيحسده على ذلك الهوان والتبذّل، فيكون كما قيل:

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبُه أنّي بما أنا باكٍ منهُ محسودُ[٤]

ثمّ إذا فتح الله ووصل مع الزبون إلى البيت المقصود؛ إمّا ماشياً منبهراً[٥] ممّا قاساه من جذب الناس له، وسعي الزبون ليكلّفه السرعة، وإمّا راكباً قد تكسّرت عظام

---

(١) لم نتحقق العبارة.

(٢) على الحاشية: الريح.

(٣) ما بين قوسين كذا. ولعلها من تعابير التهكم العامية.

(٤) البيت للمتنبي، ويروى أيضاً: ... أني بما أنا شاكٍ... (ديوان المتنبي ص ٥٠٦).

(٥) البُهر: هو ضيق النفَس.

ساقيه وركبتيه من ركب الخيل ورؤوس [٦٨/ ظ] الدبابيس[١]، والناس تشتمه ممّا يرميهم ويؤذيهم لعجلته من جهة الزبون، وسببه أنّ عقله وراءه في السوق خوفاً أن يحضر بعض زبوناته فلا يجده، فيستدلّ به غيره وينفسد عليه، فيودّ لو كان كالطائر سرعةً.

وإن اتفق من خموله أن يكون فتوحها إلى دير الخندق، وله بيت في جامع ابن طولون يخاف فواته، وآخر في باب البحر، فتراه يجري متحيّراً يقضي نهاره بين هذه البيوت الثلاثة بثلاثة دراهم وزنها درهمان، والناس يعدّون له على أصابعهم أنّه لحق ثلاثين بيتاً، وقوم يقولون: بل خمسين بيتاً [٦٩/ و] بخمسين درهم .فإذا وصل إلى باب المريض تركوه قائماً ساعة كبيرة؛ إمّا ليتهيّؤوا لدخوله ويصلحوا شأن المريض، وربّما استعجلهم فقالوا: «يا حكيم، ارفُق، فإنّ المريض حاشاك على **القصريّة**[٢]»، أو يأخذ لك القارورة، وإذا دخل استقبلوه ببرازه وبوله، وإمّا ليتردّدوا في دخوله أو ردّه، وربّما سمعَهُم من الباب يتقاولون؛ فيقول بعضهم: «دعوه يدخل لئلا يصير قبيح»، وبعضهم يقول: «ما لنا بهذا حاجة، ما طلبنا إلّا فلاناً»، يعنون طبيباً آخر، ويقول بعضهم: «هذا ما يعرف شيئاً»، ويتّفق أن يكون أعلم الأطبّاء، ويقولون: «أين هو من [٦٩/ ظ] فلان الطبيب»، ويكون أقذر الأطباء وأجهلهم.

---

(١) الدَّبّوس: للمقامع من حديد وغيره. قال القلقشندي في صبح الأعشى: (ويجعلوا الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب).

(٢) قصرية: مبولة، وعاء يوضع في غرفة النوم يبال فيه. والقصرية عند العامة إناء مستطيل يوضع في خرق من سرير الطفل ليندفع إليه ما يخرج منه من الفضلات. (تكملة المعاجم، ومحيط المحيط).

فتتفتّت مرارته، ويكاد يرجع لولا سقوط المروءة وقذارة النفس والرغبة في الدرهم[1]. وربّما أُسمع المرأة تقول: (خلّوه بالله يا ستّي يدخل يقتله)، وهو مع ذلك لا يأنف، وإن أظهر الأنفة ورجع أسمعوه غليظ القول وقالوا: (والله من بكرة إلى عشيّة، ما لكم شغل إلا قتل الناس).

ثمّ هو بين أمرين؛ إمّا أن يخرج واحد يقول له: «يا حكيم قالوا جاءهم طبيب»، أو «ما بقي لهم بك حاجة»، أو «المريض نائم»، وإن تملّق معه قال: «يا حكيم قالوا لك تعال غداً»؛ وهو هذيان، وإنّما ستر به وجهه منه، وذلك أشدّ [٧٠/و] على الطبيب، لأنّه من طمعه ورغبته يظنّ أنّ ذلك القول حقّ فيعود من غدٍ ويرجع بالخيبة[2].

وإن أُذِن له بالدخول ودخل، وكان حوالي المريض جماعة من بياض الناس أو من سوادهم؛ لم يتزحزحوا له، ولم ينصفوه في السِّلم، وإذا قال لهم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، استنكروا معرفته بسُنن الدين، فيردّ عليه بعضهم بقوله: «الحكيم»، وبعضهم بقوله: «الرئيس»، وبعضهم بقوله: «السعادة»، ويستنكفون أن يقولوا له: «وعليكم السلام»، وينظرون إليه نظر من يقول في نفسه: «ماذا يريد هذا أن يعمل؟ ومن أين له [٧٠/ظ] أن يدرك حالاً خفيّة عن الحسّ؟ وهل أتى ليُشاقق الله في مراده؟»، ويستحضرون: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ويرمقونه بعين الكافر المشاقق لله، وكأنّ في نفوسهم منه أنّه يدّعي إحياء الموتى

---

(١) كتب فوقها بخط مغاير: الخفيف بمسئلة.

(٢) كتب فوقها بالخط المغاير: فيضيع عمله بها.

الذي هو لله وحده، أو شفاء المرضى الذي أكرم الله به أنبياءه، فهو لذلك ممقوت مرذول، مرموق بقلّة الدين، وإن غلط وقال: «كان فلان بهذا المرض فأبريته»؛ لعنوه في قلوبهم أو ظاهراً وقالوا: «كفرت، بل الله أبرأه».

وأوّل ما يتقبّل على المريض ينفحه منه رائحة لو نفحت الطائر لسقط، أو الرياض لاصفرّت وذبلت، ولذلك [٧١/ و] لا يزال الطبيب مصفرّاً شاحباً في غالب الأحوال؛ كما قيل[١]:

ومِن عجبِ الدنيا طبيبٌ مُصفِّرٌ وأعمشُ كحّالٌ وأعمَى منجّمُ

ثمّ إن كان المريض من أهل الحرمة والجاه أظهر على الطبيب الصلف والعزّة، ووجدت حوله من الحجّاب المعظِّمين له، والمُشهِرين للطبيب ليُرتِّبَ جلوسَه، ويعرفَ قدر المنزلة، ويجسّ اليد برفق، وربّما رتّبه بعض الخدّام بيده، ونقله من جلسته إلى أخرى، كأنّه يعرّفه أنّه عامّيّ جاهل بآداب الرؤساء، ممّا يجعل الطبيب كالقملة المفروكة، ويبلبله ويغلّطه.

وإن كان أميراً [٧١/ ظ] ناوله يده وكأنّه أسدٌ يريد أن يفترس الطبيب، أو قد منّ عليه بذلك مِنّة[٢] عظيمة، ويضع يده في يد الطبيب بعُجب وكراهية، كأنّه شيء قذر قد أحوج إليه؛ كما قيل:

والجوع يُرضِي الأسودَ بالجيف[٣]

---

(١) لم نعرف القائل فيما توفر لدينا من مصادر.

(٢) بالأصل مآنة.

(٣) القول من أنصاف الأبيات للمتنبي: والجوع يرضي الأسود بالجيف (الثعالبي: أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه- ص ١١٩).

فإن كان الطبيب جاهلاً فسواءٌ عليه أطال الجسَّ أو قصر؛ فإنّه لا يفرّق بين النبض القوي والضعيف، والعظيم والصغير، والطويل والقصير، والشاهق والمنخفض، والعريض والدقيق، فضلاً عن أن يدرك الفرق بين القويّ والصلب، والمختلف والمستوي، والمختلف في نبضات أكثر من واحدة، أو في [٧٢/ و] نبضة واحدة، أو في جزء نبضة، أو يدرك حفظ الاختلاف في النظام، أو عدم نظامه، ومتى يكون انتظام الاختلاف أدلّ على الشرّ من عدمه، أو يحزر الاختلاف في أيّ أجناسه هو واقع، أو يدرك الاختلاف الغريب؛ كذي القرعتين، والواقع في الوسط، أو الغزالي، أو ذنب الفأرة، أو المسلّي، أو المطرقي، أو المنشاري، والموجي، والمرتعد، والخفقاني[١].

وفي أيّ المواضع يكون بعض هذه الأنواع مذموماً جدّاً، أو لا جدّاً، أو يحزر الوزن؛ فيدرك نسبة النبضات بعضها إلى بعض، ويفرّق بين الحسَن والسيِّئ الوزن، والخارج الوزن، [٧٢/ ظ] وبالكدّ ما يُدرك من هذا بأجمعه سرعة النبض وبطأه، لسهولته من حيث زمان الانبساط، وأمّا تداركه وتفاوته من حيث زمان الانقباض فإنّ ذلك لا يخطر بباله، على أنّ إدراكه للسرعة أيضاً إدراك ناقص، فلا فرق هل ذلك للحاجة، أو لقوّة الآلة، أو للكل، بماذا يعرف ذلك بما ينضاف إلى السرعة من التدارك وغيره، ولا يتثبّت ليعلم هل ذلك بجاذبٍ وقتي لحركة بدنيّة أو نفسانيّة؛ كالغضب، أو انتباه على غفلة، أو ثقل طعام لقرب تناوله، أو المزاج الأصلي، أو لأنّ المرأة حامل.

---

(١) هذه من أنواع وأشكال النبض كانت تعتمد في الطب القديم. وللمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى كتابنا (اصطلاحات الطب القديم).

وإذا أدرك سرعة النبض [٧٣/و] وحرارة ملمس الجلد فضلاً عن العِرْق؛ قطع بوجود الحمّى ـ كان ذلك النبض مختلفاً أو لا يكون، ولا يعلم أنّ المفلوج والمتشنّج عن مادّة باردة قد يسخن ظاهر البدن فيهم لانطراد الحارّ الغريزي هرباً من الضدّ إلى خارج، ويسرع النبض لتمدّد العرق في المتشنّج، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى وجه المتشنّج أحمر أزرق للاختناق؛ جزم بوجود الحرارة وغلبة الدم[1]، وعالج على هذا الحكم وأهلَك المريض.

وكذلك يخجل في غالب الأوقات إذ يجد النبض سريعاً لأمر ممّا ذكرناه، فيسرع ويقول لصاحبه: «الحمّى موجودة»، فيقول المريض: «لا [٧٣/ظ] والله يا حكيم ما أنا محموم، ولكن بي مغص شديد»، ويكون الألم قد أزعج القوّة، وسخّن. ومن فرط خجله لا يرى أن ينكسر، فيقول: «بل عليك الحمّى»، فيقطع المريض بجهله، ويُقصي عنه، وربّما انفصل ولا يرجع، فعاوده.

وأمّا الحمّى المحرقة التي قال السيّد أبقراط: «إنّ ظاهر البدن يكون فيها بارداً، وباطنه يحترق»، ويصاحبها عطش بحرارة المادّة وحدّتها، وكونها بحذاء القلب، واجتماع الحرارة الغريبة هناك بمعاونتها، فيلتهب القلب بالأمرين، ويحبّذ النسيم، ويطلب النفَس بالماء البارد عن النسيم الحارّ.

ولا يخطر ببال هذا الطبيب [٧٤/و] ههنا أنّ المريضَ محمومٌ أبداً، إذ لا يجد الجلد حارّاً، ثمّ يظنّ أنّ النبض بطيء متفاوت، لانخفاضه وعَوده وصغره البتّة في هذا الحال، فلا يدرك إلّا نبضة بعد نبضات، تكون تلك النبضة أقوى، أو أعرض، أو

---

(١) غلبة الدم يقابلها في الطب الحديث ارتفاع التوتر الشرياني Hypertension.

أشهق، لأجل اختلاف النبض، فيحفظ الزمان الواقع بين النبضتين الظاهرتين، ويحكم ببطء النبض لطول الزمان، وأنّ هذا المريض مبرود، وأنّ عطشَه للتكاثف، فيصف له المقالي الحارّة فيزيده عطشاً والتهاباً، وقد توهِمُه قوّةُ النبض الامتلاءَ، وتكون تلك القوّة إمّا لنوبة أو بُحران أو مجاهدة الهُيام فيشير بالاستفراغ، أو يمنع من الغذاء فتسقط [٧٤/ ظ] القوّة بسرعة.

وكثيراً ما اشتبه عليه الإبلال الحاصل قبل الموت بساعة أو بيوم، بحسب حال المريض والسبب، فتظهر القوّة ظهوراً بأوّل المقاومة، فيبشر بعافية المريض، فيموت تلك الليلة، وربّما غرّه ذلك فيحضر إليه بعد موته ويرجع خجلاً، وربّما سُبّ وصُفع إن كان الميّت من أهل الجاه.

ولقد أخبرني من أثق بقوله، قال: مرض شابّ غريب أعرفه، فالتزمت بخدمته في مرضه، ودعوت إليه طبيباً سمّاه، فما زال يتردّد إليه والمرض يشتدّ به، إلى أن مات في الليل وأنا عنده، فخفت أن يعرف ذلك أصحابه فينفروا ويتركوه [٧٥/ و] خوفاً من أصحاب المواريث، فكتمتُ أمره، ورقدته على جانبه، وسترت وجهه حتّى تكامل أصحابه والطبيب، وعرّفتهم بأنّه نائم، ثمّ دخلنا جميعاً، وتناول الطبيب يده، فجسّها وقال: «هو اليوم أطيب من أمس»، وأخذ يكتب له ما يشربه، فنفحته بضرطة وقلت له: «ويلك، هذا مات من البارحة من العشاء، وأنا كتمت ذلك حتى يجتمع هؤلاء»، ثمّ أغلقت الباب عليهم إلى أن جهّزناه كلّنا.

ثمّ إذا فرغ وجسّ النبض أُحضِرَتْ إليه القارورة، وأهين بإنهاضه ليراها في الضوء، فإن كان جاهلاً لم يعرف منها غير أنّ البول الأحمر يدلّ على الحرارة

والحمّى، [٧٥/ ظ] والأبيض على البرودة، وإن تفضّل ورأى الحمرة قتمة حكم بالدم، أو الزعفرانيّة حكم بالصفراء، والكلّ عنده بول أحمر، ولا يفرّق بين طبقات البياض والصُّفرة، والحمرة والخضرة، والنيلجيّة[١] والسوداء، ولا يستحضر أنّ صاحب الحمّى المطْبقة الدمويّة قد يبول بولاً أبيض لانصراف المادّة إمّا إلى فوق؛ فيتوقّع له اختلاط الذهن والسَّرْسام[٢]، وإمّا إلى جهة الأمعاء فيتوقّع له الزحير والإسهال، وربّما لأنّ به خُراج في الباطن انفجر فيبيضّ البول.

وربّما بال صاحب برد الكبد والكلى بولاً أحمر لضعف القوّة المميّزة [٧٦/ و] المائيّة، وصاحب القولنج البارد الحرارة الحادثة من الوجع، ولا يسأل هل أكل المريض صابغاً كالسمّاق وحبّ الرمّان أو الزعفران أو البقول أو اللبن، أو جاع جدّاً، أو دافع بشرب الماء، أو غضب.

وقد يحمرّ البول في الحمّى الثابتة إذا طالت واحمرّ البلغم في العروق وأشبه الدم في لونه والسبب بارد، وقد يحمرّ البول لانفتاح أفواه عروق في الكلى، وقد يبيضّ البول في ديابيطس[٣]، والسبب فيه حرارة الكلى.

وقد يبلغ من جهل هذا الطبيب إلى أن لا يسأل: هل للقارورة زمان؟ انحلّت [٧٦/ ظ] فيه حمرتها ـ إن كانت الموادّ في آخر غليانها، أو احمرّت وتكدّرت بعد صفائها ـ إن كانت الموادّ في أوّل غليانها، وأن يرفع القارورة في الشمس فيخفى

---

(١) هو اللون النيلي الأزرق.

(٢) هو يقابل في الطب الحديث التهاب السحايا أو التهاب الدماغ.

(٣) هو في الطب الحديث أيضاً Diabetes، الداء السكري.

عليه كدورتها، أو يخضخض القارورة فيتشتّت رسوبها المستوي الأملس، ويجعل الراسب منه متعلّقاً، والمعلّق غمامة، ويذهب الرمل الراسب والمِدّة والعلق والقشور والشحم والشعر.

وإن كان أصحاب المريض، أو المريض نفسه، رأوْا شيئاً من ذلك وغفِل عنه الطبيب؛ تغامزوا عليه وضحكوا من جهله، وعلموا أنّه حمار ومجنون.

وإن كان الطبيب حاذقاً متحرّزاً، وأراد [٧٧/و] أن يطيل جسّ النبض ليدرك جنساً بعد جنس من أجناس النبض العشرة، وكلّ نوع من أنواع الثلاثة من كلّ جنس فيجسّه بقدر ما ينقضي ثلاثون نبضة؛ نتر الأمير أو الكبير يده منه ونظر إليه مغضباً وظنّه بذلك جاهلاً، وانتهره مماليكه وخدّامه وجلساؤه وقالوا: «ما تستحي؟ أتعبْتَ يد الأمير»، وربّما قالوا له: «قم عن الأمير». فأمّا إن كان امرأة محجوبة خلف ستارة، أو أمرد حسن الصورة من أولاد الأمراء والأكابر وأطال الطبيب جسّ يده؛ كاد الخدّام أن يضربوه، فلا يستعمل غرضه من النبض، ولا يحصّل المقدار الذي يحزر به حال المرض والقوّة.

[٧٧/ظ] أو قد ناولوه من[1] خلف الستارة أوّلاً يداً غير يد المريضة ليمتحنوه بذلك، ويكون قد سمع بمرض المريضة من بعض أصحابها وخدّامها، فيجسّه ذلك الجسّ المستعجل، ثم يرى أنّه يربطهن بالزرَق[2] فيقول: «يا ستي هذه المريضة تشكو من كيت وكيت»، فيتضاحكن عليه ويقطعن بجهله.

(١) لمن بالأصل.

(٢) لعلها الرزق.. والزرق هو ما يرمي به الطائر وغيره من سلح.

وربّما أعطَوه قارورة غير المريض ليضحكوا عليه بذلك أيضاً، وربّما تحذلق ورفع القارورة فأسرف وأمالها جدّاً لينحاز الرسوب إلى جهته، وكانت مملوءة فقطرت على بَقيارِه ووجهه.

ثمّ إذا فرغ من النبض والقارورة حدّقوا [٧٨/ و] إليه وانتظروا منه أن يتعنّى[١] بالمرض، ولو كانت بثرة صغيرة في جلد المريض ظنّ[٢] الناس أنّ من لا يعرفها من النبض والقارورة فإنه لا يعرف من الطبّ قليلاً ولا كثيراً، فإن لم يقُل ذلك استعجزوه وازدروه ثمّ استحضروا حكايات باطلة وأحاديث كاذبة؛ فيقول بعضهم: «رحم الله طبيبنا فلاناً فإنّه كان حاذقاً يعرف من المفصل[٣] مهما أضمرته وفعلته، وممّا رأيت منه أنه جسّ نبض جارية عندنا فقال: هذه سرقت البارحة دراهم، فوجدنا الأمر كذلك، وجسّ نبض آخر عندنا فقال: هذا عاشق لصبي، وكان كما قال، وإذا أبصر [٧٨/ ظ] قارورتك أعلمك بجميع ما أكلته، وما يحتاج أن يحضر عند المريض، ولكن إذا أرسل إليه قارورته حدّثه بمرضه من أوّله إلى آخره، وبجميع ما استعمله».

وبهذا ومثله كثير يخجلون الطبيب ويجعلونه قدر القملة، على أنّهم قد يصدقون فإنّ من الأطبّاء قوماً طرقيّة، يستعمل الزَّرْق[٤] ويوهم أنه عرف ذلك من القارورة، ولقد بلغ بعض من كان جالساً منهم في الورّاقين معنا إلى أن قال لصاحب قارورة:

---

(١) في الحاشية: يتقصى.
(٢) بالأصل ظنوا.
(٣) لعلها المعضل، أو المفصل.
(٤) الزرق: هو البراز. زرق الطائر: رمى بزرقه. ويستخدم الزرق لوضع الدواء في الإحليل.

«هذا المريض من أهل بلاد الجيزة»، فتعجّب الرجل، فلمّا انصرف سألناه عن علمه بذلك فقال: «رأيت على [٧٩/ و] كلّه ألية[١]».

ثمّ إذا فرغ من هذا الهوان كلّه وابتدأ يكتب ورقة تقدّمت إليه عجوز أو داية وقالت: «يا حكيم، أيش تريد تكتب له؟»، فيقول: «اكتب له شراب إجّاص»، فتقول: «أعوذ بالله، هذا إلّا طازج»، فيقول: «يا ستّي شراب **قراصيا**[٢]»، فتقول: «يا سلام سلّم، هذا يطفئ الدم في قلبه»، فيقول: «يا ستّي فشراب بنفسج»، فتقول: «وا حيرتاه، هذا لا يثوّر الدم»، فيقول: «يا ستّي، يابس، تقولين في نقوع إجّاص وقراصيا ومشمش وسنا مكّي[٣] وزهر بنفسج»، فتلطم على رأسها وتقول للنساء: «ما قلت لكم: إنّ الأطبّاء ما يعرفون الطرح ولا الخفيف؟ يا حكيم هذا به خبطة[٤] قَرْف بهواء بزيادة»، فإن غلط [٧٩/ ظ] ووصف شيرخشك أو ترنجبيناً[٥] أقلبَتْ الأرض وقالت: «هذا نار يُشعل»، وإن وصف راوند قالت: «هذا بارد قاطع».

وأعجب النساء وأكبر الرجال ما تقوله تلك العجوز، وميّزوها على الطبيب، وبقي

---

(١) كذا بالأصل. ولعلها: على كتفه ألية. .

(٢) قراسيا، وقراصيا: هو الكرز أو حب الملوك، وعندنا هو نوع من صغير الخوخ.

(٣) سنا: نبت ربيعي كأنه الحناء، وأجوده الحجازي. الاسم العلمي: سنا ـ سنا هندي: Cassia angustifolia. سنا مكي ـ سنا حجازي: Cassia acutifolia. (الأنطاكي: تذكرة داود ج ١ص ٤٧٩).

(٤) الخبطة: مس من الشيطان. (لسان العرب). والخبطة: رضة داكنة، وتقال على داء السكتة (تكملة المعاجم). القَرف: الذنب، والعدوى، ولحاء الشجر. (لسان العرب).

(٥) الشيرخشك والترنجبين: من أنواع الطل، يقع الأول على شجر الخلاف، والثاني على الشوك. (اصطلاحات الطب القديم).

القول للعجوز، واحتاج الطبيب إن كان عديم الدين أن يرفق بالعجوز ويداريها لئلا تبخسه هناك في بيوت كثيرة، ويكذب لها ويقول: «والله يا ستّي ما أنتِ إلّا خبيرة، أكان أبوك طبيباً»؟ فتقول: «لا والله يا حكيم، إلّا نحن عاشرنا الحكماء كثيراً»، وتكون ما أبصرت طبيباً عمرها[1]! فيقول لها: «فايش رأيك»؟ فتقول: «ما عندي لهذا غير شراب النوفر وماء النوفر»[2]، فيقول: «والله [٨٠/ و] ما هذا إلا دواء مليح غاية»، فتقول: «ولا يُطعم ما يغلو على النار»، فيقول: «مصلحة»، وتقول: «ولا يرفد بفرّوج إلى تمام الأربعين»، فيقول: «هذا هو الصحيح». فيكتب شراب نوفر، وماء نوفر ـ كما أشارت، ويُري أنه[3] قد قال شيئاً من عنده ليستحقّ به الأجرة؛ فيقول للعجوز: «يا ستّنا أي شيء تريه؟ ما نضيف إلى ماء النوفر قليلَ ماءٍ باردٍ»؟ فتقول: «فديتك، هذا مليح»، فيقتصر على ما قالت، ويدع المريض ممتلئاً بغير استفراغ، أو ضعيفاً بغير تغذية.

وإن كانت العجوز تركيّة والمريض تُركيّاً وكلّمته باللسان، وفسحت له في التطماج[4] والششبرك واللقيمة[5] ونحو ذلك، أو كان كرديّاً وفسحت له في [٨٠/ ظ] الطرخنيّة والبصل والبيسار[6]، أو كان إفرنجيّاً وفسحت له في السمك والخمر، أو

---

(١) كتب على الحاشية بخط مغاير: غير المتعوس.

(٢) النوفر: هو النيلوفر.

(٣) أضيف بخط مغاير: يظهر أنه.

(٤) التطماج والططماج: هو الإطرية أو الرشتة، من العجين المقطع سيوراً. (ينظر كتابنا اصطلاحات الطب القديم). والششبرك واللقيمة معروفة.

(٥) أضاف بخط مغاير: والياغرت. (وهو اللبن بالتركية).

(٦) البيسار: طعام يتخذ من الملوخية والفول واللحم (تكملة المعاجم). الطرخنية: لعلها من الطرخون.

كان مصريّاً وفسحت له في جبنة مقلوّة، ومورة قصطالية[(١)]، وبوري ممقور[(٢)] ومُخَرْدل، **وصِيَر العلّاقي**[(٣)]، وصحناه[(٤)] إسكندرانيّة، وعصفور مدرهم[(٥)]، فلا تحسب للطبيب حساباً، فإنه فضلة لا يُحتاج إليه، ويمكّن العجوز أكثر منه.

وإن تصالف وترك المريض لهذه الأمور لم يصحّ له مريض، وبطلَ معاشُه، وإن تحامق وجادل العجوز فيما تقوله جعلها مماثلة ومساوية، ولم يفرّق الحاضرون بين علمه وجهلها، ومتى يحسّ أولئك بذلك؟

وربّما لاءمهم كلامُها أكثر من كلامه، ولاسيّما [٨١/ و] إن قالت هي: «الليلة تعرق»، وقال هو: «الليلة تُبَحْرِنُ»[(٦)]، وقالت هي: «الدقّ على كبده»، وقال هو: «به خفقان معَديّ»، وقالت هي: «عصفورة فؤاده وارمة»، وقال هو: «به جساوة في مراقّه»[(٧)]،

---

(١) مورة: نوع من السمك. قصطالية: لعلها نسبة لبلاد قصطلية.

(٢) البوري: نوع من السمك، والممقور: هو المنقع في الماء والملح أو الخل. (اصطلاحات الطب القديم).

(٣) الصِّيَر: سمك صغار يسميه أهل الشام كذا (الحاوي). العلاقي: في صعيد مصر.

(٤) صحناه: إدام يتخذ من صغار السمك، وقيل: من الحوت المعفن. (اصطلاحات الطب القديم).

(٥) المدرهم: الكبير السن (لسان العرب).

(٦) من البحران.

(٧) **هذه العبارات وغيرها ما زال بعض الأطباء حتى في عصرنا الحديث يستخدمونها بزعمهم لتفهيم المريض علته، فيأتون بتعابير عامية وتسير بين الناس، والأحرى بهم أن يقولوا للمريض التشخيص الصحيح مع إفهامهم معناه إن لزم ذلك. على سبيل المثال في حالات التهاب الأذن الوسطى المصلي المزمن، هو عبارة عن انصباب مصلي داخل الأذن الوسطى بسبب انسداد نفير أوستاش، فبعض الأطباء يقولون للمريض عنده أكياس ماء في الأذن.**

وقالت هي: «يتسرسب[١]»، وقال هو: «اختلط ذهنه»، وقالت هي: «نفطه ظاهر»، وقال هو: «في نبضه عِظَم». أو قالت هي: «قد تنفّس»، وقال هو: «هذا دم انطرد إلى أطراف العروق الشعريّة»، أو قالت هي: «به ذاك الفلاني»[٢]، وبه برطمت ولم تسمّ المرض خوفاً أن تعدي الصغار، وغمزت النساء.

أو قالت هي: «به **رياح الأفْرِسة**»[٣] (. . . .)[٤] ما أخبي[٥] ما بها إلا (. . . . .)[٦] [٨١/ظ] اختناق الرحم، وتقول هي ههنا: «وَيلي، صار الأطبّاء أيضاً يعرفون مرض الأحشاء، هو قابلة؟ والله قال لي أنا فلان رئيس الطُبُبا ـ وتذكر أرذل الكحّالين ـ إن قال لك طبيب أنّه يعرف الأحشاء يكذب، هذا شيء ما يعرفه إلا القابلة». كلّ هذا وكبده يتفتت من الغبن.

وأمّا إذا غمزت بعينها، وهزّت برأسها، وقالت عن الصبيّ المريض: «به نظرة من الأرض»، وقال هو: «به **أمّ الصبيان**»[٧]، فإنّ أحداً من النساء، ولا من أكثر الرجال

---

(١) لعلها يتسرسم، من السرسام.

(٢) ذاك: مصححة كذا، ولعلها بالأصل داء.

(٣) **رياح الأفرسة**: هي زوال فقرة من فقرات الظهر عن موضعها، لرياح غليظة تحتقن تحتها وتمدّدها تمديداً شديداً. والفَرْسة في اللغة هي الريح التي تأخذ في العنق فتفرِسها أي تدقّها، والفَرْسة؛ ريح الحدَب، لأنها تفرِسُ الظَّهر. والأطبّاء يقولون: رياح الأفرسة، وهو غلط، لأنّ الفَرْسةَ لا تُجمع على أفرسة، وإنما تُجمع على فرسات.(اصطلاحات الطب القديم).

(٤) ما بين قوسين مبتور في الأصل لعدة كلمات في نهاية السطرين الأخيرين من الصفحة.

(٥) لعلها كذا. فالكلمات غير منقوطة عادة.

(٦) ما بين قوسين مبتور في الأصل لعدة كلمات في نهاية السطرين الأخيرين من الصفحة.

(٧) أم الصبيان: هو داء الصرع.

لا يُعدّه ولا يلتفت إليه، بل يُقبلون عليها، ولاسيّما إذا قالت لهم: «أديروا عليه الخفيف»؛ تعني بذلك الرصاص، (........)[١]، أو قالت: «به قَرْف[٢] فيخنق [٨٢/و] المريض حتى يضطرب»، ويتّفق أن يقع ذلك في انحطاط مرضه، فينسب النجح إليها، ويضيع تعب الطبيب بغير شكر ولا أجرة.

ولا يكفي له الزمان، فالعجوز ـ بل وكلّ رجل[٣] حاضر يشاركه في الحكم على المرض ما هو، وفي العلاج، ويسابقونه في القول؛ فيقول هذا: «يا حكيم، ما أظنّ المرض إلّا كذا وكذا»، ويكون ذلك في مقابله مرضه، والطبيب يحلف ما المرض إلا كيت وكيت، كلّ ذلك لعدم الثقة به. وإن أشار ولو بالماء البارد قالوا: «يا حكيم، إيّاك أن يضرّه»؛ فكأنّهم لم يدعوه لطبّه بل لقتله، وهم في غاية التحرّز منه. وتقول الواحدة: «والله بالغصب عني دخل الطبيب الفلاني وأسقاه من [٨٢/ظ] هذا الشراب الذي قتله[٤] الساعة، حرام عليه، ما أصبح، بل طفئ في ليلته»، فتقول أمّ المريض أو أخوه أو امرأته أو بنته: «أنا لا والله يا حكيم ما أسقي مريضي هذا الشراب»، وربّما ولْوَلتْ قدّامه، وقالت للنساء: «يا ستّي ما خلّوني برأيي، أنا والله ما عادتي أهجم على مريضي بطبيب».

وربّما وافى حضوره حضور امرأة كان يعالج لها مريضاً ومات، فتقول: «إي والله

---

(١) مكان النقط مبتور في الصفحة لحوالي ثلاث كلمات.

(٢) القرف: الذنب، والعدوى. وقد وردت.

(٣) فالعجوز... رجل: أضيف عليها بغير قلم لتصبح العبارة: فالعجوز وحدها بل وكل امرأة أو رجل.

(٤) وحدها: أضيفت على النص بالأصل.

هذا فلان، هو كان يعالج ولدي الذي مات بالشراب، يا حكيم، ليلة سقيته الشراب الفلاني احترق فؤاده، بالعزيز عليّ، وهو انطفأ مثل طفي السراج»، ويقولون له: «بالله يا حكيم [٨٣/ و] هذا الشراب لا تصفه لنا أبداً». فيتفتّت كبده لعلمه بأنّ ذاك الشراب لا ذنب له، وأنّ ذلك المرض كان يقتضي موت المريض.

وعلى الجملة فإنّهم يصوّرونه بصورة جاهل، بل قتّال، ويلجئونه إلى موافقتهم على الجهل والخطأ، وإن عاندهم وأصرّ على الواجب رأيتهم يسهون إليه كأنّهم خامدون وهو يهذي، وما فيهم من يهتزّ لكلامه، أو يُظهر له أنّه فهمه، فيكونون قد أضمروا مخالفته وعجزوا عن محاجّته، فهم ينتظرون انصرافه ثمّ يُقَطّعون أوراقه، وهنالك يرتعد الطبيب من أمرَيْن؛ أحدهما أن يُصرف في الوقت الحاضر بغير أجرة، والثاني أنّهم لا يستدعونه بعد هؤلاء [٨٣/ ظ] الحاضرين عندهم، ويتعدّى ذلك منهم إلى خَلْق كثير، فيضطرّ إلى موافقتهم، ويلقي علمه وراء ظهره.

ويخاف أيضاً من أمر ثالث أشدّ من الأوّلَيْن؛ وهو أنّه قد يكلّفهم ما كرهوه من تلك المداواة، ويكون المرض بطبعه خطراً، أو منتقلاً إلى التزيّد والاشتداد للأعراض، فينسبون ذلك كلّه إليه، **فانظر إلى هذه المذلّة.**

هذا وهو وقت إقباله وعدم الإدلال عليه؛ إن كان قد دُعي من السوق على أنّه أيّ طبيب كان، أو كونه مخطوباً[1]، موصوفاً لهم بالحذق والجرأة، لأنّ كلامنا في أوّل دخوله على المريض، وأمّا دخوله في المرّة الثانية بعد أن يقدّم [٨٤/ و] فوَصَف له ولو

(١) المخطوب: هو المطلوب.

ماءً بارداً فقط، والمرض قد تزيّد، فيا ويله ماذا يحلّ به من الهوان، فإنّه يصير صامتاً بعد أن كان مَخطوباً، ويرجع بمنزلة من خافق[1] على قتيل.

حتى إنّ ذلك يجري له في الطرق إذا لقيه مستوصِف تراه يتذلّل ويدعو للطبيب إلى أن يصف له ولو شراب الورد، فإذا لقيه في اليوم الثاني لقيه بصورة من قتل له قتيلاً، ويبدّل ذلك التذلّل بالشرّ، ويقول: «يا حكيم، ما تخاف الله، قتلتني بالأمس بشراب الورد، كاد أن يطفئني».

فللطبيب أربع مراتب عند المريض:

■ **أوّلها**: أنّه مخطوب مرغوبٌ، يحجبه الغلمان والرسل، ويخدمه أهل المريض ويجلسون حوله [٨٤/ظ] لما وُصف لهم من حذقه، وأكثر ما يلبث ذلك يومين أو ثلاثة، ثمّ ينتظرون زوال المرض، فلا يرون ذلك فيتّهمون معرفته، ويكذّبون شاكره.

■ **وثانيها**: يكون بمنزلة الخصم على قتيل ملقى، وذلك حين يزيد المرض ويشتدّ به، وكلّما رأوا أعراضاً شديدة خاصموه إلى أن يقف المرض.

■ **وثالثها**: يصير صديقاً عند الانحطاط وابتداء الصحّة، ومدّة ذلك أيضاً قصيرة.

■ **ورابعها**: يصير أيضاً طفيلياً يحضر من تلقاء نفسه بغير رسول، ويقف على الباب ساعة، ويقال له: «المريض نائم»، أو «قد راح الحمّام»، أو «هو يسلّم عليك وقال لك: لا عدمت»، فيرجع خجلاً، وإن كان [٨٥/و] يترجّى من المريض عطاءً رجع مغبوناً.

---

(١) خافق: اضطرب.

فأمّا أوّل دخوله؛ فيلومون الرسول: «ما هذا البطء العظيم»، فإن كان الطبيب مقصوداً عظّم الرسول القضيّة ليبسط عذره وقال: «من يقدر على هذا؟ لقيت خلقاً ـ ومَن خلَق ـ وما أخذته منهم إلا بالجهد»، ويقولون: «الله يلطف بالناس». وإن كان غير مقصود قال: «والله ما لقيت في السوق ولا طبيباً واحداً، حتى جاء هذا أخذته وجئت»، فكأنّه يقول لهم: «إنّ هذا أكسدهم وأرذلهم»، ومن كثرة النفاق: «ما قدرت على الأجود»، فيقولون: «الله لا يبلغ الأطبّاء مقصوداً»، أو يقول[1]: «ما أظنّ إلّا أنّ المرض اليوم في الدنيا كثير»، [٨٥/ ظ] فيقولون للطبيب: «هذا ممّا يعجب أبا سفيان ـ **مصائب قوم عند قوم فوائد**[2]، هذا وقت معاشكم»، ويداعبونه ويقولون: «أبغَضُ ما لكم مسلم في عافية»، ويقول آخرهم: «مثل المغسّلين وحمّالين الموتى، والمقرئين والحفّارين؛ أحبّ شيء إليهم موت مسلم».

وهذا ومثله شائع عن الأطبّاء أنّهم يفرحون بالأوبئة والفصول الرديئة الوخيمة، حتى يُسطع عليهم بأنهم يستسلفون على زمان المشمش والبطّيخ، وزمان طلوع الصبرة وفصل الخريف، وأنهم يتشاكَوْن في وقت كسادهم صحّة الناس، واعتدال الأهوية والفصول، ويقولون: «ما رأينا خريفاً أنحس [٨٦/ و] من هذا، ما فيه مريض واحد». ويتذاكرون أزمنة الوباء والأمراض الوافدة، وسنَة الطاعون، وسنة السعال، ويذمّون

---

(١) أو يقول: غير موجودة بالأصل، وأضفناها لتكملة العبارة.

(٢) القول للمتنبي:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

(ديوان المتنبي ص ٣٢٠).

البلاد الصحيحة، فيقولون مثلاً: «قبّح الله أسوان ما أصحّها، ما يمرض أحد فيها إلا مرض الشيخوخة المؤجّل، ولا لطبيب فيها خير».

فهذا كلّه سيُحضّر للطبيب، وهو مقصود مطلوب محبوب، وعلى الجملة ضيف، وأوّل معرفته وقدومه؛ فأمّا إذا أتى في المرّة الثانية فيستقبلونه باللوم الموجع من الباب، وإن كان مُسْتَنْحَساً ـ كما تم[1] للقُصيّر المسمِّي نفسَه بالماوردي، أو أبي نصر المعروف ببراطيش[2]، أو أبي المنصور [٨٦/ظ] الأدعش، أو ابن المصنّ الأبرص ـ يستقبلونه بالشتم واللعن.

وإن كان ذا[3] جاه بالصفع، وقالوا له إن كان موقّراً: «يا سبحان الله، كيف يحلّ لك أن تخلي المريض بغير فطر إلى الظهر» ـ ويكون الوقت الصبح ـ «والله أرسلنا لك اليوم عشرين رسولاً»، وما يكون عندهم أحد يرسلونه إليه ويقضي لهم حاجة، ثمّ يقولون: «يا حكيم، ذاك الذي سقيته البارحة زاد كرباً وقلقاً وعطشاً وتلهّباً، وما أخذَنا معه النوم، وكاد أن يعدم من بين أيدينا ساعة أن يشرب ذاك الشراب».

وإن كان مستنجِساً قالوا: «يا خنزير، يا كلب بن الكلب، تجينا العشاء [٨٧/و] وقد قتلت المريض بذاك الشراب المشؤوم؟ ما قلنا لك هذا الشراب الخشخاش حارّ عليه؟ في الدنيا مجنون يسقي المحموم شراب الورد وهو نار موقدة؟ ما يعرف أن

---

(١) لعلها كذا بالأصل، شطبت وكتب فوقها بالقلم المغاير: أثر.

(٢) برطوشة، وتجمع على براطيش: حذاء أو نعل بالٍ (سبّاط). (تكملة المعاجم). وهذه الأسماء التي ذكرها المؤلف ليست من الأطباء المذكورين في تاريخ الطب، وهي ليست من جملة الأطباء المعترف بطبهم، وليسوا إلا من الطرقية، ويلحظ ذلك من نعوتهم.

(٣) إن كان ذا: إن كانوا ذوي، بالأصل.

شراب الورد على أحد الفصلين؟» ويوافقهم المريض على رأيهم؛ فيتغاشى ويتماوت، وينظر إلى الطبيب شزراً، وينتر يده منه، وكلّما أظهر الغشي ولْوَلَت النساء، وصرخوا على الطبيب، ولا يعرف من أيّ الجهات يأتيه الصراخ والندب[1] وإساءة الأدب عليه والشتم، ولا يستحيون منه فيما يقولون، بل تقول المرأة: «والله يا أخي كان فلان الطبيب خير من هذا، ولكن أنتم تعملون رأيكم [٨٧/ ظ] هذا كلّه».

وقد يكون المريض إمّا على حاله أو أرجح، وأمّا إذا تأخّر؛ فإنّ بعض النساء الأخفّاء تلقَى الطبيب من الباب وترفع يديها وتصرخ وتقول: «يا وجه الشؤم، ما تجي يا طبيب تبصر كيف أصبح يموت، يا ولدي ماذا طببتك»، وتعدّد وتقول: «جبت الطبيب لك أحسبُ عند الطبيب فرج، وإذا به آيسني منك الطبيب وخرج».

ثمّ يمسكونه وهو يتجرّع الغصص، وكأنه ممسوك بقتيل، ويرى أن يصانِعهم بطول المقام، وقلبه على الجمر من تعطيل أشغاله، ويحلف لهم أنّ هذا المريض ما يصيبه شيء، وأنّ هذا يوم بُحران، وسوف [٨٨/ و] ينقضي البُحران ويتراجع، وهم يزدادون قلقاً عليه، ولا يتركوه يمضي حتى يرون من الخوف والذلّ والحزن، فإذا خرج شيّعته المرأة وهي تعدّد وتقول: «دخل الطبيب وقف على رجليه، وخرج الطبيب وهو يدقّ أيديه»، **والكلّ ظلْم له واستضعاف لجانبه.**

وأمّا إذا اتفق له بسوء بخته دخول طبيب آخر، وخصوصاً إن كان أشهرَ منه، فيا ويله ويا خجلته وغبنه حين يقبلون على ذلك الطبيب ويصفون له ما فعله وما داوى به، فيقول: «ما كان الشراب الفلاني يوافق، وكان يجب أن لا يُسقى الدواء

---

(١) أضيف فوقها بخط مغاير: والعتب.

الفلاني»، [٨٨/ ظ] فإن خافق عن نفسه كانت كلمته ضعيفة، وساعد أهلُ البيت الطبيبَ الجديد لِما في قلوبهم من الأوّل، وكلّما قامت الحجّة عليه ارتعد من الغبن والخوف، وربّما اعتذر عنه ذلك الطبيب وصدّهم عن خصومته فيكون أشدّ عليه ـ كما قيل:

ولـرحـمـةِ الـمـتـوجّـعـين مـضـاضـةٌ في الـقـلـبِ مثل شماتةِ الأعداءِ(١)

ويكون أكثر ما قالوا عنه كذباً، وأكثر ما حكم به الطبيب تعرُّضاً. ولقد يبلغ من ظلْمهم له أن ينبذوه بالخصومة على تأخير مريضهم، وهم إلى الآن لم يدعوه له ولم يعرفوه(٢).

وممّا وقع لي من ذلك أنّني [٨٩/ و] ذات ليلة كنت نائماً في النصف من الليل، وإذا بالباب يُطرق طرقاً عنيفاً، طرقَ مستخصٍّ(٣) لصاحب الدار، حتّى ظننت بأنّه إلى الليل(٤) يقصد كسر الباب عليّ لأمر منكر من جهة السلطان أو الوالي، فخفْتُ وعزمْتُ على الهرب، ثمّ فكّرت؛ إنّني لم أفعل مكروهاً، ولا بيني وبين أحد معاملة،

---

(١) البيت للشاعر ابن الشبل البغدادي محمد بن الحسين (٤٧٣هـ) ذكره الصفدي في (الوافي بالوفيات):

لا تـظـهـرنّ لـعـاذل أو غـادر حـالـيـك فـي الـسـرّاء والـضـرّاء

فـلـرحـمـة الـمـتـوجـعـيـن حـزازة في الـقـلـب مـثـل شـمـاتـة الأعـداء

(٢) **أقول: إن الخصومة هنا تأتي من كون الطبيب مسالماً دائماً، ولا يقابل أحداً بإساءة، أما لو كان من ذوي التسلّط والفجور لخافوا من معاداته وطلبوا رضاه دائماً، طبعاً يستثنى هنا ذووا العقول النيّرة والمعدن الرفيع.**

(٣) مصححة بخط مغاير: مستنحس. ولا أظن ذلك.

(٤) إلى الليل: كذا بالأصل، ولعل صحتها: إلا الليل.

فخرجت إلى الباب وفتحته، فوجدت رجلاً من أوساط الناس بسراج، فقلت: «خيراً»؟ فقال: «أين الخير يا حكيم، الصبيّة الساعة تموت»، فظننت أنّها من بعض مرضاي، فقلت: «أيّما صبيّة»؟ فقال: «بنتي»، فقلت: «ومن المولى»؟ فقال: «أنا فلان الحلواني»، فقلت: «وأين مسكنك»؟ قال: «الحارة [٨٩/ ظ] الفلانيّة»، قلت له: «أنا كنت قط زرتها»؟ قال: «لا والله، ولكن كانوا يصفونك لي من ستّة أشهر، ونحن نقول: اليوم وغداً، وعسى الله، إلى الليلة أشرفت على الموت، فاخرج معنا إليها»، فقلت: «يا شيخ إلى بكرة إن شاء الله»، فقال: «خفِ الله»، وصرخ وقال: «كيف يحلّ لك، هذه على موت، والله ما أروح إلا بك».

وأخذ يوجعني باللوم كأنّني عشيّةً فارقتها وقد سقيتها دواءً أشرف بإسهالها، أو أسهلت دماً أو قطعة من كبدها، وقد جاءني نصف الليل بإذلال أنّ الذنب لي، وأنّه قد أعطاني دراهمَ كثيرة فهو مُذلّ بها حتّى طرق [٩٠/ و] ذلك الطرق الشديد، ويحضر نصف الليل ويلوم لوم المُذلّ، من غير أن يحسب لي في ذلك كلّه حساباً البتّة، ولا يفكّر أنّ ذلك تهجّم وقبح، وأعتقد أنّه لو احتاج إلى كنّاف في ذلك الوقت من غير معرفة به كان قبحاً وسوءَ أدب. **فتحقّقت أنّ الطبيبَ محتقَرٌ في نفوس الناس جدّاً.**

ولقد يجري من بياض الناس وسوادهم في الليالي المظلمة المطرة بغير احتشام؛ إمّا ليُري برازاً مغيّراً خرج للمريض في ذلك الوقت، فيقولون: «اطلبوا الطبيب، أروه هذا»، فيأتوا إليه ملهوفين، كأنّ المريض قد حدث له عرَض [٩٠/ ظ] رديء، فإذا أتى معهم قالوا: «والله يا حكيم ما تمّ إلّا أنّ المريض خرجت له هذه البصقة أو هذه الخراطة»، أو «كنت قد كتبت لنا ورقة ضاعت من الغلام فنشتهي تكتب لنا غيرها»،

فإن كانت دواء مركّباً طويلاً وقد أنسي بعض أعيان الأدوية وأوزانها حتى ينسى منها دواء أو ينقص من وزن ويزيد في آخر؛ انتقدوا عليه ذلك وقالوا: «هذا الطبيب ما يعرف شيئاً، كلّ ساعة يكتب لنا شيئاً ما يشبه شيئاً[(١)]»، وربّما أخرجوا إليه الوصفة الأولى وأخجلوه بذلك فعلٍ إلّا رجاء الإثقال.

وربّما حجبوه في المضيّ إليهم وقدّام سمعه وهم يعظّمون ضحكاً عليه، وعند انفصاله منهم [٩١/و] لا يجد منهم من يمسك بيده، أو يضيء عليه بفتيلة، بل يرجع في الظلمة تنبح الكلاب عليه، وتتقاذف به الأبواب، وربّما صُرف بغير أجرة، أحاله على أجرة نهاره. وربّما طلبوه في الليل **قلاشة**[(٢)] واسترباحاً له، كونه تناول في النهار أجرته، ولاسيّما إن كانت وافرة.

وممّا هو مبتلى به من الهوان أنّ قاضياً فاضلاً لو شارك الإسكاف أو الخيّاط أو الغزّالات في صناعتهم وقاومهم فيها؛ قد عرّض نفسه للضحك عليه. وأمّا الطبيب فلو حضر معه «زُحلق البيات[(٣)]»، أو «حليفُ السقّا»، لشاركه في الطب، وسطا عليه، وكابره وفتّت مرارته، وأحدٌ لا ينكر عليه، وربّما كان الميل إلى أولئك [٩١/ظ] أكثر من الميل إلى الطبيب، ولاسيّما إن حضر معه عطّار أو غيره من بياض الناس ممّن يحمله الفضول إلى أن يتحدّث فيما لا يعلمه ولا يُندب إليه، غير متفكّر في إغاظته

---

(١) شيئاً ما يشبه شيئاً: كتبت بخط مغاير إضافة.

(٢) قلاشة: هذه كتبت زيادة بخط مغاير. القلاشة: الدهاء والاحتيال. (ينظر تكملة المعاجم، ومحيط المحيط).

(٣) كذا بالأصل، ولعلها اللبان.

للطبيب، وأنّه يسيء الأدب على صاحب الصناعة لو أنّه تحدّث بغير علم وفي أمر خطر في الدنيا والآخرة.

ولقد شاهدت أهل المريض يدهشون إلى كلام ذلك الفضولي، ويعْرضون عن الطبيب، وخصوصاً إن كان مهذاراً، أو كان الطبيب ألكَن أو يهودياً ذليلاً ولا قدرة له على المقاومة، وربّما كان الطبيب فاضلاً جدّاً وكبير المقدار، فإذا كتب الوصفة[١] قالوا له: «قال لنا فلان اليهودي: [٩٢/و] إنّ هذه الوصفة تضرّ»، وربّما أخرجوا له ورقة طبيب جاهل وقد مات فيقولون: «رحم الله فلاناً، كتب لنا هذا الدواء، ولنا اليوم عشرون سنة بعد موته، وكل من عندنا يتداوى بها، ونحن ما نعمل إلا بها، وإنما جئناك حتى توافق عليها». وإن لم يكن له قدر قالوا له: «لا تداوينا إلا بمثلها»، وقالوا: «ما فيكم أحد يقوم مقام فلان أبداً»، وأخجلوه بذكر محاسن ذاك ومساوئ هذا.

وربما حضر معه من يؤذيه ويضحك عليه، ولاسيّما في مجالس الرؤساء لكي يضحكوا منه، فيمدّ يده لذلك الطبيب لكي يجسّها، فإذا قبض عليها حرّكها حركة قبيحة كحركة الذكَر .[٩٢/ظ] وربّما سألوا[٢] الطبيب فقال: «أي شيء تمسكوه»؟ فيقول: «والله يا حكيم قام عليّ»، ثمّ يجذب يده فيضعها على ذكَره ويقول للحاضرين: «ما قولكم في الحكيم يضل عناية ستر الله استحله الساعة»؟ فيقولون له: «بلا هذيان»، كأنّهم ينتصرون للطبيب وهم قد بحتوا بأرجلهم ضحكاً عليه.

---

(١) بالأصل: الصفة، ومصححة بقلم مغاير كذا، ويصح الشكلان.

(٢) كذا بالأصل، ومصححة بغير قلم: سأله.

وربّما دُعي إلى أرباب التهمة من النساء، وحضر بحضوره الحَرِيف[(١)]، فأمسك ذكر الطبيب لينظر هل انتشر بدنه أم لا، لكي يُضحك المرأة منه.

ويتمسخر به بأن يجثو على ركبتيه ويريه فقحته كأنّ له فيها ورماً، فإذا أحدق الطبيب إليها أصابه بضرطة [٩٣/و] ويُضحِك الحاضرين عليه. وربّما أمسك إصبع الطبيب فأدخله في فيه ليُريه ضرساً فعضّه وأوجعه فصرخ واستغاث، والجماعة يلعنون ذلك المزاح ويضحكون من الطبيب[(٢)].

وأشدّ من هذا كلّه هواناً له وعبثاً أنّ أولئك الذين كانوا يسابقونه في طبّ المريض، ويغالبونه ويبطلون كلمته، إذا فرغوا من محادثته ومعارضته عادوا فأقبلوا عليه، حتّى الداية التي قدمنا ذكرها، فيشكي كلّ واحد منهم له مرضه ويسأله أن يكتب له ورقة، واستسلم في بدنه، وقلّله تقليل من لا يشاركه في كلمة واحدة بعد تلك المنازعة في حقّ غيره، ونسوا من أنّهم كانوا من ساعة [٩٣/ظ] أَطَبّ منه، فيكتب خمسين ورقة، وهو يعلم أنّ أولئك لا يعملون منها بشيء إلا سُخرياً[(٣)] وفراغاً،

---

(١) الحريف: المعامِل. وأضاف بعدها على الحاشية بغير خط: فإذا جس نبض المرأة أسرع الحريف.

(٢) **أقول: حريّ كان بهذا الطبيب وغيره أن يذم هؤلاء العابثين بمهنة الطب الشريفة، من الناس البعيدين عن كل خلُق، وليس يذم مهنة فضّلها الله على جميع المهن وقرن اسمها باسمه** ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، أعني: العلة في البشر إن كان طبيباً أو مريضاً، وليس العلة بالمهنة الشريفة. فالطبيب الصحيح المتمكن يداوي كل الناس بكل شرائحهم؛ الشريف والذميم، الصديق والعدو، وهو الذي يفرض احترامه على كل هؤلاء. لا أن ندير ظهرنا للمهنة، بل لمن يعبث بها.

(٣) لعلها بالأصل سخرة.

ويمسكه آخر وأخرى في وسط القاعة، وآخر عند باب الدخول، وبعضهم في الدهليز، وبعضهم على باب الدار؛ يستوصفونه ويكلّفونه أن يُخرج الدواة ويكتب، وهو مغبون لضياع الوقت في أمرٍ يعلم أنه لا يُعمل به، فإنّ المريض المحتفَل به لم يعملوا بقوله في أمره.

وإذا خرج من الدار استقبله صعاليك الزقاق ممّا لا يصدّقون[١] أنهم يظفرون به لعجزهم عمّا يركّبونه به، فيقدّمون له صغاراً وعجائز بأمراض مزمنة لم تُعالج، ويطالبونه بوصف شيء لا ثمن له البتّة، [٩٤/و] وأن يكون متى استُعمل مرّة واحدة أبرأهم من أمراضهم المزمنة. وربّما لازمه واحد من أهل تلك الدار إلى أن يحمله لجار لهم على طريق الهديّة، **كلّ ذلك وهو يتفتّت من الغبن، فلو كان له كرم أو مروءة لفضّل الموت جوعاً على هذه الحال**[٢].

وأطرف ما وقع لي من ذلك من امرأة ركّبتني إلى اليأنسيّة[٣] بالشارع، ومشيت في أزقّة ضيّقة مظلمة، حتّى انتهت بي إلى بيتها، فلمّا دخلت وحصَلت في العتبة[٤] خرجت للوقت مسرعة، وأقفلت الباب من خارج ومضت، وليس أحدٌ في البيت غير

---

(١) لا يصدقون: بالأصل يصدقون.

(٢) **لعلي أضيف هنا لو أنّ نجاراً نجر لأحدهم باباً ثم لم يعطه ثمنه وأجرته، فيشكوه لمن يلزم ويحصل حقه، أما لو كان طبيباً ولم يعط أجرته فهل يستطيع أن يحصل حقه، لا بالله لا قديماً ولا حديثاً.**

(٣) اليانسية: خارج باب زويلة بالقاهرة منسوبة ليأنس وزير الحافظ لدين الله الملقب بأمير الجيوش سيف الإسلام ويعرف بيانس الفاصد وكان أرمني الجنس. (خطط المقريزي).

(٤) بالأصل الطبقة، الطيبة. ولعل الصحيح ما أثبتناه.

شخص ملقى على فراشه، ووجهه مغطّى بإزار، [٩٤/ظ] وهو على صورة الموتى، فخفت خوفاً شديداً أن يكون قتيلاً مخنوقاً قد عُمل عليّ به، أو يكون خَنّاقاً يريد أن يفعل بي كما جرى للحكيم نجم الدين من قريب حين خنقته الخَنّاقة[١].

فصرت ألوذ[٢] لعلّ أجد مخلصاً فلا أجد، فاستسلمت للقضاء، وجلست ساعة، طويلة وإذا الباب يُفتح وعليه خلق وجلبة، فزاد همّي، ثمّ دخلت الامرأة، ودخل معها أكثر من عشرين امرأة وأولادهن، وتلك المرأة تقول: «تقدّمي يا أم محمد، تقدّمي يا ست جوهر، تقدّمي يا فلانة، هذا نهار مبارك، والله ما هان على قلبي أن أركّب الحكيم الطبيب ولا أُعلمكم [٩٥/و] لئلا تلومنّني، ولكن والله أُنسيت فلانة، بالله عليك يا فلانة روحي وراءها».

وإذاً كانت تستأذن نساء الأهل والجيران فخراً عليهن بأنها ركّبت الطبيب، وتفضلاً عليهن بتسخير الطبيب المنعوش[٣]، فاختنقت بالغيظ من عامّيتها، ولعنتُ الطبَّ وساعتَه، واحتطْنَ بي أولئك النسوان يستوصفوني، فما فرغت منهن ومن المريض إلى قريب الظهر، وأعطَوني درهماً وزنة ثلثي درهم وانصرفت.

ولقد أرَتْني هذه الصناعة من الناس عجباً، وهو أنّهم لا يزالون عُقلاء ما تبيّن في جميع ما يقولونه ويفعلونه من أمور معايشهم وضروراتهم، إلى أن [٩٥/ظ] يحتاجوا

---

(١) يبدو أنه كان يوجد امرأة خناقة، حيث ذكر المقريزي في (السلوك لمعرفة دول الملوك- سنة ٧٣٩هـ) أنه في أول المحرم قبض على امرأة خَنّاقة، وقتلت.

(٢) بالأصل اللوذ.

(٣) لعلها المنحوس.

إلى الطبيب فتراهم كالأطفال أو كالمتغفلين أو كالمجانين؛ إن شكَوا للطبيب لم يفهّموه، وإن قال لهم الطبيب لم يفهموا عنه، ويخلطون الكلام، ويسمّون مرضاً باسم مرض وعرَضاً باسم عرَض؛ فيسمّون الزحير بالمغص، والمغص بوجع رأس الفؤاد، ويضعون يدهم على السرّة ويسمّونه رأس الفؤاد، وعلى رأس المعدة ويسمّونه بالرئة، وعلى القطَن ويسمّون الكلَى، ويسمّون المالنخوليا[1] سَرساماً، وما يلبس اللسان في الحمّيات يسمّونه بَرساماً[2]، والسعال ـ وإن لم يكن معه حمّى ـ ذات الجنب، ويسمّون الصداع [٩٦/و] على اختلاف أنواعه نزلة، ويسمّون حركة القلب خفقاناً، ونفخة البطن دوسنطاريا، وسلس البول قُطار البول، وغير ذلك كثير. وسبب ذلك خفاء هذه الأمور على الطبيب الماهر فضلاً عن غيره، فمتى كان الطبيب غائباً عن المريض أو حاضراً، ولم يتبيّن المرض، واتّكل على شكواهم؛ داوى مرضاً غير مرض المريض وأهلكه.

وأمّا وصفهم للطبيب[3] ما تقدّم المريض، وما جرى له في الماضي؛ فإنّي لم أجدْ أحداً منهم يحرّر ذلك، وإن سألت: كم عمِل الدواء[4]؟ قال بعضهم: ثلاث مرّات، وقال آخر: سبعاً، وقال غيره: عشرين مرّة، ويكونون [٩٦/ظ] شرهين في الإسهال، ظنّاً منهم أنّ المريض إذا قام كثيراً خلص بسرعة، فيقولون: ما قام

---

(١) المالنخوليا: هي السوداوية Melancholy.

(٢) البرسام في اصطلاح الطب القديم هو ورم الصدر أي التهابه. (ينظر اصطلاحات الطب القديم).

(٣) بالأصل للمريض ومصححة كذا بالخط المغاير.

(٤) أي كم مرة أسهله.

بالدواء ولا مرّة واحدة، فمتى صدّقهم الطبيب وبنَى على ذلك وقوّى الدواء أو كثّره هلك[١].

وفيهم من يرى غنيّاً ـ كونه عزم ركوب الطبيب، وثمّن الدواء، ولم يسهله ألف مجلس، كأنّه يرى أنّ قيمة الدواء والطبيب بقدر الإسهال. ومنهم من يخاف من الدواء فيسابق الطبيب ويعْلِمه إن حصل له إسهال من تلقاء الطبيعة كثير، فيوقفه عن الدواء الواجب ويفوت وقته وتستولي المواد، وتضعف القوّة، ثمّ يطّلع على ما ادّعاه [٩٧/ و] المريض كذباً، فلا يجد وقتاً ولا قوّة لاستدراكه فيعجز ويهلك المريض؛

كما وجدت علّة الصاحب **العزّ بن شدّاد**[٢] بأنّه كان قد عرض له حمّى محرقة، موادّها حادّة، فلشدّة إيذائها حاولتْ الطبيعة دفعها، ولم تنهضْ بذلك لرقّة المادّة، وعدم تعديل الدواء لها، فكان يندفع منها اليسير قليلاً قليلاً في مرّات، فإذا جاء الأطبّاء باكراً تقصَّوا من غلمانه عن الطبع فقالوا: جاءه البارحة عشرون مرّة، ويكون خمساً، لأنّ عادة الناس التكبير والتهويل، ولأنّ الغلمان يغيظون من السهر معه، وربّما قالوا لهم ثلاثين وأربعين، وما يعرف لقيامه [٩٧/ ظ] عدداً، فيشمّر[٣] الأطبّاء عن ساعد الاجتهاد في قطع الإسهال بالربوب والأقراص، وكلّما قاموا للطبيعة فيما يجب إليه من المصلحة ازدادت دفعاً تحامي به عن نفسها فكثرت المرّات وقلّ الخارج، ويهوّل الغلمانُ الأمرَ على الأطبّاء. والكبد والقلب يحترقان، والحمّى تلتهب، والعطش يشتدّ، ومرّت على ذلك أيّام، إلى أنْ تخلّت القوّة، وعجزت

(١) مصححة بغير قلم: أو كرره أهلك.

(٢) كتب على الهامش: عز الدين. لعله محمد بن علي بن إبراهيم عز الدين بن شداد (٦١٣- ٦٨٤هـ) ينظر الأعلام ج٦ ص٢٨٣.

(٣) بالأصل ويشمرون.

الطبيعة، وظهرت أورام حادّة رديئة خبيثة في المقعدة والأنثيين والورك، وازدادت القوّة بالوجع سقوطاً، والمادّة تزيد الأورامَ رداءة.

واتّفق حضوري إليه [٩٨/ و] ولم أُصدّق غلمانَه، ولم أقلّدهم لظهور علامات الامتلاء، وعدم نقصان المواد والأعراض، مع كثرة ما ذكروه من القيام في أيّام تزيد على الشهر، فبتّ عنده تلك الليلة، فكان ما قامه سبع مرّات إذا اجتمعَتْ لم يبلغ وزنها عشرون درهماً[١]، وهي صفراء حادّة تغلي[٢]، فعلمت أنّه أحوج الناس إلى الاستفراغ، ولكن لم يبقَ له قوّة تفي بذلك، فعرّفت أهله الصورة وفارقتُه. **فبمثل هذا يغلط الأطبّاء.**

وكذلك إذا استقصيتَ عن عطش المريض قالوا: «شرب عشر كيزان»، فيغلّطونك، أو عن أكله فيحلفون أنّه منذ مرض ما دخل في فمه غير الشراب، [٩٨/ ظ] ويكون قد أكل من كلّ ما يشتهيه، وكم من مرّة سألني أحدهم سقية الدواء فأقول: حتّى يحتمي أوّلاً، فيحلف أنّ له شهراً وهو مُحْتمٍ، فأسأله عن غذائه بالأمس فيذكر أنّه أكل جبناً مفوّراً ولبناً وغير ذلك، فإذا قلت له: لست مُحتمياً، حرِد وقال: «فيقعد الإنسان لا يأكل شيئاً أصلاً»، وإذا به مُغتاظٌ كونه ترك البوري والصِّيَر[٣]، والبصل، وما أشبههما، ثمّ يقال له: لست بمُحتمٍ. وكم من مرّة يأكل المريض وأسأل أهله فينكرون ذلك، وألحظ بعضهم يغمز البعض أن لا يشعروا المريض بشيء من ذلك، فكأنّهم يخافون أن يهتدي إلى الصواب [٩٩/ و] في علاج مريضهم.

---

(١) يقصد هنا عدد مرات القيام للتغوط، ووزن كمية الغائط.

(٢) تغلي: هذه الكلمة أضيفت بخط مغاير.

(٣) الصير: نوع سمك صغير كذا يسمونه أهل الشام (الحاوي للرازي).

وكنت داويت مرّة شيخاً من أكابر المسلمين الفقهاء والعدول، فلمّا نقِهَ من مرضه تقدّمت إليه أن يحترز من مأكوله، وأن لا يتجاوز فرّوجاً لطيفاً كلّ يوم، ويسيراً من الخبز، فلم تكن إلا أيّاماً قلائل حتى جرى بطنه، فشكى إليّ ذلك، فقلت: إيّاك أن تكون قد أكثرت من الأكل، فأنكر ذلك، فداويته أياماً والإسهال يزداد، فكرّرت عليه القول وهو ينكر، فاستدعيت الخارج، فوجدته أطعمة غير منهضمة، فقلت له: قد دلّ الدليل على أنّك تمعن من الأكل، فزجرني وحلف أَيماناً مغلّظة أنّه لم يتجاوز [٩٩/ ظ] الفرّوج.

فحرْت ممّا رأيت وما سمعت، واستحييت أن أكذّب قَسَمَه، وبقيت حائراً فيما أكتبه، وإذا بعجوز دخلت الدار ولم تعلم بيمينه، فتقاويت[1] عليها وقلت: «يا ستّي هذا حال مليح؟»، وصوّرت وجهي بصورة من اطّلع على ما أكله، فقالت: «يا سيّدي، نقول له، ما يسمع، وأصرّ ما عليه أنّه أكل أمس ملوخيّة، وتيناً، وعنباً بعدها، وبطّيخاً بعد الكل». فتعجّبتُ من أيمانه، ومطاوعة أصحابه له، وكتمانهم أمره لولا تلك العجوز.

وكذلك داويتُ آخرَ، وكنت أنهاه عن الأكل، وعنده عجوز عاقلة، فكنت أتقصّى منها [١٠٠/ و] عن مأكوله، فيحلف أنّه في الغاية من القلّة، وتقول له: «ما دمت بغير أكل فأنت في عافية». وكان يتأخّر كلّ يوم ولا يتقدّم، فحرْت في أمره، وظننت ما يقولانه حقّاً، هو والعجوز، لعقلهم، أو لدناستهم[2]، ثمّ لحظت تحت الطرّاحة بعض المأكولات، فأمرت بتحويل فراشه، فامتنع من ذلك، وتصلّبت فيه إلى أن غلبته ورفعت الفراش، وإذا تحته كلّ ما أنهاه عنه؛ من كعك، وحلو، وفاكهة، فحلفتُ

---

(١) بالأصل فتناويت، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٢) كذا بالأصل، ولعلها ولدمائتهم.

ألّا أطبَّه حتى أعلم من يُحضر إليه ذلك، فأقرّوا بأنّ العجوز والدته، وأنّها التي تُحضر إليه ذلك وتخفيه. فانظر إلى هذا الفعل العجيب في حقّ ولدها، وهي تشاهد تأخّره بسبب ذلك، [١٠٠/ظ] ولا تجدها تفعل مثل هذا التهوّر في المشاقّ(١).

وإذاً الغالب أبداً على الناس شهوة الأكل، فهم يحبّونه كمن يحبّون، فلو أكل ما أكل استقلّوه وقالوا: «إنّه لم يأكل شيئاً»، وخصوصاً أطفالهم؛ فإنّ الصبيّ يأكل في طول نهاره أضعاف ما يأكله الرجل، وتحضره إلى الطبيب وهو منتفخ البطن، فيقول لها: «هذا الصبي كثير الأكل»، فتحلف بما يحزنها أنّه ما له أكل، وترى بعينك معه الخبز وغيره، فتحلف أنّه يلعب به لا غير.

وكم من امرأة أحضرتْ إليّ ولدها ومعه حلاوة أو تمر، أو بندق وفستق مقشّرين، أو حبلّقة(٢)، أو ناطف الجُمّار(٣) وهي متلهّفة على مرضه، وتقول

(١) كذا الكلمة مضافة بالخط المغاير، ولعل القصد من يشاقق، وهو العدو.

(٢) لعلها كذا.. الحَبَلّقة: الصغير من المعز. وأغنام تكون بجُرَش، ولعلها الملبنة.

ملبَّن: يتّخذ من عصير العنب والدّقيق. وهو المعروف عندنا في شمال سورية (جق ملبن). ينظر (اصطلاحات الطب القديم). وهذه صورته:





(٣) الجمّار: هو شحم النخل.

لي[١]: «أيّ [١٠١/و] شيء أتعبه[٢] يا حكيم»؟ فأقول: «هذا الذي في يده»، فتقول: «هذا من عقله فقط». فانظر إلى هذه الصناعة؛ ما أخسّ المعاملة فيها.

وأمّا عوامّ الناس فإنّ المستفاض بينهم أنّ الطبيب لا ينبغي أن يطّلع على شيء من أحوال المريض، ولاسيّما من مأكولاته، وقد يقع الأمر بالضدّ، فيصف الطبيب للمريض التوسعة في الغذاء لئلا تضعف القوّة، أو ليغذّي المنتهي[٣]، فيقول في السابع مثلاً: أعطوه أمراق الفراريج، فيقولون: نعم، ولا يعطونه شيئاً، وهو كلّ يوم لا يجد القوّة تميّزت، فيتعجّب من ذلك، ويمرّ على ذلك أيّام والقوّة تضعف من غير سبب ظاهر، [١٠١/ظ] حتى يتّفق أن يغلط مِن أهل المريض مَن يطلعه على أنّ المريض لم يُعطَ المرق، بسبب أن امرأة أشارت أن لا يعطاها إلى تمام أربعين يوماً، فتسقط القوّة.

وأعجب من هذا كلّه أن الناس أحرص وأقبح[٤] أن يفرّطوا في الزبل والمُشاق[٥]، ويسلّموا ذلك لغير صانعه الخبير، أو يسمعوا فيه مشورة من لم يعرف بعمله، ولا يستعملون الحدّاد موضع النجّار، ولا النجّار موضع البنّاء، ويحترزون في أخسّ أمورهم بترتيب حسن، ثمّ مع ذلك يهوّرون في أمر أبدانهم ويسلّمونها لجاهل أو لامرأة تحكم فيها بما اتفق، وربّما رجحت المرأة [١٠٢/و] على الطبيب المشتغل المتدرّب المتأهّل والمشهور بالحذق والفضيلة.

---

(١) بالأصل له.

(٢) لعلها بالأصل أسقيه.

(٣) لعلها كذا.

(٤) لعلها كذا.. ولعلها أقح.

(٥) المشاق: ما سقط من الشعر وغيره.

حتّى إنّني حضرت كم من مرّة ويُحضرون معي عجوزاً ويقولون: «يا حكيم، هذه العجوز لها دُربة، فاتّفقْ معها على ما ينبغي»، فأذوب غيظاً، وأقول: «يا ستّي عندك تطريزٌ أطرّزه لك؟ فإنّي عارف بالتطريز، وأعرف أيضاً أغزل»، فتنكر ذلك كلّ الإنكار وتقول: «من أين يعرف الرجل هذا»؟ فأقول: «ومن أين تعرف المرأة الطبّ، إذا كانت دعواي في الأسهل لا تُصدّق وأنا رجل، فكيف تصدّق دعواك في الأصعب والأخفى وأنت امرأة»؟ [١٠٢/ظ] ولا يعجب الحاضرون من ذلك، وربّما قالوا: «ما هذا مثل هذا، فإنّ الغزل صناعة، والطبّ كلام يعرف كلّ أحد يقرأه بالدربة»، وكذلك يقولون في جهّال الأطبّاء، ولا يفكّرون في التدرّب، إنما غني عن العلم ممّا أسفر عنها من صناعة، وما أجهل الناس في استعمالها دون باقي الصنائع.

وقد جرى مثل ذلك لقاضي القضاة؛ فكان يعوده في مرضه أكابر الأطبّاء وعلماؤهم ومشايخهم، وأطبّاء السلطان يدبّرونه بحسب تعالي سنّه تدبيراً لطيفاً حسناً برفق إلى أن تماثل، فدخل عليه أقذر الأطبّاء اليهود [١٠٣/و] الذي لا يخفى جهله من كلامه ولا على الأطفال، فركن إليه وقبِل قولَه في شرب دواء سقطت به قوّته، وقضيت منيّته.

فتأمّل أين وصل تعقّل الناس في أمر هذه الصناعة أنّ حاكماً فاضلاً يترك مشورة جماعةٍ أفاضلَ مشايخَ مسلمين عدولاً، وقد ظهر من تدبيرهم النفع، ثمّ يعتمد على واحد يهوديّ مهوّر مذموم، في أمر يعلم أنه غني عنه أو ضعيف، ولكن هذا الفعل اقتضاه القدر.

ولقد دخلت إلى امرأة في شدّة عظيمة، عرضت لها من استعمال سفوف السِّمنة،

رديء التركيب، وفرزجة[(١)] [١٠٣/ظ] حادّة، وصفتْها لها قابلة في ورقة، فتلافيت ذلك وفرّجت كربتها، ودعت لي، وعلمتْ نفعي وضرر القابلة، ثمّ أخرجتْ ورقة القابلة وأخذت تسبّها، وتقول: «لو أنّ محتسباً[(٢)] كان يفعل بها ويصنع»، فأخذ زوجها منها الورقة وقطّعها ولعن من كتبها.

فرأيت المرأة وقد خرجت عن حدّ الاعتدال غيظاً، وصرختْ، ولطمتْ وجهها، فقلت لها: «يا أختي هذا لأي شيء»؟ فقالت: «لأجل الورقة»، فقلت: «الساعة كنت تلعنين التي كتبتها وتستصرخين عليها»، فقالت: «والله ما أسفت على تقطيعها لأنني ما كنت [١٠٤/و] أستعملها، أعوذ بالله، ولكن كنت أدّخرها لمن يطلبها ابتغاء للثواب». فتأمّل عقل هذه المرأة، على أنّي أعذرها بالقاضي[(٣)].

وقد نظم بعضهم في واقعة القاضي أبياتاً، وهي[(٤)]:

ولقد سألتُ عن الحكيم ماترٍ[(٥)] كم من يهوديّ وفي كم مجلسِ

والكلّ يلعنُهُ ويحلفُ أنه ما الكلبُ والخنزيرُ منهُ بأنجسِ

ولكنْ لهُ لبني اليهودِ محبةٌ[(٦)] بعض الذي مِن بعضِهِ في الأنفُسِ

---

(١) الفرزجة: هي حمولة في قبل المرأة.

(٢) بالأصل ثم محتسباً.

(٣) يقصد القاضي السابق الذكر.

(٤) لم نعثر على اسم الناظم أو الطبيب، أما القاضي فينظر ترجمته في آخر الأبيات.

(٥) بالأصل مائد، ولعل الصحيح ما أثبتناه ماتر، كما سيرد لاحقاً. والمتر: السلح إذا رمي به، والنار إذا قدحت رأيتها تتماتر أي تتساقط (العين). والمتر لغة في البتر وهو القطع. والمتر: المد. (لسان العرب).

(٦) بالأصل: ولكن له لليهود محبة.

فسألتُهمْ عنها فقالوا منّةً عظمتْ بحقّ حمْلها لم تبخسِ
[١٠٤/ظ] تعليلُه للمسلمين بظنّه وخصوصاً القاضي الوجيه البَهْنَسي(١)

فانظر كم إذا تصبّر عليه الطبيب، لا كرماً ولا ديانةً إلا لطلب السحت، وكلّ ذلك يدلّ على سقوط المروءة، وهذا الطبيب الفاضل الذي عامله هذا القاضي بهذه المعاملة، واستبدل به هذا اليهوديّ المهوّر الساقط، لو اتّفق أن عاش القاضي بعد أذاه له وسوء أدبه عليه، ثمّ استدعاه وهو ينازع فمضى إليه، بل قد جرى الأمر كذلك.

وتردّد أولئك الأطبّاء إليه بعد اطّلاعهم على ما فعله وما أقدم عليه [١٠٥/و] ماترٌ(٢) اليهوديُّ في حقّه، ولقد كانوا يظنّون أمراً آخر؛ فكان يخفي ماتر في خزانة ويقتصر على ظنّه ويكاتمهم أمره، وهو يوهمه أنّه يسقيه بظنّه، وإن أظهره لهم امتنع من ذلك، فما زال كذلك حتى مات، فأمسك مماليكه ماترَ وقصدوا قتله، وظهر خبثه، وليس لهم مندوحة من احتمال هذه الإهانة، لأنّهم إن دعيوا فأتوا(٣) ذلك وأظهروا الغضب لِما اطّلعوا عليه من سوء العِشرة، أوجعوهم باللوم والعتب وشكوهم للناس كأنّهم هم الذين أساؤوا الأدب في حقّ المريض، فسرى ذلك إلى كثير فكرهوهم،

---

(١) وجيه الدين عبد الوهاب بن حسن البهنسي، ذكره المقريزي سنة (٦٨١هـ) حيث أعفي من قضاء القاهرة والوجه البحري، وانفرد بقضاء مصر والوجه القبلي، توفي سنة (٦٨٥هـ). (السلوك لمعرفة دول الملوك).

(٢) كذا رسمها، وقد مر.

(٣) لعلها بانوا.

ونُقل [١٠٥/ظ] ذلك إلى من يكون من المتصرّفين في صلة الأرزاق فكدّر عليهم معلومهم إن لم يقدر على قطعه، ولو أنّه ضامن من أحسن الضمّان، أو رقّاص قدّام مسند الدواوين يخافون غائلته.

ولذلك تجد أطبّاء الخدمة يتملّقون من نائب المملكة إلى أخسّ رقّاص له نسبة إلى مسند ديوان المملكة، ويسارعون إلى مباشرة مرضاهم ومرضى أصحابهم، ويحتملون هذه المذلّة في خدمة الأراذل خوفاً من أذاهم لهم عند الأكابر، ولو بنقل كاذب[1]، ولذلك أيضاً تراهم في باب الملك يتسابقون في السلّم على من لا ينصفهم فيه، والتودّد إلى من لا يظهر عليه أثر الودّ لهم تطفّلاً وتبرّعاً، [١٠٦/و] وأولئك مشغولون عنهم، كأنّهم فضلة، ويعوّلون على أقلّ وكيل، لأنّ عيونهم معه ـ أعني المال.

وأمّا الأطبّاء فمتى يحتاجون إليهم؟ وإن احتاجوا فمرّة في العمر، احتياج كارهٍ مبغضٍ متكلّف، كما لا يحتاج في التصرّف في الأموال احتياج عاشق ولهان.

ثمّ أكثر من في باب المملكة أتراك وديلم وروم وخطا **وكُرْج وعلّان وتتر**[2]، وغيرهم من الأجناس القليلي الأمراض، والأصحّاء على غالب الأوقات ـ فرحاً بالعزّ والجاه والمال ونفاذ الكلمة وبلوغ الأماني، ومرحاً باللهو واللعب والصدّ والقبض، وارتياضاً بالركوب والرمي ولعب الأكرة، [١٠٦/ظ] واقتصاراً على أكل اللحوم الساذجة، وقلّة التخليط، واجتناب ما أكل المدنيّون والعامّة من البقول **والقَطاني**[3]

---

(١) ومثل هذا يحصل كثيراً في عصرنا الحديث للأسف.

(٢) الكُرج بضم الكاف: ناحية من ثغور أذربيجان، من الروم. وعِلان: من نواحي صنعاء باليمن. (الأنساب، ومعجم البلدان). والتر: أقوام من المغول.

(٣) القِطنيّة بالكسر والتشديد واحدة القَطاني كالعدس والحمص واللوبياء (لسان العرب).

والمُعفّنات والمملحات والمخللات، والأطعمة والأطبخة الكثيرة التركيب، والجمع بينها في وقت واحد، أو عدم اصطبار على الدَّعَة والسكون والمقام في الأزقّة والبيوت والمدن الظليلة الوخيمة، المولّدة للعفن، المرخية للحوم.

فهم لذلك غنيّون عن الأطبّاء غالباً، وإن احتاجوا إليهم في الدهر مرّة لم يكونوا مقتديين(١) بواحد مخصوص فيكرمونه رجاءً فيه، وإن مرضوا فما يُصدمون بفراقه، لأنّ فراقه يوفر لهم العافية، كما قال بعض [١٠٧/و] المزّاحين في شهر رمضان: «كفى بك شهر فراقه يوم عيد»(٢).

ومن يريد الإنسان فراقه كيف يستمرّ على التودّد إليه، وليس إكرام الناس بعضهم لبعض إلا لدوام أسباب الفوائد والراحات بينهم في المتاجر والمكاسب والزراعة والمساقاة والمعاملة والصناعات والمؤاكلة والمنادمة والسماع والطرب، والعمل على المناصب والدرجات، فهم يتودّدون إلى بعضهم لسبب من هذه الأسباب.

وأمّا الطبيب فصلتهم به صلة مكروهة، ولا يزالون معه في المخاصمات إلى أن يقدّر الله بالعافية، فينسبون ذلك إلى الله سبحانه ـ والأمر كذلك ـ وينسبون إلى الطبيب ما كابدوه [١٠٧/ ظ] مُدّة المرض؛ من تباعده وغيبته وبطء حضوره، ووهمهم فيه أن

---

(١) كذا، ولعلها مقيدين.

(٢) هناك بيت شعر ولكن بعد هذا في القرن الحادي عشر للحسن بن علي بن جابر الهبل ١٠٧٩هـ:

ورقيبٍ كأنّما هو شهر الصـ ـصوم عندي فراقُه يومُ عيدِ

(نفحة الريحانة، وفوائد الارتحال)

يطوّل المرض عمداً، ويقصّر، كما يتحاكون خبر الكحّال في **قشرة السمك**، وأنّه تغافل عنها في عين السمّاك سنة كاملة، والسمّاك يهدي له السمك، فلمّا غاب الكحّال أخذها ابنُه[1] بقطنة أو بملعقة الميل فأبصر ومضى إلى شأنه. واستطاف[2] الكحال من الغد فعرفه آية[3] الصورة، فسبّه وقال: «يا ابن الفاعلة، ما بقي يجيك السمك إلا مقشّراً».

وتبصِرُ جهلاءَهم يستعجلونه فلا ينهض، ويرومون منه أن يشفي المريض من أوّل فلا يمكنه، فينسبون ذلك منه إلى الجهل والتقصير [١٠٨/و] أو الخبث والتعسير، لا إلى طبيعة المريض، والصناعة كذلك.

ولأجل ذلك تراهم يشاركونه في الطبّ؛ فلا ينكرون على من شاركه فيه من عجوز وقابلة وزائر المريض، لأنهم غير واثقين بأنّ الذي يعمله هو الصواب، إذا كانت ثمرته لا تظهر في الوقت كما تظهر ثمرة البنّاء والنجّار وغيرهما، وإنّما يظهر في الآخر عند انقضاء المرض، وأمّا البنّاء فيبني في اليوم إسقالة، والنجار ينجز ثلث الباب، فعملهما وعمل غيرهما محسوس، وعمل الطبيب غير ظاهر البتّة إلى انحطاط المرض، وربّما تعب إلى الآخر وأعطته عجوز أو طبيب جاهل عند الانحطاط ولو ماءً [١٠٨/ظ] بارداً فأعقبه الانحطاط، فينسب إلى الثاني، وانفطرت مرارة الأوّل، ووصف بالتقصير، وأُصرف خائباً.

---

(١) ابنه: لحظها ولده فأخذها (كتبت على الحاشية بغير خط).

(٢) بالأصل واستطاه. ولعلها واستضاف.

(٣) بالأصل آتية.

وربّما داوى المريضَ طبيبٌ غيره أو عجوز مداواة تودي بهلاكه، ثمّ أحضروا الطبيب في آخر الأمر والروح في التراقي ـ كما قيل:

أتتْ وحياضُ الموتِ بيني وبينها وجادتْ بوصلٍ حيثُ لا ينفعُ الوصلُ(١)

فيصف له مرق الفرّوج ثمّ يموت بعدها، فيقولون: ما قتله غير المرق.

وأشدّ ما عليه أنّه إذا داوى مريضاً من شأنه أن يموت لم يفكّوه من ملازمته إلى ساعة موته، فيتجرّع الغصص، وإن [١٠٩/و] تحيّل وانقطع قبل موته بيوم أحضروا له آخر فاستغاب الأوّل وذمّ تدبيره السالف؛ إمّا بغضاً، وإمّا لأنّ أهل المريض وصفوه أنحَس وصف، وانقضى له مجلسٌ ما في الدنيا أنحس منه.

وأكثر ما يعرض ذلك لأطبّاء الخدمة، خارجاً عن تجرجرهم في الأسفار بغير أهبة، ومشاركة المباشرين في الحرب من غير شجاعة، أو حاجة أو رجاً(٢) في أمره، فيقاسون ما يقاسيه الأمراء وليس يُرجون، ويصطلون ما يصطليه الأبطال من غير حمد ولا ثناء، وإذا فتح الله وحصلوا على خلعة(٣) أمير كان ما يغرموه من ذلّ التردّد ومصانعة الخدّام والحجّاب، والوقوف على الأبواب، ومزاحمة بعضهم لبعض، [١٠٩/ظ] أو صرْف رفيقه والانتصار عليه ليفوز بالجائزة وحده، ما ينغّص الخلعة ولو أنّها من ذهب.

---

(١) البيت من قصيدة لشرف الدين بن عنين وهو في الديار المصرية لما أهداه الطبيب الكحال برهان الدين أبو الفضل سليمان خروفاً هزل بالطريق إليه من الشام. (عيون الأنباء).

(٢) بالأصل رفجا.

(٣) بالأصل خدمة، ومصححة كذا بغير قلم.

ثمّ إذا جعلت في مقابله عدد مرّات الركوب والتردّد؛ لم يقع حساباً عن كلّ ركبة درهم واحد مدّة المرض، ويستتبع تردّده إلى الأمير بعد العافية وإلى حاشيته مدّة ليست في الحساب، مع ما تغرّمه منها للمحاسبة، ومع تكلّف دورانه بالخلعة بشوارع المدينة كلّ وقت، وهو قد قرف من ذلك واسترداه[1] واستهجنه، ورآه ألْيَق بعقول الصبيان والأخفّاء من الناس .**فهذه جائزة أرباب الخدم.**

وأمّا إذا لم ينجح علاجهم، [١١٠/و] وأشرف الملك والأمير والوزير على الموت؛ فإنّهم يتعرّضون للعطب، ولاسيّما إن نكّت بعضُهم على بعض في المداواة، وربّما كان الذنب للمريض فينكره، وينسب الذنب إلى الطبيب، فينقم عليه قبل موته، أو ينقم عليه خلَفه وبعده، كما جرى **لأبي سعيد طبيب أحمد بن طولون**[2]؛ فإنه كان كلّما نهاه عن الأكل أمعن فيه، وبه ذرب، ونسب الذمّ إلى أبي سعيد، فلمّا أشرف على الموت أحضره وقال له: «والك أموت أنا وتبقى أنت في الدنيا»؟ ثمّ أمر بضربه بعمد الحديد حتى مات وتهرّأ، ثمّ مات أحمد بعده بساعة.

وأمّا أطبّاء السوق [١١٠/ظ] فبعد مكابدة ما وصفناه من الهوان في الاستدعاء والمشي في الطريق، والوقوف على الأبواب، والردّ ومقاساة أخلاق العوامّ، ومشاركة النساء والعجائز وجهّال الرجال، وركاكة غاغة الناس، والتسطيع[3] بهم، وتقريعهم[4] بمن مات من طبّهم، ومحادثتهم، ومنازعتهم؛ ينهضون من عند المريض

---

(١) بالأصل واسترده.

(٢) تنظر القصة في (عيون الأنباء) في ترجمة سعيد بن توفيل (وفيه توفي سنة ٢٦٩ وقيل: ٢٧٩هـ).

(٣) السطع: الدعك في القتال والمعاركة (لسان العرب).

(٤) التقريع: التوبيخ.

بعدما عيل صبرُهم، وضاع وقتهم، فيخرجون إلى الطريق، ثمّ أهل المريض بالخيار؛ إن أرادوا أن يعطُوا أعطَوا، أو لا يعطُوا لم يُعطُوا، حتّى كأنّ الطبيب غلامهم، بل عبدهم ومملوكهم، فإنّ الغلام لابد له من أجرة، وكأنّ ما [١١١/و] عملَه ليس بشيء، ولا يستحقّ عليه أجره، أو هو فرض عليه، وما يُعطاه صدقة عليه.

وإذا تصدّقوا عليه بذلك لحقه بعض الغلمان أو الجواري أو صغار الدار بنصف درهم أو درهم خفيف وزنه نصف درهم، فإن امتنع من تناوله عادة وحيرة، لا حشمة وعزّة؛ فلن يجد أسرع من رجوع الرسول، ومضى الطبيب جانباً، فمرّة يعيده الرسول إلى أهله، ومرّة يأخذه ويوهمهم أنّ الطبيب تناوله، وليست للطبيب من البسطة واليد عندهم أن يذكر لهم شيئاً من ذلك، ولا يتفوّه به، كأنّه خائف أو ذو ريبة، أو له ذنب[1]، [١١١/ظ] يتلافى منه بالسكوت عنه.

ولقد تكرّرتُ إلى رجل موسر جدّاً أيّاماً، فكان كلّ يوم يبعث لي مع ولده درهماً نحاسيّاً، ولم أكن أعرف نقد الدراهم، فكنت أريه للعطّار فيقول: هذا نحاس، فأُعْلِمه أنّه من بيت فلان، فكان العطّار كلّ يوم يمازحني ويقول: «رحتَ اليوم إلى دار النحّاس»؟

وربّما أخذ الرسول ما يُرسل على يده للطبيب، بعضه أو كلّه، كثيراً كان أو قليلاً، فلا يمكن للطبيب أن يطّلع على شيء من ذلك، لأنّه يخاف أن يسأل أهلَ المريض عن ذلك، ويمكن أن يكونوا لم يرسلوا شيئاً، فيظنّوا أنّ سؤاله عن ذلك من جنس

(١) أقول: مازال الطبيب حتى في وقتنا الحاضر لا يستطيع أن يطالب بأي حق له عند المريض، بحجة الإنسانية، وكأن الإنسانية لا تشمل الطبيب أيضاً.

التعريض والطلب، [١١٢/و] ويصير ذلك الرسول عدوّاً، فربّما ضرّه ونقل عنه وعمل على صرفه، وإن لم يسألهم لم يخبره أحد منهم ابتداء، ويصير هو يتردّد كالمغبون، ويظهر عنه الانقباض وقلّة النشاط في الملاطفة، فينسبونه إلى اللّؤم والغشّ كونه يفعل مثل ذلك بعدما أعطَوْه، فلا يزال في مذلّة ولومٍ وعتبٍ، وكلّ ذلك يقتضي له الاعتياد بسقوط المروءة.

وربّما أوهمه بعضهم أنّ العطاء يكون جملة عند الحمّام، مثل دراهم لها مقدار يعلمه[١]، أو تفصيلة، أو خلعة كاملة، فيستعملونه بالطمع إلى آخر الأمر، ويصرفونه فارغاً خائباً، فتراه يتذلّل للخُدّام [١١٢/ظ] أيّاماً كثيرة، وهم يُعرِضون عنه، وإن لجّ أسمعوه غليظ ما يكره.

وقد عالجتُ مرّة بعض الأمراء، فرتّب لي من ركبدارة[٢] إلى أسياد دارة، كل يوم يلقاني الركبدار ثمّ الطبيب دار ثمّ الفرّاش، ثم الشرب دار، ثم البرد دار، ثم الدواء دار، ثمّ أمير مجلس، ثم أسياد دار؛ ويقولون كلهم: «لقد هيّأ لك الأمير خلعة صفتها كيت وكيت»، ويطنبون في شكرها، فلا يمكنني أن أكذّب الجميع، فأَنْشَط للمداواة.

ولم أزلْ على ذلك حتّى دخلت به الحمّام ومعه بقجتان، فأتى ذلك الوقت وبعض دليله يشير إلى أنّ [١١٣/و] إحدى البقجتين فيها خلْعتك، فلمّا خرجنا من الحمّام وجدت بقجة واحدة فقط، فما تركوني أسأل عن الأخرى، بل قالوا: «ما استحسن الأمير أن يلبس إلّا من داره»، فحضرت معه الدار، وانتظرت فلم يعطني شيئاً،

---

(١) مصححة بقلم مغاير (أو غلة).

(٢) ركبدار: صاحب الركاب (تكملة المعاجم).

فقالوا: «ما عجبه بَقيارُها»، فحضرت في الغد فقالوا: «شيّر[١] الأمير يشتري بَقياراً مُثمناً»، وكذلك قالوا في اليوم الثالث.

كلّ ذلك لكي أتردّد حتّى تشتدّ صحّته، فلمّا اشتدّت صرت أحضر فلا أجد من أولئك أحداً يرضى أن يتطلّع إليّ بطرف عينه، فضلاً أن يخاطبني بكلمة، أو يسلّم عليّ، فتردّدت أيّاماً في الفارغ [١١٣/ظ] ثمّ انصرفت. فما رأيت أشدّ اهتماماً منه بالحيلة، ولا أعلم منه بطريق الاسترباح والبخل.

ومنهم من يدعو طبيبين أو ثلاثة، ويوهم كلّ واحد منهم أنّه معتمدٌ على طبّه لكي ينشط ويجتهد، فإذا تماثل عكَس ذلك الأمر وأوهم كلّاً منهم أنّه لم يشرب إلّا وصفة الآخر، ليوقع في نفس كلّ واحد منهم أنّه لم يستعملْه، وأنّه لا حقّ له عليه، ثمّ يصرف الجميع بغير أجرة.

ومنهم من يعطي الطبيب أوّل يوم درهمين، فيرغب فيه ويتوهّم أنّه أكرم الناس، ثمّ ينقطع العطاء في اليوم الثاني، ويعطيه في اليوم الثالث أربعة دراهم، [١١٤/و] فلا يشكّ أنّ منع العطاء بالأمس كان لعائق، وأنّ الإنصاف والكرم محقّق، ثمّ ينقطع العطاء في اليوم الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر، والطبيب بقلّة عقله يحسب كلّ يوم درهمين، فيقول: لي عشرة أيّام بعشرين درهماً، أخذت ستّة دراهم بقي لي أربعة عشر درهماً، فيعطيه أربعة دراهم أخرى، فيقول: بقي لي عشرة دراهم، ثمّ يستجرّه عشرة أيّام أخرى إلى أن ينقضي المرض ويصرفه، فتقع أجرته عن كلّ يوم نصف نقدة[٢].

---

(١) شير: أشار، واستحسن.

(٢) بالأصل نقوة.

ومنهم من يقول للطبيب: «يا حكيم نحن ما نعرف هذا الدرهم كلّ يوم مثل العوامّ»، ويكونون من أحسن العوامّ، [١١٤/ظ] «ولكن نحن نعطي كلّ جمعة حقّها»، فيستعملونه أسبوعاً ثمّ يجعلون له ذنْباً يصرفونه به، ويطردونه أقبح طرد، ويقلّدونه المِنّة[١] بالسلامة في مطالبته بما جناه على المريض، ثم يدعون طبيباً آخر ويفعلون به كذلك، فيستعملون الأطبّاء بغير أجرة إلى انقضاء مرض المريض.

ومنهم من يتواطأ مع جارٍ له عنده مريض، فيتقاسمان أجرة الطبيب؛ أعني الدرهم الناقص، ويوهم الطبيب أنّ جاره فقير[٢] وله في زيارته الأجْر، فيستعمله المريضان بأجرة مريض.

ومن شرار الناس من يركّب الطبيب أول[٣] يوم بدرهم، [١١٥/و] فإذا وصف للمريض ولو شراب الورد علّموه أن يُظهر الغشِي ويدّعي المغص[٤] الشديد، فيصرخون على الطبيب، وربّما شكوه إلى رئيسه أو إلى المحتسب، وادّعوا عليه أنّه سقاه شيئاً رديئاً قتّالاً، وحلّفوه على ذلك.

وأكثر ما يجري ذلك للكحّالين؛ فإنّ أحدهم يقطّر في عين الأرمد **أشياف**[٥] أبيض، ثمّ يأكل الأرمد بصلاً وعدساً وثوماً وسمكاً، وينكح ويغضب، فتتسحج عينه،

---

(١) بالأصل المانة.

(٢) بالأصل مقصر، ومصححة كذا فقير.

(٣) الكلمة مضافة بغير خط، ولعلها بالأصل كل وممسوحة.

(٤) بالأصل المغس، ويصح الشكلان.

(٥) الشياف: ككتاب، جمع شيافة، وهي اسم لما يتحمّل من الدواء في المقعدة، ويطلق لدواء العين أيضاً. وأشياف: جمع شياف. (اصطلاحات الطب..)

فيحلف أهله أنّ الكحّال أكحله **بروشنايا** أتلفت[(١)] عينيه. ويستعملون الطبيب أو الكحّال أشهراً بغير درهم إلى أن يبرأ، وإن كانوا ممن يُخاف شرّهم، وكان [١١٥/ظ] الطبيب مستضعفاً كلّفوه القيام بثمن الأدوية، مع ما يتجرّعه كلّ يوم من الغصص والتهديد والتقريع بالكذب؛ إذ يقولون له: «ما تشبه إلا فلاناً الطبيب، مرض عندنا مريض أشدّ من هذا المرض أبرأه في يوم واحد بشربة واحدة، أو فلاناً الكحّال داواني من رمد شديد بكحلة واحدة».

وقد حكى لي من أثق بقوله، قال: أتى إليّ فلان الطرقيّ العشاب فأخبرني أنّ به مرضاً، وأنّه شكاه إلى فلان الطبيب، فأعطاه من بيته شربة مسحوقة مجهولة، وأخذ منه خمسة دراهم، وأنّها أسهلته كثيراً وما انتفع بذلك، وسألني عنها [١١٦/و] وقال لي صفتها، وكنت أعرف أكّال[(٢)] فعرّفته، فضرب يداً على يد وقال: «عندي منها قناطير، وأبيعها بالفلوس، وأعمل بها الطرقيّة على الناس، يفعل هذا معي»!

ثمّ تركني ومضى مسرعاً، ثمّ عاد إليّ من غدٍ فقال: عرفت ما فعلت؟ قلت: أخبرني، قال: أخذت دماً من فصّادي الجرائحيّة، ولطخت به ثيابي ورجليّ ومقاعدي، واستصحبت منه شيئاً كثيراً في قصريّة ومضيت إليه، وامرأتي تصرخ: وا قتيلاه! فانطرحت على بابه، واجتمع الناس، وقلت له: «إنّ دواءك عمل بي ما تراه»، فكاد أن يموتَ خوفاً، ثمّ أخرج إليّ الخمسة دراهم، فتراميت[(٣)] وتغاشيت

---

(١) بالأصل وفعلا، ومصححة بقلم مغاير كذا. والروشنايا: هو كحل معناه باليونانية مقوي البصر. ابتكره فيثاغورس. (اصطلاحات الطب القديم).

(٢) كذا. والأكال هو داء يأخذ بالشجر.

(٣) بالأصل فترامدت.

[١١٦/ظ] وصرخَتْ الزوجة وقالت: «أبيع روحي بخمسة دراهم»! فما برحنا حتى أخذنا منه عشرين درهماً وانصرفنا.

فانظر ما أسوأ حال الطبيب، ولست أدري أيّ هذين كان أكثر حشمة وأكثر مروءة.

وله ممّا يخصّ أرباب الصنائع من السخرة نصيب وافر لمن لا يقدر على ردّه، وكافٍ عاقبة أمره؛ كالولاة، والنوّاب، والكتّاب، والمتصرّفين؛ فيعمل بغير أجرة ولا غذاء، كالصنّاع، خوفاً على نفسه ومداراة عرضه حتّى من جيرانه، وإلّا آذَوْه وكذبوا عليه، ونفّروا منه الزبون، وغمزوا عليه عند اختفائه، فالويل له إن طبَّ أحداً من الجيران أو الأهل [١١٧/و] فمات، فالواجب أن يرحل من ذلك الزقاق وتلك الحارة، وإلّا لم يبق للجيران شغل غير نصح طالبيه بأنّه لا يعرف شيئاً، وأنّه قتل أمس فلاناً، وأشدّ ما عليه أنّهم يدعون طبيباً غيره وهو معهم في الزقاق أو في الدار، فيكون ذلك عليه أشدّ من الصفع.

ومثل ذلك إذا بكّر إلى مريض من معارفه الذين يثقون به ويثق بهم، فوجد طبيباً آخر خارجاً من عندهم وأعرضوا عنه، أو داخلاً ولم يأذنوا له في الدخول معه؛ فالدرّة أهْوَن من ذلك عليه، فلذلك يتعلّم أن لا يثق بأحد ولا يربط على صديق، وخصوصاً إن كان الطبيب الذي [١١٧/ظ] استدلّوه جاهلاً أو طرقيّاً، وكان هو من أهل العلم والرئاسة.

وأشدّ من ذلك أنّهم بعد ذلك الصفع قد يعودون إلى استدعائه، ولا يجد له من الأنفة والمروءة أن يمتنع من المُضيّ إليهم، لعلمه أنّه إن ترك كلّ مريض لأجل الإهانة

لم يبق له مريض واحد، **فيتعلّم أبداً إهمال الحميّة والمروءة، ويصبر على المذلّة والهوان طلباً للمعاش.**

وأشدّ من ذلك أنّه قد يُستدعى بحضور من ذلك الطبيب الجاهل، فيجد ذلك الجاهل قد أوقع في أنفس أصحابه ومعارفه أنّه مقصّر وجاهل بالطب، فيدعونه لينظروا [١١٨/و] أيّهما أمهر، وربّما سَطا ذلك الجاهل عليه وأفحمه، وتواقح وكابره بالباطل وجابهه(١)، ولاسيّما إن كان لذلك الجاهل عضُد ومساعد من أهل الدار قد انثار بحضوره فيساعده ويراسله في المكابرة والقِحة، أو كان مسلماً والقاصد ذمّيّاً مستضعفاً، أو كان يخلع سلطاناً أو أميراً فخشي منه، وتجد أهل المريض كأنّهم إنّما أحضروهما ليرموا بينهما، ويتفرّجوا على خصامهما ليظهر لهم المبرّز منهما.

فإذا رأوا ذلك الجاهل استظهر على صاحبهم من قديم الدهر عادوا بعد إحضاره فرفضوه، واستمرّوا بالجاهل، [١١٨/ظ] ولا يخلو إمّا أن يُصيب بطريق العرض، أو تنهض الطبيعة بسعادته فيبطئ ما يظهر عليه المتصرّف، أو ترد أخباره عليه بأنّه أعطي كذا وكذا من الدراهم ومن القماش ومن الهديّة والحلوى، ويكون أكثر ذلك كذباً، فإنّه يمتعض ويذوب كبده من الغبن، ولاسيّما إن كان هو اصطلى بالمريض من ابتداء مرضه، وزمان تزيّده، وأهوال بُحرانه، وخلخل أركان المرض، ولم يبق إلا الانحطاط، فحضر ذلك الجاهل واقتطف زبدة محضة، ونُسب إليه هو العجز، ونُسب إلى الجاهل النهضة، وفاز بالعطاء، فيا ليت قلبه ينشقّ، وينقص نصف عمره وقوّته [١١٩/و] ويتفتّت غبناً.

---

(١) بالأصل وأجبهه.

وأمّا فضلاء الأطبّاء فغايتهم[١] أن يصيروا عند الناس جهّالاً، لأنّهم لا يُدعَوْن إلّا والمرض قد بلغ الغاية من الخطر، فيموت المريض على أيديهم غالباً، فيُنسبون إلى التقصير.

فهل بقي عندك من أنواع الغبن والذلّ والظلم أشدّ من هذا، ومع ذلك فلا يأمل من الطبيب مروءة.

بل قد شاهدت أجلّهم منّي، استدعاه هؤلاء بأعيانهم بعدما فعلوا، وبعدما ظفر الطبيب الجاهل منهم بما ظفر، أجاب دعوتهم، وتردّد إلى عبدٍ من عبيدهم، أو جارية من جَواريهم، لا لأن يأمل بسببها درهماً، بل رجاء أن يؤلّفهم ثانياً، فلعلّ عزيزاً عندهم تمرّض؛ فيحصل له ما حصل للطبيب المتصرّف.

[١١٩/ظ] فقبّحه الله ما أمهنه وأحلى مرارته، لعمري إنّ أشعث لأشبع نفساً منه، وأكثر مروءة، وأقلّ طمعاً، ويا ليته يبيع لذّة المروءة بلذّة العيش، بل الكلب ألذّ منه عيشاً، لأنّه يسعى ساعة لمعاشه، ويربض ساعات لنومه وراحته، والطبيب لايزال نهاره وأكثر ليله في سعي وركوب، وارتقاء غرف ثالثة ورابعة، تحلّ القوّة، وكلام هذيان ممّا يصف في البيوت والطرق، وممّا يجفّف دماغه ويفني رطوباته وثورته، وسوء الخُلق، ووسواس فيما يعمله في علاج فلان وفلانة، وملأ فاهُ أقذار وروائح كريهة، ومكابدة أحزان، [١٢٠/و] فإنّه لا يعامِل إلا من هو في طريق الموت، ولايزال خائفاً وجلاً، ومعامِلاً لقوم ذوي حزن وكآبة وتنهّد وقلق وكُلوم[٢]، وهم لخوفهم على

---

(١) مصححة بقلم مغاير (فعادتهم).

(٢) الكلوم: جمع كَلْم، وهو الجرح.

المريض كلّ يوم يعظّمون الأمر عليه، ويزيدون في الشكوى، لينهضوه في الاجتهاد، ويتهدّدونه بإحضار غيره ليواظب ويسرع في الحضور.

وربّما أحسّوا بصلاح المريض ويتواصَون أن لا يُظهروه على ذلك لئلا يتراخى ويهمل، **ولا يبلّغونه ما يسرُّه أبداً**، بل إن أمّل أن تبرح الحمّى تلك الليلة أصبحوا فقالوا: «ما رأينا أشدّ من حمّاه البارحة»، وإن أمّل أنّ المريض ينام ويستريح قالوا: [١٢٠/ظ] «ما عرف الغمض»، وإن ترجّى أنّ عطشه يسكن قالوا: «قد قرقش[١] الكيزان»، وإن أمّل أنّ طبيعته تندفع قالوا: «له شهر ما انطلق»، وإن رجا إسهاله ينقطع قالوا: «قام ألف مرّة».

فلا يُبشَّر بخير، ولا يواجَه[٢] بمسرّة، بل طول نهاره يطرُد بحماره، أو يجري كالمجنون من تباعد البيوت، وهو صائم عطشان، حاقن، مغبون، مشتوم من المرضى والأصحّاء، ومحسود من رفقته وغيرهم، خائف من دقّتهم عليه، والتنكيت على أعماله.

ولذلك يموت أكثرهم بالدقّ، أو تتلاشَى حرارتهم الغريزيّة وتبرُد، فتقصُر أعمارهم لأنّ الحركة تسخّن فتذيب، [١٢١/و] أو لأنّ إفراط الحركة يبرّد الحرارة ويجفّف الرطوبة؛ والبيّاع والبقّال والزبّال والمشّاق والسمّاك والوقّاد والطبّاخ والفرّان، ولا أقول البزّاز[٣] والعطّار والقزّاز؛ كلّ واحد منهم يكون قد أكل وشرب

---

(١) قرقش: قضم، قرش. (محيط المحيط).

(٢) بالأصل: ولا يؤاخذ، ومصححة كذا.

(٣) هو بائع البزز، أي الألبسة والثياب.

ثلاث مرّات، ونام واستراح، وأزال ضرراً به وهو مستقرّ جالس في دكّانه، والناس يقصدونه ولا يقصدهم، ويقفون عنده وهو جالس، ومقبل على شأنه.

والطبيب يقصد الناس، ويطرق الأبواب، فيُقبَل مرّة، ويُردّ مرّات، ومكسبه مع ذلك أخسّ المكاسب وأقلّه، فيا ليته كان كالعوّاد والحنكي(١) والزامر، لا يُطلب إلّا لمسرّة ولهوٍ وقصف وأكل وشرب، ثم يعرض محفوظاته [١٢١/ظ] ويطرب على نفسه، ويُعطَى عن رضًا وفرح ورغبة، ويُنقَّط ويُخلع عليه، فكلّ ليلة هو في عرس جديد وعطاء جزيل، شبعان نشوان، مسرور متنفس(٢)، مخطوب محبوب، مطلوب إلى بستان كالجنان، أو قاعات يروّق(٣) الطرفَ منظرُها، فيها صنوان وغير صنوان، وروح وريحان.

بل ليته مثل نائب الشرابجي؛ يكتسب من الكشكال(٤) إلى ضحى نهار دينارين، بل ليته كالبزّاز الذي في حارتنا؛ حاسبته على كسبه في ساعتين بكرة وعشيّة فكان عشرة دراهم، وهو لا يتكلّم كلمة واحدة، بل له ولا صلف أمير، وباقي النهار دكّانه مغلقة.

---

(١) تحنك في الكلام: تأنق وجمع ورتب ونظم. (تكملة المعاجم).

(٢) بالأصل ملنفس. ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٣) على الحاشية بغير خط: يريق.

(٤) كشكل، وكشكول: فارسية وجمعها كشاكل؛ كأس الشرب الذي يستخدمه الدراويش والمتسولون. (تكملة المعاجم).

[١٢٢/و] بل ليته كصاحب القفص[١] الذي اجتمعتُ به فشكا إليّ مرضاً، فقلت: انقطع يومين في البيت لشُرب دواء، فقال: ما أقدر أترك المعيشة، فقلت: أنا أعطيك عن اليومين أربعة دراهم؛ فأكثر ما تكتسب كلّ يوم درهمين، فضحك جدّاً، وسألته عن السبب فحلف أنّ أقلّ مكسبه في اليوم خمسة عشر درهماً، وهو جالس بين **القصرين**[٢] في أطيب المواضع وأبرجِها[٣] وأمرجِها، تقلّب يده الذهب والفضّة واللؤلؤ والفصوص التي تشرح القلب وتسرّه، لا كصاغرة[٤] حُميّد، وقارورة عُزيّز.

ولا أقول ليته كالكاتب؛ إذا لاطفه العامل بصرّة ذهب وفضّة تأفّف واستقلّها، أو كالتاجر الذي [١٢٢/ظ] إذا كسب في الدرهم درهمين، وفي الألف الألفَيْن قال: «أنا خاسر». أو كالبزّاز الذي إذا كسب في يومه مائة درهم قال: «ما استفتحت»، وهو جالس على نطع، ومتّكئ على مخدّة.

---

(١) لعله قفص المجوهرات.

(٢) هما القصر الكبير الشرقي، وهو منزل سكنى الخليفة، والآخر تجاه هذا القصر ويعرف بالقصر الغربي، وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة، وللجامع جامع القاهرة، والجامع الأزهر. وأما القصر الصغير الغربي فإنه موضع المارستان الكبير المنصوري، وبين هذا القصر وبين القصر الكبير الشرقي فضاء متسع يقال له بين القصرين. (الخطط المقريزية ج٢ ص ٢٨).

(٣) بالأصل وأبرهها.

(٤) الصاغرة: يقولون لهذا الإناء من الخزف الذي يُتطهّر فيه: صاغرة، بالغين، وإنّما هو صاخِرة، بالخاء قبل الراء. (تصحيح التصحيف).

ولقد بلغني أنّ بزّازاً معروفاً كسب إلى الظهر يوم السوق عشرين ديناراً، ثمّ أغلق دكّانه وأتى إلى بيته يأكل طعاماً حسناً، ويشرب ماءً بارداً، وتحفّف[١]، ونام في القائلة تحت بادهنج[٢] طيّب، وانتبه وعزم على أن يستريح بقيّة نهاره في البيت، وضجر وقال: كم تعب. فأتاه زبون إلى البيت وألجأه إلى معاودة الدكّان، فلمّا فتح دكّانه [١٢٣/و] أتاه ثلاثة نفر من أعيان الجند فاشتروا منه ستة ثياب من الأطلس، فكسب فيها مائة وثمانين ديناراً، كان مشتري كلّ ثوب في الرخص بستمائة درهم، باعه بألف درهم، فاجتمع في كسبه في يوم مائتا ديناراً.

بل ولا أقول كالعطّار الذي باع بمائة درهم كان كسبها ثلاثين درهماً، بل ولا أقول كالجزّار الذي يبيع خمسة رؤوس من الغنم يكسب فيها ثلاثين درهماً، بل ولا أقول كرمضان الطبّاخ الذي حلف أنّه كان يبيع عشيّة خلصه سبعين سختوراً يكسب فيها ثلاثين درهماً، ويكسب بقيّة النهار سبعين.

وحُكي لي أنّ الطبّاخ الذي بباب القنطرة [١٢٣/ظ] يكسب أكثر من ذلك. وحسبك أنّ أجرة دكّانه مائتا درهم، وعنده صبيان أجرتهم ومؤنهم مائتا درهم في الشهر، فلو بلغ ذلك **بختيشوع**[٣] لانقطع حسرة وحسداً.

---

(١) تحفف: تزين. أحفى لحيته وخففها. (تكملة المعاجم).

(٢) بادهنج، وبادنج: فتحة أو أنبوب شبيه بالمدخنة يتخذ للتهوية (تكملة المعاجم).

(٣) بختيشوع وسلالته البخاشعة جبرائيل وعبد الله، من أطباء بني العباس.

وقد جاء في كتاب أنّ طبيباً من الأطبّاء[١] ممّا يدلّ على أنّ الأطبّاء في القديم نالوا نعمة جليلة، إلّا أنّا نحن لم نحصل على أخبار كأخبار **البرامكة**[٢]، **ومعن بن زائدة**[٣]، **وأبي دلف**[٤]، وشعرائهم. فحاليّاً اليوم عند المستطبّين كحال شعراء **العمَقة**[٥] عند الممدوحين، ينزلون منزلة المكال به الأثقال.

وأمّا قصّة الإسكاف الذي مرّ به **المهذّب الدَّخوار**[٦] بدمشق [١٢٤/و] وهو يضرب ابنه ويقول له: «والله يا ابن الفاعلة لأعلمنّك طبيباً»، فوقف المهذّب وقال: «يا شيخ، والطبيب صار تهديداً»، فقال: «أوَ ما علمت ذلك»؟ قال: «لا، وكيف ذلك»؟ قال: «يقوده صغير، ويدخل به إلى حيث يخاف، ويستعمله في أمر خطر، ويخرجه بغير أجرة، ويثني عليه شرّ الثناء».

---

(١) كذا بالأصل، ولعل في العبارة نقصاً.

(٢) نسبة إلى يحيى بن خالد بن برمك (١٢٠- ١٩٠هـ) بزمن الرشيد حيث استوزرهم ودامت مدة دولتهم وسلطانهم سبعة عشر سنة (مروج الذهب للمسعودي ج٢ ص ٢٨٢، والأعلام للزركلي ٨/ ١٤٤)..

(٣) معن بن زائدة الشيباني (١٥١هـ): من أشهر أجواد العرب. (الأعلام ٧/ ٢٧٣).

(٤) أبو دلف العجلي (٢٢٦هـ): القاسم بن عيسى من بني عجل، أمير الكرخ وأحد الأمراء الأجواد الشجعان. (الأعلام ٥/ ١٧٩).

(٥) العمَق واد في ديار بني نمير، لهم به ماءة يقال لها العمَقة. (تاج العروس، ومعجم البلدان). والعمَقة في اللغة: اللطخ والوضر (المخصص لابن سيده).

(٦) هو عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي المعروف بالدخوار؛ أي صاحب الصف، (٦٢٨هـ).

ولقد كنت قبل مزاولة الاكتساب بالطبّ أطابق المتقوّلين والمهوّرين والفشارين[(١)]، على أنّ أبا الحسن الطبيب المعروف **بابن صغيّر**[(٢)] يكسب ـ لشهرته ـ كلّ يوم أكثر من خمسين درهماً، ويلحق خمسين بيتاً، فلمّا اشتهرتُ وطُلبتُ لمداواة الخاصّ والعامّ؛ كنت في الفصول [١٢٤/ظ] الوبائيّة أخرُج بكرة فأطوف على الدابّة إلى المغرب ولا أوفي عشرة بيوت إلّا بجهد، ولا يضعوا لي من العسر[(٣)] خمسة دراهم، ولا يبلغ وزنها أربعة دراهم.

ولقد طفت يوماً من بكرة إلى عشيّة فلم يخلص لي أكثر من ثلاثة دراهم عدداً، لِما صادفني من بيوت الأكابر والأصحاب، فلقيت أبا الحسن وقت المغرب **بالمُناخ**[(٤)] راكباً، فقلت: «إلى هذا الوقت»؟ فقال: «وما نزلت إلى بيتي، ولا أكلت ولا شربت»، فمازحته وقلت: «المكسب حلو، وأقلّ ما لُحتَ على خمسين»، فأخرج منديله وحلف بالتوراة أنّه لم يكتسب أكثر من درهم، فقلت: «ما يقول الناس كذا»، [١٢٥/و] فقال: «اسمع قصّتي وترتيب حالي لتعلم أنّ الناس يتحدّثون بغير قياس؛

إنّما النهار اثنتا عشرة ساعة»، قلت: «نعم»، قال: «ما أخرج من بيتي إلى آخر

---

(١) الفشار: هو المزعبر والممخرق. (تكملة المعاجم).

(٢) ينظر السديد الدمياطي اليهودي ويعرف بابن كوجك (صغير)، وينظر فرج الله بن صغير، وكلاهما درسا الطب على ابن النفيس (٦٨٧هـ). (مسالك الأبصار ج ٩ ص ٣٦١- ٣٦٢).

(٣) لعلها بالأصل الغير.

(٤) المناخ في ميدان ابن طولون (الخطط المقريزية).

الساعة الأولى لكي يجتمع إلى الباب من يطلبني، ولئلا يأتوا ولا يصادفوني»، قلت: «نعم»، قال: «ثمّ أخرج فأجد على الباب من صعاليك الناس عدداً كبيراً، فمتى ركبت ولا أقضي حوائجهم ضجروا[1] وصرخوا عليّ، فتمرّ ساعة أخرى وأنا أستقرئ أمراضهم، وأرفع قواريرهم، وأكتب لهم الأوراق.

ثمّ أركب، فيحاذيني واحد من الحسينيّة، وآخر من الهلاليّة، وواحد من مصر، وآخر من كوم الريّس [١٢٥/ظ] أو المنية، وواحد من باب البرقيّة، وآخر من باب البحر[2]، يتّفق ذلك في أكثر الأيّام، فبينما أُرضي البعض وأصرف البعض يصير نصف ساعة، ثمّ أمضي إلى كوم الريّس أو إلى الحسينيّة، وأجلس عند المريض، وأعود في ساعة ونصف، فقد مضت أربع سواعي[3] في بيت واحد، ثمّ أمضي إلى الهلاليّة وإلى مصر في أكثر من ذلك، وينقضي نصف النهار في بيتين.

وجعل الله نصف النهار الآخر بحيث لا آكل ولا أزبّل خفية، مع من يمسكني في الطريق فأطبّه وأكتب له، ومع زحمةٍ أتعوق لها ساعة، ومع رئيس أمرّ به أترحّل [١٢٦/و] له وأجلس عنده ساعة، ومع دخولي إلى بيت لأطبّ مريضاً فآخذ غير ساعة.

فمع هذا السعي والعجلة ليس يسع غير عشرة بيوت، فأكون قد حصّلت منها عشرة دراهم، وربّما ثمانية أو أقلّ، أُخرِج منها للغلام والداية درهمين، والخبز أربعة دراهم، لأنّ عندي عشرين من العائلة، يفضل درهمان ماذا نأكل بهما مع الخبز؟

---

(١) كتب فوقها بغير خط: ضجوا.

(٢) كل المناطق التي ذكرت هي من القاهرة.

(٣) كذا.

وبماذا نكتسي؟ وأنت في حلّ من السنين[١] وأيّام الكساد، ولو كنت على حمار أفْرَه الحمير وليس لي شغل قط سوى أن أدخل بيتاً بيتاً فأسلّم على أهله وأخرج، وهي بهذا التباعد لما لحقت عشرين بيتاً [١٢٦/ظ] في النهار، إلّا أن يكونوا اجتمعوا لي في حارة واحدة، وذلك مُحال».

«اسمع ما جرى لي في هذا النهار[٢]؛ خرجت بعد الثانية[٣] كالعادة، وسُقت إلى مصر إلى دار قاضي القضاة، فجلست حتى أذِن لي فدخلت، فقال: اجلس حتى يحضر فلان الطبيب من مصر، فحضر فاستقرّ بنا الحال وقضينا ما يجب، وخرجت فحملني بعض أصحابه إلى بيته، فما انفصلت من مصر رواحاً ومجيئاً وجلوساً إلى قريب الظهر.

ثمّ جئت كالمجنون إلى بيت الكريمي[٤] فوجدت خلقاً، فشتموني على غيبتي، فصبرت وجلست، ولم أُنْفَ[٥] من الشتم، لأنّ ذلك قد صار عادة، وذلك أنّ كلّ مريض دخلت إليه بعد ثلاث ساعات [١٢٧/و] من النهار يشتمني، وهو معذور، وأنا فلا يمكنني أن أجمع هذه البيوت المتباعدة في ثلاث ساعات، فأمّا إذا أبطأت إلى العصر فيحلّ بأعدائك ما يحلّ بي.

فلمّا أذن لي على الكريمي دخلت، فأعرض عنّي ساعة، وبعد الجهد أدار وجهه

---

(١) بالأصل السنون.

(٢) مازال الحديث لابن صغير.

(٣) لعله التوقيت العربي حيث المغرب في الساعة الثانية عشرة دائماً.

(٤) كتب فوقها بغير خط: خائفاً.

(٥) أنف: أبعد (لسان العرب).

إليّ، وأطلتُ المقام لأسترضيه، فخرجت من عنده قريب العصر، وهذان بغير درهم.

ثمّ خرجت كالمجنون عسى أن ألحق البيوت التي يحصل لي فيها ما أنفقه، فصادفت رسولاً من عبيد ابن النابلسي، فأمسكني ولم أقْدر أن أتخلّص منه، فردّني إلى مصر إلى رأس الخليج، فعدت من عنده إلى بيت أخذت منه [١٢٧/ظ] هذا الدرهم في هذا الوقت، وعسى أن يُحصّل من هذا المناخ درهمٌ آخر»[١].

فسألته عن البيت الذي يقصده فوجدته البيت الذي أنا قاصده، فلمّا توجّهنا إليه لم يعطونا شيئاً. فهذا أعظم الأطبّاء شهرة وهذه حاله، مع ما يكابده من كلّ ما وصفْته وأضعافه من الذلّ.

وإنّما ذكرت أقلّ ما يلقاه الطبيب خشية من الإطالة، فقد بان لك أنّ هذه الصناعة يقتضي لدابّها أن يعلم ما حسنها المهانة والذلّة والانطراح، وكلّ ذلك يذهب المروءة، لترفع نفسك عن هذا الهوان، وبالله المستعان.

وهنا فلنختم هذا الباب إن شاء الله تعالى



(١) انتهى كلام ابن صغير.

[١٢٨/و]

الباب الثاني
في أنّ الاكتساب بالطبّ
يذهبُ بالحياءِ

اعلم ـ كساك الله حللَ الوقار ـ أنّ أحسن صفات الإنسان الحياء؛ فإنّه يدلّ على وجود العقل الذي يستقبح القبيح فيخجل، وهو مع ذلك يُكسبُ[١] الإنسانَ رونقاً ووقاراً وجلالة، ويصونه من الإقدام على قبيحٍ أو دناءةٍ، ولذلك قالت الحكماء: «إذا رأيت الصبيَّ قليل الحياء فلا ترجُ منه خيراً»، وقالوا: «إذا لم تستحِ فاعمل ما شئت»[٢].

والحياء يجعل الوجهَ ذا بشر وبشاشة، يترقرق ماؤه، وينطق عليه خفَرُهُ[٣]، فإنّ

---

(١) بالأصل يكسبوا.

(٢) بل هو حديث لرسول الله ﷺ: «آخر ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» (ينظر كشف الخفاء ج١ ص١٤- الحديث رقم ٤)، وعقب عليه المؤلف قائلاً: وما أحسن ما قيل:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

أما تفسير الحديث فنراه في (كتاب بغداد لابن طيفور ص٩٦) عن المأمون قال: تفسير حديث «إذا لم تستح فافعل ما شئت» إنما معناه: إذا كنت تفعل ما لا يُستحى منه فافعل ما شئت.

(٣) الخفَر: شدة الحياء. (كتاب العين).

الوجه[١] بمنزلة الكسوة الحسنة للبدن. وتجد صاحب القِحة[٢] قحل الوجه، [١٢٨/ظ] جامد العين، لا نداوة لوجهه، فهو بمنزلة عودٍ أخضر قد سلخت عنه لحاءه، فهو مستعدّ للتشقّق والذبول. وفي ذلك يقول حبيب[٣]:

يعيشُ المرءُ ما استحيَا بخيرٍ ويبقَى العودُ ما بقيَ اللحاءُ

فلا والله ما في العيشِ خيرٌ ولا الدنيا إذا عُدم[٤] الحياءُ

وصناعة الطبِّ صناعة تقتضي للاكتساب بها لذاته ذهاب الحياء من وجه صاحبها، وذلك أنّه يكتسب ما يكتسبه المكاديّة[٥] من القِحة في طرقهم الأبواب؛ فلا يزال واقفاً على باب وطارقاً له، فهو سائل وطالب، وإن تستّر [١٢٩/و] بأنّه مطلوب، والحقّ أنّه طالب الدرهم، وهو يعلم أنّه إذا طرق باب المريض وقال: «الطبيب»؛ حصل لأهل البيت الانقباض بسبب الغرامة، وتحيّلوا في تهيئة الدرهم قبل دخوله، وربّما قالوا: «كم دراهم يأخذها هذا الطبيب ولا نرى المريض يتقدّم شيئاً»، وربّما حملهم ذلك على أن يقولوا: «والله ما تمّ طبيب إلا الله، ولو أنّكم توكّلتم على الله في أمر المريض واسترحتم من هذه الغرامة كلّ يوم[٦]». وما تمرّ إلا وهم

---

(١) فإن الوجه: مصححة بغير خط؛ فهو للوجه.

(٢) القحة: هي الوقاحة.

(٣) القول لأبي تمام: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (١٨٨- ٢٣١هـ). ينظر شرح ديوان أبي تمام ج٢ ص٣٣٨.

(٤) عدم: في شرح ديوان أبي تمام؛ ذهب.

(٥) المكدي: الشحاذ، المتسول. (تكملة المعاجم).

(٦) زاد بغير الخط: في الربح.

يقولون[(١)]: «إن الأطبّاء يحيون الميّت؟ وهذا كفر، الله يغفر لنا بعدد من يبرأ من مرضه بغير طبيب ولا شراب البتّة، أبصرتم العرب وأهل الريف يتداوون بطبيب؟ [١٢٩/ظ] ومع ذلك يدبّرهم الله ويعافيهم، يا أخي إن كان ولا بدّ من الطبيب قولوا له يحضر يوماً بعد يوم، أو بعد يومين، وإلّا فهذا فقر، يجيء واحد يقول كلمتين والله يدري هل تنفع أم لا يأخذ درهماً ويخرج».

هذا والطبيب يشعر نفسه بأنّهم يقولون ذلك، وربّما سمع بعضه ولاح له من وجه من يخرج له على الباب. وربّما خرج واحدٌ فسأله وقال: «قلتَ لهم: الطبيب»؟ فلا يجيبه بكلمة، وربّما يسمع ذلك من تردّدهم وانقباضهم. وإذا استحيوا وأدخلوه إلى المريض ظهر له منهم الانقباض.

وهو مع ذلك لا يستحي ولا يخجل، [١٣٠/و] ولا يردّ وجهه عن ذلك البيت ولا عن بيت آخر يعلم أنّ أهله أبخل من أولئك، وأنّهم يقولون أبخس ممّا قالوه، ولو استحى في مبادئ تصرّفه علّمته الحاجةُ الجلدَ على ذلك إلى أن ينسى الحياء البتّة.

وتراه أوّل ما يطبّ ويتّفق له أن يموت على يديه مريض؛ يخجل أشدّ الخجل من لقاء أهله، وإن دُعي لذلك البيت[(٢)] اختفى ولم يذهب لفرط الحياء منهم، كأنّه قد قتل صاحبهم، ويرى أنّ الموت ـ وإن كان بيد الله سبحانه ـ إلّا أنّه اتفق وقوعه بحضرة غُرّته السعيدة، ومعالجته الجميلة.

ثمّ ينحلّ هذا الحياء منه مرّة بعد مرّة، إلى أن يُدعى لمريض آخر في [١٣٠/ظ] بيت ذلك الميّت، والميّت بعدُ طريح، والصراخ عليه قائم، ويكون موته وقع تلو

---

(١) إضافة من المحقق.

(٢) البيت: غير موجودة بالأصل، وأضيفت بقلم مغاير.

علاج له؛ كمسهلٍ أفرط، أو فصدٍ أضعفَ، فيجيب الداعي، ويمضي إلى ذلك البيت، ويدخل بين الصارخين والصارخات، فيسمع التقريع والقمقمة عليه، ولا يطرق بوجهه، وربّما كابرهم بشيء أعطوه بغير رأيه، ولو كان خطّه به مرتهناً[(١)]، وربّما واقحهم وقال: «متى سقيتموه هذا»؟ قالوا: «بكرة»، قال: «أنا ما أشرت به إلّا منتصف الليل»، ثمّ وصف للمريض ما وصف، ووقف على الباب ينتظر الدرهم.

ولقد شاهدت طبيباً حضر إلى مريض عزيز على أهله، فوجده مات في ذلك اليوم، وكان قد سقاه شيئاً [١٣١/و] نهَى عن سقيه جماعةٌ من الأطبّاء غيرُه، وأنذروا فيه سقوط القوّة، فسقاه ومات بعده، فعندما رأوه قاموا في وجهه وصرخوا: «يا حكيم، ما قالوا لك لا تسقِهِ هذا! كأن في قليل حقداً منّا حتى قتلته»؟ وهو مع ذلك لا يخجل، بل يكابرهم ويقول: «أنا علمت أنّه يموت»؟ فقام[(٢)] شيخ الجماعة فزجرهم عنه وقال: «هذا أمر الله، ما لأحد فيه حيلة»، ثمّ حلّ طرفه فأعطاه درهماً، فأخذه وخرج، فقال لبعض الغلمان: «هذا الدرهم خفيف». **فهل يبقى مع هذا الخُلق حياء**، فيا ليته يعمل بوصيّة الحريري للّصوص إذ يقول[(٣)]:

فـخـيـرُ مـا لـلّـصّ ألّا يُـرى ... ببقعةٍ [١٣١/ظ] فيها له عُمْلَهْ

وربّما مرّت به الجنازة فتقول المرأة: «يا ولدي، ما هذا طبيبك»؟ وهو لا يخجل.

وأمّا قِحة الأطبّاء بعضهم على بعض؛ فإنّك لا تجد مثلها من بين أهل صناعةٍ

---

(١) ولو كان خطه به مرتهناً: هذه العبارة أضيفت من المصحح بخط مغاير على الهامش.

(٢) بالأصل قدام، ومصححة كذا بخط مغاير.

(٣) ينظر شرح مقامات الحريري (ج٥ ص ٢٠١).

أخرى، ولا المشاعليّة، حتّى إنّ المشاعلي إذا قاولته على قناة كنيف[1] يفتحها، ونظّف منها قفّتين فقط، ثمّ أراد أن يتشرّط ويتقاعد في الأجرة، وتركها ومضى؛ فإنّك لا تجد أحداً من طائفته يدخل على شغله أبداً ـ مروءة بينهم.

والأطبّاء، فلو صُرف جالينوسهم، وأُحضر أقذرهم؛ فأوّل ما يستفتح به بلتّ[2] ذاك الجالينوس، وذمّه، وقذفه بالجهل، ومهما قيل له: «إنّه كان داوى [١٣٢/و] هذا المريض بكيت وكيت»، قال: «هذا خطأ وغلط»، وسَلم أن يقتله.

وإذا اجتمع بينهم اثنان أو جماعة عند مريض لم تجدْ لهم أخلاق الناس في الاتفاق على المصلحة؛ فيقول أحدهم للآخر كما يقول البنّاء للبنّاء: «يا معلّم، أيّ شيء تقول، ما نضع الأساس على صورة كذا، ونقسم الدار على صورة كذا»؟ فيقول: «بلى يا معلّم، والمصلحة أن نفعل مع ذلك كذا وكذا». بل إذا اجتمعوا كأنّهم ديوك قد أُحضروا للنقار، أو كباش للنطاح؛ فكلّ واحد منهم «**مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعَ، ومُجْرَمِّزٌ سَيَمُدّ الباع**»[3]، إذا قال صاحبه: «نسقيه الماء البارد»، قال: «تقتله»، وربّما

---

(١) قناة كنيف: بالأصل؛ كنيف قناة.

(٢) ألَت يألِت: ينقصه حقه. (العين).

(٣) العبارة في (شرح مقامات الحريري ج١ ص ٢٢٥)، وقال الشارح: مخرنبق: متهيئ. لينباع: لينهض، وفسره أبو عبيد في الأمثال فقال: المخرنبق: المطرق الساكت. لينباع: ليثب إذا أصاب فرصة، قال: ومعناه أنه سكت لداهية يريدها. وقيل: المخرنبق: الساكت على السوء. لينباع: ليظهر الذي في ظنه من الشر. مجرمز: منقبض، وهو كقول النابغة:

(وقلت يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنه للوثبة الضاري)

والضاري: من وصف الليث. فأخذه ابن الرومي فقال:

(سكنً سكوناً كان رهناً بوثبة ... غِماس كذاك الليث للوثب يلبُدُ)

تواقح وقال: «حارّ عليه»، [١٣٢/ظ] وأوهم الحاضرين أنّه يعرف فيه ثقلاً بأنّه حارّ.

وكلّ ذلك بعلمه أنّ أهل المريض لا يستعملون طبيبين، فمتى لم يتواقح ليوهمهم أنّه أحذق من صاحبه خاف أن يُصرف، فهو يتجرّد للمواقحة والمكابرة ولو كان رفيقه شيخه الذي أقرأه، كابره وغمز عليه وأوهمه أنّ الصناعة شابّة.

وحكى لهم في غيبته تلك الحكاية الهذيانيّة؛ وهي أنّ **أفلاطون** قوّر قحف إنسان به سرطان، فوجد السرطان قد تشبّثت أرجلُه بمخّه، فأراد أفلاطون أن ينزعه بيده، فصرخ تلميذه **أرسطوطاليس** وقال: «لا يا معلّم، لا تفعل هذا لئلا تفسد المخّ»، فقال: «فكيف يكون»؟ فتقدّم أرسطوطاليس [١٣٣/و] وأحمى ميلاً، ولذع به رِجْلاً بعد رِجْل من أرجل السرطان، وكلّما رفع رجلاً وضع تحتها قطنة، ثمّ جذبه وقد تخلّص منه الدماغ، ويظنّون[1] أنّ ذلك صحيح.

وكذلك إن ظفر الشيخ بغيبته قال لهم: «هذا صبي، عُمر وأنا أقرئه، وأعلم أنّه لم يتقن الصناعة، بل تزكّى بالجاه وبالرِّشا، وإلّا فكان يريد أن يقرأ عشرين سنة أخرى».

ويحكي لهم حكاية الجرائحي الذي كان له تلميذ قد علّمه، فبغى عليه وفتح حانوتاً قبالته، وأفسد زبونه، وضيّق عليه؛ واتّفق في بعض الأيّام أن حضر إليه نوبيّ غليظ الرقبة ليفصده، فلمّا فصده انقصف المبضع في ذراعه ـ وكان مثل ذلك [١٣٣/ظ] قد وقع لمعلّمه مع بعض الرؤساء، فصفع معلّمُه ذلك الرئيس صفعة عظيمة غاضبه بها، فغلى دمه وخرجت قطعة المبضع من ذراعه.

فتذكّر الصبيّ ذلك وصفع النوبي صفعات وهي لا تخرج، فأخذ النوبيّ بأطواقه

---

(١) بالأصل وظنون.

وقال: «ما يكفيك أتلفت ذراعي ثمّ تصفعني»؟ فدفع في طلبه[1] واستغاث بمعلّمه، فقال له: «تتوب من سوء فعلك»؟ قال: «نعم».

فأقبل معلّمه على النوبيّ ـ وكان عليه قميص جديدٌ قد لبسه ليتباهى به على النُّوبيّة، فشقّه من طوقه إلى ذيله، واغتاظ غيظاً مفرطاً، وبرزت الريشة من يده، وأعطاه ثمن القميص، وقال لتلميذه: «هذه فائدة [١٣٤/و] الشيخوخة والتجربة أن تضع كلّ شيء في مكانه»، والنوبي لا يجزع من الصفع كما جزع ذلك الرئيس.

وحسبك من قِحة الأطبّاء ما جرى من هاشم غلام **أبي سعيد طبيب أحمد بن طولون**؛ فإنّ هاشم هذا كان رجلاً ركّاباً لأبي سعيد، فاتفق أنّ أحمد قال يوماً لأبي سعيد: «يا أبا سعيد، إنّ أشغالك كثيرة والحاشية(...)[2]، وليس لك وقت تنظر فيه في مصالح الخدم، فارصد لهم واحداً من أصحابك الموثوق بهم».

وكان لأبي سعيد ولد حسن الصورة[3] كأنّه الغصن لمّا دب عذاره، فأحضر بين يدي أحمد وعليه ملابس حسنة تأخذ بالبصر، وقال: «يا مولانا، هذا [١٣٤/ظ] ولدي وقد تعبت عليه وربّيته أحسن تربية، وهو كثير الحياء والعفاف والأدب، مُحصّل لصناعة الطبّ، حريص مجتهد»، فأقبل عليه أحمد وقال: «عجيب من عقلك يا أبا سعيد»! فقال: «ولمَ أيّها الملك»؟ قال: «إنّ هذا الشابّ إذا أبصرتْه الرجال افتتنوا بجماله وزيّه، فكيف يحسُن دخوله على النساء؟ وإنّما يجب أن يكون في مقابله هذا من القبح».

---

(١) فدفع في طلبه: بالأصل؛ فرفع في تلبه.

(٢) بياض بالأصل لمكان كلمة. وقد لا يكون.

(٣) القصة في عيون الأنباء (ج٢ ص٨٣) في ترجمة سعيد بن توفيل (توفي سنة ٢٦٩هـ).

فخشي أبو سعيد على نفسه أن يدخل معه بغريب، وكان هاشم غلامه أقبح الناس منظراً، أسود اللون، كالحه، جاحظ العينين، كبير الأنف، غليظ الشفتين، كبير الرأس، طويل الوجه، [١٣٥/و] فألبسه أبو سعيد لباس الأطبّاء، ولقّنه شيئاً من كلام أبقراط وغيره، وأوصاه أن يحفظ ما يُشتكى له من الأمراض، ويشغل الوقت بما لا يضرّ ـ كشراب الورد وغيره ـ إلى أن يجتمع به فيعرّفه ما يصفه.

فما مرّت على هاشم إلّا أيّام قلائل حتّى تدرّب، فأقنع برأيه، وحصّل من الحريم لنفسه مالاً جزيلاً، ووافق أغراضهن، ومزج الطب بالبسط ـ على قبح صورته، فاستظرفنه وأغدقْنَ عليه بالعطاء، وسلَيْن أبا سعيد، وربّما أشعرن أحمدَ بأنّه أحذقُ من أبي سعيد، وأنّ يده على المريض خفيفة، ووجهه مُنازِل.

واتفقت مرضة أحمد الذي مات فيها بالذرب فكان [١٣٥/ظ] يشتهي **الزلابية والعصيدة**[١]، وأبو سعيد يمنعه منهما، فلمّا غلبتْه شهوته أمر بحضور هاشم إليه، فاستشاره في الزلابية والعصيدة، وأنّه يشتهيهما، وأنّ أبا سعيد يمنعه، فحلف أنّ أبا سعيد جاهلٌ، وأنّ الزلابية والعصيدة لا تضرّ الملك، فأعجبه منه الترخيص مع ما تقدّم من شكر الحريم له، ونفرَ من أبي سعيد، وقدّم هاشم عليه في المجلس، وجمع بينهما، وقرّع أبا سعيد بمنعه له من شهوته التي لا تضرّ، وهاشم ينفخ على أبي سعيد ويكابره في أنّ العصيدة والزلابية لا تضرّان. فلازم أكلهما حتّى أفرط به الذرب وأشرف على [١٣٦/و] الموت. وحصل هاشم على نعمٍ جزيلة، وكان من قبل أبي سعيد ما كان.

(١) زَلابية: زلبيا، حلواء تصنع من عجين رقيق، تصب في الزيت وتُقلى، ثم تعقد بالدبس أو السكر .عَصِيْدة: دقيق يُلَتّ بالسّمن ثمّ يُطبخ. (اصطلاحات الطب القديم).

وإذا تأمّلتَ الأطبّاء لم تجدْ واحداً يتأدّب مع آخر، ولا يُسرّ بدخوله معه ولو كان العطاء واحداً والمنفعة عامّة، بل إذا كان طبيبٌ عند مريض ودخل طبيبٌ آخر انقبض كلّ واحد من الآخر، واصفرّ لونه، واعتدّ للقتال، والغالب منهما من كانت قِحته[1] أكثر وإن لم يكن علمه أوسع، ولو كان أعلم الناس لم ينتفع به هناك[2]، ولا يحصل من جدالهم في آخر الأمر شيء ينتفع به المريض ـ هذا إذا أجمعوا.

ولقد يضحكني في غالب الأمر عقدهم المجالس عند المرضى [١٣٦/ظ] والكلّ حيارى، فلا المريض تطُول عبارته إلى وصف ما به الآن فضلة عمّا مضى، ولا أهله وحريمه بذلك الحزم ودقّة النظر، فيحفظوا جميع الأعراض والمداواة إلى تلك الساعة، والطبيب المباشر يتخفّى أكثر ما داوى به خوفاً من التنكيت لاحتمال الصناعة ذلك، ولا الجماعة يصغون إلى كبير منهم، كالشيخ يقول ثم يتلونه، بل تراهم يتسابقون في الكلام، ويتحدّثون حديثاً غيرَ مبنيٍّ على علامة أو عرض أو انتفاع واستضرار، فيخرجون كما دخلوا، لا بل يزيدون المريض هلعاً وخوفاً.

وأمّا إذا اختلف حضورهم؛ فإنّ المريض يقع في حيرة [١٣٧/و] عظيمة، إذ يرى كلّ واحد يطعن في علاج الآخر ويخالفه، فلا يدري ما يصنع. وأردأ من ذلك أن يصرف واحداً ويستطبّ الآخر في أوقات متفاوتة، ولا يدع الواحد يستمرّ وهماً بسبب المرض، ويتّسع بين يديه العلاج، فلا يعالجه إلّا محرّف، متحسّس المداواة على

---

(١) بالأصل: مناحته، ومصححة بخط مغاير في الحاشية: قحته.

(٢) كتب في الحاشية بخط مغاير: ولم تظهر غلبته للجهال من الجهالة بالطب ما لم نساعد ذلك (سطوه وجاءه) يتشاغبون ويتناقضون في المرض والعلاج حتى لا يحصل.

حقيقة المرض، ويوشك أن يجمع غلط الأطبّاء؛ كما قال ابن رشد: «وما يدخل أحد منهم بعد الآخر إلّا ويذمّه، ويقذفه بالجهل في غيبته».

ولو حضر لم يأنف من ذلك، وربّما واجهه عند المريض بما يؤدّي إلى عَطبه، فقال: «يا حكيم، من علّمك أن تعطي [١٣٧/ظ] في ليلة البُحران[١] أو في يومه، ومن رأيتَه يسقي المسهل والقوّة ساقطة، وهذا كان يصلح أن تصف له السَّنا[٢]، حتّى أوقعته بالزحير، وأعطيته المحمودة[٣] وكبده ومعدته وارمتان، وحقنته والورم في حدبة الكبد، وأسهلته والورم في المقعّر[٤]، وكان يجب أن تفصد في القولنج الورمي فأهملتَه، وظننتَ أنّ به قولنجاً وبه حصاة الكلية، وتوهّمت أنّ به ذات الجنب وهي ذات الرئة، وسقيته القوانص وبه دوسنطاريا كبديّة، ومنعته الإسهال وهو سَددي، وأعطيتَه البطّيخ والاستسقاء زقّيّ[٥]، والأشياء الحارّة [١٣٨/و] المفتِّحة والكبد حارّة».

هذا إذا كان قد أخطأ على الحقيقة، على أنّه لو أصاب لم يتخلّص منه وواقحه وكابره فقال له: «تسقيه مغلي عرق سوس على شراب السكنجبين وهو شديد

(١) **البُحران**، بالضم: استفراغ يعرض للعليل دفعة، بعد اضطراب وقلق شديد، إمّا بقيء أو خِلفة أو عرَق أو إدرار أو رعاف، ومنه بُحران محمود، ومنه بحران رديء. (للزيادة ينظر كتابنا اصطلاحات الطب القديم).

(٢) السنا نوع نبات منه السنا المكي. وهو مسهل معروف.

(٣) المحمودة: نوع نبات مسهل. وهي السقمونيا.

(٤) يقصد بحدبة الكبد، والمقعر؛ السطح المحدب الخارجي منه، والسطح المقعر الداخلي.

(٥) الاستسقاء Ascites وتجمع السائل في البطن بسبب تشمع الكبد وغيره، وفي الطب القديم هو ثلاثة أنواع: الطبلي والزقي والورمي.

العطش»؟ ويكون هذا العطش بلغمياً فحرّك غضب المريض وأهله، «وتُقدِّم الإسهال ـ وهو استفراغ جزئي ـ على الفصد وهو استفراغ كلّيّ»؟ ويكون المريض بجهله يحب أن يقدّم استفراغه قبل الفصد، فيوهمهم من ذلك ويؤخّر فصده وهو خُناق، ويكون النوع الذي لا يجوز الفصد فيه.

ويقول أيضاً في **المتشابهة**: «اعتقدتَ أنّه غشي وهو **اختناق الرحم**[١]»، [١٣٨/ ظ] «وأنّه اختناق الرحم وهو سُبات»، «وأنّه سُبات وهو شُخوص[٢]»، «وداويتها بمداواة لقوة التشنّج وهي استرخائيّة»، «وبه[٣] فرانيطس وهو لِيثُرغُس»[٤].

وربّما غالطَه[٥] **بالأسماء المترادفة** فقال: «ما هذا المرض **مانيا** كما تظنّ، بل الجنون السبعي»[٦]، «وما هو جذاماً بل داء الأسد أو **بادشناماً**»[٧].

---

(١) اختناق الرحم: هو مرض يصيب النساء فتظهر عليهن أعراض شبيهة بالصرع، وسببه طول العهد بالجماع. (اصطلاحات الطب القديم)

(٢) الشخوص هو مرض تكون فيه حالة المريض كحالة المبهوت لا يتحرك فيه شيء.

(٣) كذا بالأصل، ومصححة على الهامش بغير خط: وتوهمته.

(٤) فرانيطس هو التهاب السحايا Phrenitis. لِيثُرغُس (Lethargy): بكسر اللام وضمّ المثلّثة والغين معجمة؛ لفظ يوناني معناه النسيان، وهو للسرسام البارد البلغمي. (اصطلاحات الطب القديم).

(٥) بالأصل عالجه، ومصححة كذا.

(٦) **مانيا**: Mania، تيه العقل وهو الجنون، وهو الجنون السبعي، بحسب اللغة اليونانيّة، وهو أعمّ من داء الكلَب، لكن الأطبّاء خصّصوا داء الكلَب بالجنون السبعي الذي يكون مع لعب واستعطاف وضحك- كما ذكروا، وما سواه بالاسم العامّ هو المانيا، فالمانيا بحسب اللغة عامّ لداء الكلَب ولغيره من الجنون السبعي، وبحسب الاصطلاح؛ اسم لهذا النوع المباين لداء الكلَب. (اصطلاحات الطب القديم).

(٧) **البادشنام**: حمرة منكرة، تشبه حمرة من يبتدئ به الجذام، تظهر على الوجه وعلى الأطراف، =

وبالأسماء **المشتركة**[١]؛ فيقول للحاضرين: «هذا الحكيم يقول: إنّ هذا المرض يسمّى بسفايج، بالله سمعتم قط بهذا البسفايج غير الأشتيوان[٢] وهو دواء معروف».

وصناعة الطبّ صناعة محتملة للتنكيت[٣] لأنّ العلاج الصحيح ليس بمستوفى، لخفاء بعض أسباب [١٣٩/و] المرض أو أعراضه، ولأنّ كلّ دواءٍ لا يخلو من مضرّة؛ ولو سقى السكّر قال: «أما تعلم أن السكّر يستحيل إلى الصفراء»؟ أو إن سقى سكنجبيناً[٤] قال: «يؤذي المعدة والعصب»، وإن سقى شراب الورد قال: «يعقل الطبع وهو مكتوم»، أو قال: «فيه قوّة مسهلة وهو مسهول»، وإن سقى شراب الرمّان قال: «ينفخه»، أو إجّاص قال: «يوحل معدته»، أو إهليلجاً قال: «يسهل بالعصر»، أو صبراً قال: «يضرّ بالأمعاء»، ولو سقى الماء البارد قال: «يطفئ الحرارة الغريزيّة فيمن حرارته ضعيفة». **فبمثل هذا يتواقح بعضهم على بعض.**

= خصوصاً في الشتاء، وفي البرد، وربما كان معها قروح. Lupus. الجُذام، بضم الجيم: مشتق من الجذم؛ وهو القطع، وهو علّة رديئة، يفسد فيه مزاج الأعضاء، وتتغيّر هيئاتها، وربما تفرق اتّصالها في آخره. وهي علّة يتناثر معها الشعر أولاً، ثم تسقط الأطراف أولاً فأولاً، كذلك إلى أن يموت العليل، ويسمى داء الأسد .Leprosy (اصطلاحات الطب القديم).

(١) بالأصل المترادفة، ومصححة كذا.

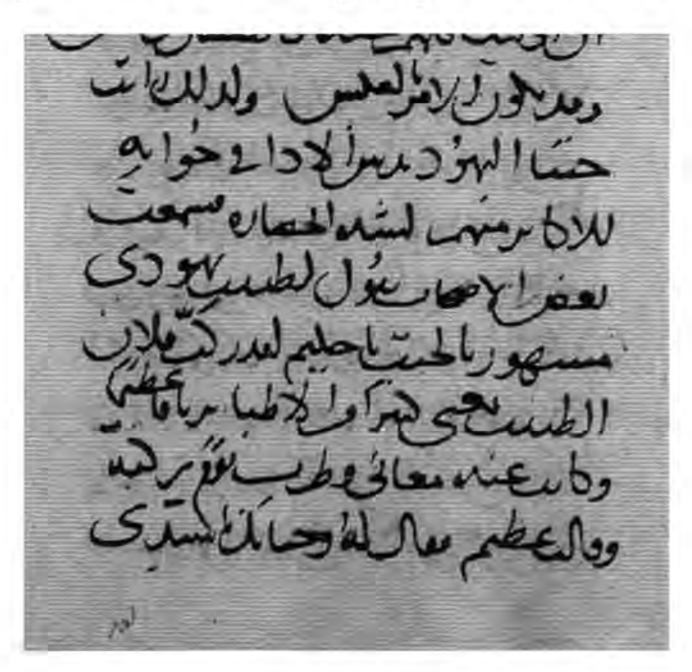
(٢) بسفايج (فارسية)، أشتيوان (بربرية): نبات يسمى كثير الأرجل، Polypodium Vulgare. (عيسى: معجم النبات ص ١٤٦).

(٣) لعلها كذا. النكتة: من أحد معانيها المصادفة، أو المغامرة الغريبة. (تكملة المعاجم).

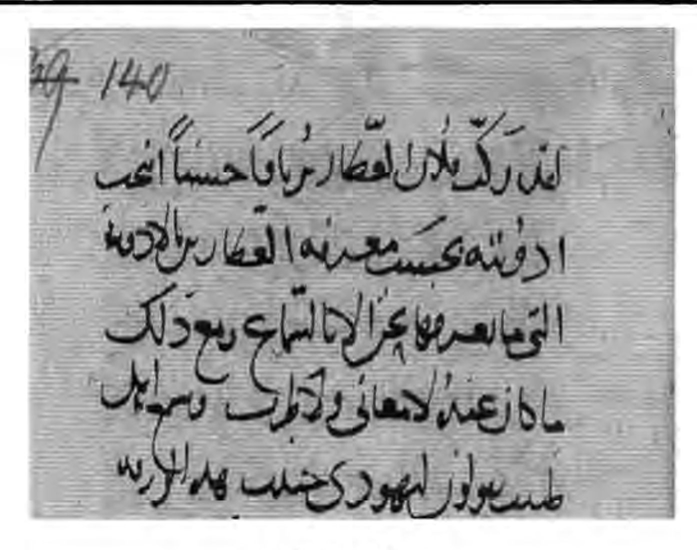
(٤) **سِكنجبين**: بالكسر، هو الشراب المتخذ من الخل والعسل.

وإن كان أحدهم أكبر [١٣٩/ظ] قدراً ترأَّس على الباقين وقال لبعضهم: «أهكذا تجسّ النبض»؟ وقال لآخر: «لا تحرّك القارورة»، وقال لآخر: «خذ ورقة واكتب»، ويُظهر للحاضرين أنّ أولئك كلّهم عنده كالصبيان والمتعلّمين.

وقد يكون الأمر بالعكس، ولذلك رأيت خبثاء اليهود يدسّ الأذى في خُوانِهِ[1] للأكابر منهم لشدّة احتقاره. فسمعت بعض الأصحاب يقول لطبيب يهودي مشهور بالخبث: «يا حكيم، لقد ركّب فلانٌ الطبيب ـ يعني كثيراً من الأطبّاء ـ ترياقاً عظيماً، وكانت عنده مغاني وطرب يوم ركّبه وقالب عظيم»، فقال له: «وحياتك يا سيّدي [١٤٠/و] لقد ركّب فلانٌ العطّار ترياقاً حسناً، انتخب أدويته بحسب معرفة العطّارين بالأدوية التي ما نعرفها نحن إلّا بالسماع، ومع ذلك ما كان عنده لا مغاني ولا طرب».


وقد يكون الامر بالعكس ولذلك رايت
خبثا اليهود يدس الاذا في خوانه
للاكابر منهم لشدة احتقاره فسمعت
بعض الاصحاب يقول لطبيب يهودي
مشهور بالخبث يا حكيم لقد ركب فلان
الطبيب يعني كثيرا من الاطبا ترياقا عظيما
وكانت عنده مغاني وطرب يوم ركبه
وقالب عظيم فقال له وحياتك يا سيدي

الورقة (١٣٩/ظ)



الورقة (١٤٠/و)

وسمع أهل طبيب يقولون ليهودي خبيث: «هذه الورقة وصفها طبيب السلطان»، فقال: «يا ستّي بعدما يكون طبيب السلطان ما يقدر أحد يقول شيئاً»، والتفت إليّ بحيث يرميها في عنقي فقال: «يا سيّدنا، تقول: خدمَ أبقراطُ السلطانَ قط»؟ قلت: «كانت الملوك تخطبه لذلك فلا يرضى»، قال: «يا مولاي، تقول: خدمة السلطان تزيد في الذكاء والعلم؟ فلم أُجِبْهُ»، وفهم القوم عنه وضحكوا.

وربّما قال له بحضوره: «يا مولانا، مهما وصفتَ ما يقدر أحد يخالف أمرك، [١٤٠/ظ] فصِفْ ما أردت، فالسعيد سعيد». وإن قيل له: «إنّ طبيب السلطان وصف هذا وما وافق المريض»؛ فيقول لهم: «يا ستي أشغالهم كثيرة، وما لهم وقت، وهم معذورون ما يتفرّغون للمطالعة والاشتغال». وأمّا أطبّاء السلطان فإنّهم يقولون عنه: «أطبّاء الملوك لهم[1] أسرار الطب التي يتسلّموها واحدٌ بعد واحد، ما لا يطّلع عليه أطبّاء العوام»، وذلك لوقع في نفوس الناس.

(١) لهم؛ أضيفت بالخط المغاير.

وأمّا قلّة حيائهم في الفُشار[١] على الزبون؛ إذ يقول أحدهم: «طلبني فلانٌ الأمير ما رضيت أروح إليه، والأمير الفلاني أعطاني أمس خلعة وألف درهم، وكان قد بلغ الموت [١٤١/و] عالجته في ليلتين، وفي الثالثة دخل الحمّام». ومنهم من يُخرج ورقة فيها خمسون اسماً[٢] ويقول: «هؤلاء كلّهم طلبوني»، ليعلم الناس أنّ له حُظوة فيرغبوا فيه، وتكون تلك الأسماء لعشرة أيّام. ومنهم من يقول: «والله ما حصل لي أكثر من عشرة دراهم في هذا النهار»، ليوهم أنّ هذا كساده، ويكون محصولُه درهماً واحداً أو درهمين.

والأطبّاء يتجلّدون على احتمال التقريع بالكذب، أو ينذر أحدهم بموت المريض فيبرأ، أو ببرئه فيموت؛ فيقال له: «يا حكيم، ما أنت القائل: إنّه يبرأ؟» أو «يموت»؟ فيلقَى ذلك بوجه صفيق، ولا يطرق، ولا يخجل.

وممّا يُحكى من قِحة طبيب [١٤١/ظ] أنّه سقى مريضاً دواءً مسهلاً، فأسهله مائة مجلس ومات، فجاء إليه أهلُه يلومونه، ويحكون له كثرة ما أسهله الدواء، فكان جوابه أنْ قال: «والله إنّ هذا دواء مليح، والله لو عاش أسهلته ثلاثمائة مجلس» .**أفهذا الجواب في هذه الواقعة صادر عمّن له حياء؟!.**

وطبيب آخر في زماننا دُعي إلى مريض وهو ينازع، فقال: «عندي شراب إن شربه هذا عوفي لوقته، وقيمته عشرة دراهم»، فأخذها منهم وأحضر لهم شرابَ إجّاصٍ أو غيرَه من جنسه، فلم يدرَك المريض إلّا وقد مات، فقالوا له: «قد مات، فأعِدْ إلينا

---

(١) الفُشار: التفاخر، والزعبرة. (تكملة المعاجم).

(٢) مصححة على الهامش بالخط المغاير: بيتاً.

الدراهم»، فقال: «آمنتم [١٤٢/و] أنّ أحدكم يبلغ إلى هذا الحدّ فيجد هذا الشراب عنده فيخلّصه من الموت». فتأمّل هذه القِحة، ولولا قليل كان يقول: «اسقوا منه هذا المساء يعِش».

وأمّا أراذل اليهود منهم؛ فبعضهم معه ميزان عظم يعتبر به الدرهم، فإن كان ناقصاً ردّه عليهم وقال: «هذا ناقص»، وبعضهم يقدّر عليه فيجده ناقصاً فيردّه ويحتجّ أنّه نحاس. وبعضهم معه خُرج على الدابّة، فإذا لم يعطوه فضّة طلب قمحاً أو شعيراً أو دقيقاً، وإن لم يجد شيئاً قنع بنخالة أو رغيف أو بقليل تبن.

فما أفحمني الأمر فعل الأطبّاء من السعداء ومن يجعلهم من بياض المكاديّة[1]، وإن تفاوتت مراتبهم ومطالبهم.

[١٤٢/ظ] فناهيك بصناعة تسلبك ثوب حيائك، وتعلّمك القِحة والجرأة على رفقائك، وتعيش فيها بغير جدة ولا جداء، ولا مكرمة ولا نداء،

فارْبأْ بعُمْرِكَ أنْ يمرّ مُضَيَّعاً فيها سُدى[2]



(١) المكادية: هم الشحاذون، وقد مرت.

(٢) شرح مقامات الحريري ج٣ ص ١٠٢. وأصل الأبيات للحارث بن همّام، سرقها غلام له.

فما هنالك بضاعة بسلسل نور جمايل
وتعلك المحبة والمرآة على رسايل ونقش
فيها بغير حلوة ولا حلا ولا ملامه ولا ندا
بعرك فارنا بالعقول رموز متسعا فيها شدا

الباب الثالث

وهو الاول من الفصل الذي في
ان الانسان بالطبع محتاج الى العقل
اعلم عصمك الله من الزلل وسلك بك الجميل
والمطل ان الانسان امر موجود في هذا
العالم السفلي والعقل امر وهما وهب الانسان
لما هو عليه من شرايه في نفس العقل وللعقل
اربع مراتب ما العقل المختص الحاوي للنشي
الهيولاني لانه بمنزلة الهيولى العاري من جميع

البابُ الثالث
وهو الأوّل من القسم الثاني
في أنّ الاكتساب بالطبّ يقدح في العقل

اعلم - عصمك الله من الزلل، وصانك من الجهل والخَطَل[١] - أنّ الإنسانَ أشرفُ موجودٍ في هذا العالَم السفليّ، والعقل أشرفُ ما وُهب للإنسان، بل إنّما تميّز على شركائه في الجنس بالعقل.

وللعقل أربع مراتب:

■ **فالعقل** المصاحب للخَلْق يسمّى **الهيولانيّ**[٢]؛ لأنّه بمنزلة الهيولى العارية من جميع [١٤٣/و] الصور، فهو مستعدّ في الصبيان لاكتساب الصور الفاضلة أو الرديئة، وإلى هذا يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

■ **والعقل** المتصوّر بصورة ما يكتسبه من العلوم والأعمال والتأديب

---

(١) الخطل: تقال للأحمق العجل. (كتاب العين للخليل).

(٢) هيولى: Cytoplasm هي شيء قابل للصور مطلقاً من غير تخصيص بصورة معيّنة. والهيولى نوعان؛ **أحدهما الهيولى البعيدة** وهي التي لا صورة لها في نفسها بوجه من الوجوه، ويقال لهذه الهيولة **طينة العالَم وخميرة العالم**. والنوع **الثاني الهيولى القريبة**: وهي التي لها في نفسها صورة إلا أنها غير الصورة التي هي هيولى لها؛ كالفضّة فإنّ لها في نفسها صورة الجسم وصورة الفضّة قبل أن تلبس صورة للخاتم. (اصطلاحات الطب القديم).

والاسترسال، يسمّى **العقل المستفاد**، لأنّه لم يكن مع الإنسان بتلك الصورة إلا بالقوّة دون العقل، فإذا صارت تلك الصور راسخةً فيه وملَكَةً له تسمّى عقلاً بالفعل، وكان هذا في مقابلِهِ العقل الهيولاني، لأنّ ذلك عقلٌ بالقوّة، وهذا عقل بالفعل.

■ **والعقل** المستفاد طريق إلى خروج ما بالقوّة إلى الفعل، وإذا صارت تلك الملكات له بالفعل متمكّناً [١٤٣/ ظ] فمنها من أفاضها على غيره؛ سمّي **عقلاً فعّالاً**، وإنّما سمّي ملك العمر ذا العقل الفعّال لأنّ في قوّته أن يفيض الصور على عالم الكون والفساد، وما أقلّ وجود العقل بالفعل في الناس فضلاً عن العقل الفعّال، لأنّ جميع ما يكتسبونه غالباً إنّما هو حالات مستحيلة غير راسخة، اللهمّ إلّا أن يكون طالب شهوة طبيعيّة أو لذّة حسّيّة، فإنّها تصير ملكةً غالبةً على العقل.

وإنّما كلامنا في العقل المستفاد، وأفضله المستفاد من العلوم الشرعيّة والعقليّة والإلهيّة. ثمّ هذا أيضاً له مراتب؛ بحسب الابتداء والتوغّل والانتهاء.

■ **وأمّا** [١٤٤/ و] ما يستفيدونه أرباب الصنائع فيسمّى **العقل الحسّيّ والمدنيّ**؛ من النجارة والحدادة والصياغة والكتابة والطبّ، وهذا وإن كان يؤخذ في بعض الحيوان بالطبع كالنحل وغيره ـ فلن يسمّى عقلاً، لأنّ صاحبه لا يقدر على التصرّف، بل ذلك أمرٌ واحد طبيعيّ له.

وجميع الصنائع ـ ما خلا صناعة الطبّ ـ فموضوعها مادّة محسوسة؛ كالخشب للنجّار، فهو يعرف أنواع الأعمال، وما لكلّ واحد منها من أصناف الخشب، وما لا يصلح، ويعرف لكلّ عمل آلات تخصّه، ويعرف للصور المطلوبة في تلك المادّة، والغاية المطلوبة، ويعينه ذلك [١٤٤/ ظ] على بلوغ الغاية من الوضع والشكل والمقدار.

وأمّا صناعة الطبّ فإنّ موضوعها ـ وإن كان بدن الإنسان، وكان ظاهره محسوساً، إلّا أنّ أكثر الأمراض[١] إنّما تعرض في باطنه، فهي خفيّة عن الحس[٢] إلّا بعلامة قلّما تكون خاصّة بمرض واحد، مشتركة بين أمراض، حتّى[٣] يرد منها علامة ثانية وثالثة، فعسى الذكيّ الفطن الذي يخلّص ذلك المرض من غيره. ومتى تحصل تلك العلامة الثانية فقد تخفَى إلى أن يتوسّط المرض[٤]، والطبيب إلى ذلك الوقت إمّا جازمٌ، لجهله بمرض ما ويعالج بحسبه، وإمّا [١٤٥/و] حائرٌ متردّد، إلى أن تساعده علامةٌ أخرى، وكلا الأمرين يضيّع المصلحة.

ولعمري إنّ الأمراض الظاهرة في ظاهر البدن قد تشتبه غالباً؛ فكثيراً ما أثّرت الشمس والماء والمشراط في الجلد شبْهَ البرص[٥]، فيُنهك الطبيب بدن ذلك المسكين بالاستفراغات ويعدّه لأمراض، والأمر يسير جدّاً.

وكثيراً ما تُبطّ السلعة[٦] على أنّها لحميّة، فتظهر شهديّة[٧] فيحلّ لصاحبها البلاء

---

(١) بالأصل الأعراض، ومصححة بغير قلم في الحاشية كذا.

(٢) أضيف فوقها بقلم مغاير: لا تدرك.

(٣) كتب فوقها بالقلم المغاير: خفي.

(٤) كتب فوقها بغير خط: فمثل أن يظهر.

(٥) كثير من الإصابات الجلدية، والرضوض والعمليات الجراحية والحروق والجروح، تخلف بعدها منطقة تفقد خلايا الميلانين المسؤولة عن لون الجلد، فيظنّ بأنها البهق أو البرص، وليس الأمر كذلك.

(٦) **سَلْعة وسِلْعة**: بفتح السين وكسرها وسكون اللام، هي ورم غليظ له غشاء كالخريطة، غير ملتزق باللحم والجلد، يجري بينهما، حتى يمكن أن يقبض عليه، ويتحرّك عند التحريك في الجوانب كلّها، ويختلف في العِظَم؛ فمن الحمّصة إلى البطّيخة. (اصطلاحات الطب القديم).

(٧) **الشهديّة**: السعفة الرطبة. إذا كبرت ثقبها واتسعت سمّيت شهديّة، تشبيهاً بشكل العسل الشّهد، وربّما سمّيت عسليّة. (اصطلاحات الطب القديم).

العظيم. وكم من ورم سرطانيّ يُشقّ على أنّه سلعة، أو يبطّ على أنّه خُراج، ولا تظهر عليه العروق الخضر دائماً، وقد تظهر العروق الخضر على السلعة.

[١٤٥/ظ] وليست هذه العلامات بثابتة على حال واحد؛ فليست **رياح الشوكة**[١] بلازمة المفاصل دائماً، وإنّما حكم الأوائل بالأغلب الأكثر.

ولو اجتمع ألف طبيب وكحّال لما قدروا أن يحقّقوا القرحة في أيّ طبقات القرنيّة هي، وأيّ القروح الأربع[٢] هي إلّا بالتقريب.

وكثيراً ما يكون السَّبَل[٣] غليظاً ويحسبه رقيقاً، إمّا لغوره، أو لأنّه عقيب كحل، وكم من مرّة ينذر بالعطب المطلّ ولا يُعرف، ويُهمل.

ومتى يفرّق بين النملة والجاورسيّة والساعية والآكِلة[٤]، وبين القوابي[٥] المتقشّرة والرضّ المتقشّر، وغير ذلك ممّا يطول شرحه.

---

(١) ويقال: رياح الأفرسة أيضاً. وهي الحدبة. وقد مرت.

(٢) قروح القرنية في اصطلاح الطب القديم أربع مراحل؛ النملي والذبابي والمسماري والعنبي.

(٣) السبَل: عروق متنسجة في الملتحمة، وتكون كاختلاط للتراخوما.

(٤) **النملة**: اسم عربيّ منقول نقلاً عربيّاً لبثور دقاق متقاربة تتقرّح وتسعى في الجلد وما قرب منه، وقيل: هي بثور تحدث عن صفراء حريفة لطيفة، فإن كانت الصفراء رديئة أوجبت **النملة الساعية** الأكّالة، وإلا أوجبت النملة الساعية فقط إن كانت الصفراء رقيقة، وإن كانت غليظة تحتبس في ما دون الجلد أوجبت **النملة الجاورسيّة** .**الآكلة**: بالمَدّ والفتح، هي تعفّن وتآكل يعرض في الأعضاء. (اصطلاحات الطب القديم).

(٥) **القوابي**، جمع قوباء: وهي في الطب القديم تطلق على الحزاز المنبسط Lichen planus، أما في الطب الحديث فالقوباء Impetigo هي التهاب الجلد بالمكورات المسبحية Streptococci.

[١٤٦/و] **هذا** وهي أمراض ظاهرة محسوسة بالبصر واللمس، فما قولك في الأمراض الباطنة الخفيّة عن الحواسّ الخمس والإدراك العقلي المحقّق بالقياس الصحيح، إلّا بالتقريب والتغليب والحدْس والتخمين.

وحسْبك أنّ أكبر الأطبّاء **جالينوس** غلط في تعيينه[١] بين القولنج والحصاة، وأكثر منه **أبقراط** يقول: «إنّ التقدّم بالقصّة في الأمراض الحادّة لا يوثق منها بحال»، فقد يكون الإنذار حسّيّاً، والبُحران رديئاً، وسبب ذلك إمّا استحالة المادّة إلى رداءة مضادّة للقوّة، وإمّا قلّة احتمال القوّة لشدّة الأعراض.

وكلّ ذلك يدلّ [١٤٦/ظ] على أنّ أحوال المادّة والقوّة في الكمّيّة والكيفيّة حاضرة واقفة[٢]، كأنّها غير مضبوطة، ومحقّقة تحقيقاً يؤدّي إلى الجزم بالحكم، فكلّ ذلك يدلّ على أنّ المرض بمَجامِعِهِ وأسبابه بإزاء السبب مع مراعاة طبيعة المرض والعرض، ومراعاة بقيّة الشرائط؛ أعني القوّة والمِزاج والسنّ والبلد والعادة والوقت والهواء، ومتى يتحقّق حال القوّة، ولاسيّما فيمن لم يباشر إلّا عند مرضه، فيتوهّم قويّاً، وهو ضعيف، بالإضافة إلى قوّته الأصليّة، وبالعكس.

ومتى يتحقّق عرض مزاج واحداً واحداً تحقيقاً لا يزيد ولا ينقص لكي يقابله[٣] بميزان عدلٍ، [١٤٧/و] وكم من شبابٍ واحد كشيخوخةِ آخر، وكم مَن ما كان له مِزاج أصلي يحدث له مزاج، والطبيب ذاهل إمّا لقرب البحار أو لبعدها؛ كما جرى بمصر، فإنّ الشتاء أشدّ بالنسبة إلى حالها قديماً، وقلّ من يدمن على حالةٍ واحدة وفيما يصير

---

(١) كذا بالأصل، ولعل الأصح: تفريقه.

(٢) مصححة على الهامش بقلم مغاير: واثقة.

(٣) كتب فوقها بغير خط: أو يناسبه.

عادة، وقلّما يلتفت الطبيب إلى الهواء أو يذكره؛ فيقول: اليوم شمالي أو جنوبي، أو تحتقن[١] الرياح اليمانيّة، أو اختلاطها أو تعاليها[٢] في يوم واحد، وليس الوقت دائماً على حال واحدة حتى يكون الخريف خريفاً، والربيع ربيعاً، والصيف صيفاً، والشتاء شتاءً، بل هذه تنتقل وتتشابه وتختلف أيّامها؛ فمن قلّة [١٤٧/ظ] انتظامها يقنط الطبيب من تحديدها ورصدها، وقد يضطر الأمر إلى ترك مراعاتها، فيقيء في الشتاء، ويسهل في الصيف، ويفصد في غير الربيع، وغير ذلك.

وجميع ما ذكرته يدلّ على أنّ المرض غير محصَّل، وأسبابه وعلاماته غير محصّلة، والعلاج غير محقّق، وشروطه غير مضبوطة.

ثمّ إنّ جميع أحكام الطبّ على أمزجة الأبدان والبلدان والأدوية[٣]، ومقيسة على المعتدل منها، والحقيقي ممتنع الوجود، والإضافي يتحقّق في واحد من صنف[٤] واحد من النوع بأسره، فهو عزيز الوجود، ومن يجده حتى يلمس كيفيّة بشريّة حتّى يقيس عليه [١٤٨/و] ملمس زند وأنه[٥] قد خرج عنه، أو الحرارة أو البرودة كذا وكذا درجة، ولذلك وقع في الأدوية الاختلاف والتباعد جدّاً حتّى قيل: هذا حارّ في الدرجة الثالثة[٦]، وقيل: بارد في الثالثة، ويكفي أن يقال فيه حارّ أو بارد، وإنّما وقع

---

(١) كتب على الهامش: تحقق.

(٢) كتب فوقها بخط مغاير: تتاليها.

(٣) كذا بالأصل، ولعلها الأهوية.

(٤) بالأصل: ضعف.

(٥) لعل الصحيح ما أثبت:

(٦) **الدَّرَجة**: بالتحريك، مراد الأطباء في أنّ الدواء في **الدرجة الأولى**: هو أن يؤثّر في هواء البدن، **وفي الدرجة الثانية**: أن يتجاوز عنها ويؤثّر في رطوبته، **وفي الدرجة الثالثة**: أنه يتجاوز =

ذلك من الغلط في تجربته بسبب عدم الإحاطة بكُنه مزاج البدن المجرّب عليه حال اعتداله وخروجه.

ولذلك قال أبقراط: «إن القضاء عسر»؛ يعني القياس، أو الحكم على المرض، والسبب والعلاج، «والتجربة خطر»، ولو أمكن ذلك وأمِن من هذه لكان الوقت أضيق عند المريض من استحضار هذه الشروط كلّها التي لا يصحّ العلاج بإهمال واحدٍ منها في [١٤٨/ ظ] الذِّهن في آنٍ واحد، وأن يبحث الطبيب ويسائل من يعلم أنّه لا يستقلّ باستقاء العبارة عن السبب البادئ، والواردات من خارج، وضبط التدبير المتقدّم، وتحقيق ما يلائم، وما ينافي لها من حال حادثة تجعل الملائم منافياً، فيغلط الطبيب[1].

وأي معالجة تُبنى على مثل هذه الأشياء ـ وإن كان ذلك قليلاً جدّاً؛ فكم خفقان كان أدلّ على آفة الدماغ من دلالته على آفة القلب، فإنّني رأيته يتقدّم السكتة، وكأنّ الطبيعة تحسّ بالعجز عن التنفّس فيضطرب القلب.

وكم شاهدت زحيراً لا تنجع فيه المداواة بأدويته حتّى استعملتُ [١٤٩/ و] الحدس وفتّشت، وتركت ذلك الحكم بجملته، وتساءلت عن أشياء بعيدة، فوقعتُ على أنّ ورماً في الرحم ممّا يلي الأمعاء قد انفجر من هناك، وسال من المعى المستقيم، فكان يزحر لاستقراب المِدّة والدم، ومتى تحصّل لي سبب ذلك، مع جواز[2] أن يكون لامتلاءِ جملة البدن أو العضو نفسه، إلّا بعد تتبّع ما يبرز من البدن والعضو في

= عنها ويؤثر في الشحم، **وفي الدرجة الرابعة**: أنه يتجاوز عنه ويؤثّر في اللحم والأعضاء الأصلية ويستولي على الطبيعة. (اصطلاحات الطب القديم).

(١) بالأصل المريض ومصححة كذا في الهامش بغير قلم.

(٢) مصححة على الهامش احتراز، بقلم مغاير.

أيّام، فلمّا لم أجدْ ما يدلّ على الامتلاء ملْتُ إلى مساءلة المريض[١]: هل استعمل فرزجة حادّة؟ فبالجهل ما أقرّ بذلك وذكر دواءً مجمّداً، حتّى قلتُ: إنّه أحدث الورم، فعالجته بالواجب فنجع.

ومتى تقدّر كيفيّة [١٤٩/ظ] الدواء على نوع المرض، أو كمّيّته في الكيفيّة والوزن على كمّيّة المرض بحسب طبيعته وسببه؛ إن كان سوء مِزاج أو مادّة، وأيّ الموادّ هي؟ وأيّ صنف من تلك المادّة هو؟ وهل هو بسيط أو مركّب؟ وفي أيّ موضع وإلى أيّ جهة يميل؟ وهل انصبّ، أو هو في الطريق ليميَّز له كيفٌ يحدثه؟ مع مراعاة طبيعة كلّ عضو وخلقته ووضعه ومشاركته، وقربه وبعده، وتجويفه وكونه مصمتاً، أو تلزّزه أو تخلخله، ورئاسته ومنفعته، وذكائه وبلادته، ومناسبته لأدوية ومنافرته، واحتياجه إلى دواء مفردٍ أو مركّب، وقانون التركيب ومقتضيات [١٥٠/و] التركيب بحسب ذلك المرض، ووقوفه[٢] في ذلك العضو وذلك السنّ في ذلك البلد، وبحسب طول مدّة استعماله، وبقاء قوّته أو قصرها، وأيّ أصناف تلك الأدوية المفردة أفضل، ومن أيّ البلاد تُجلب، وبماذا تُغشّ وكيف يُعرف، وبماذا يضرّ وماذا يدفع ضررَه، والشروط المعتبرة في طبخه أو سحقه.

مع مراعاة حالات الهواء في السنة بالجملة، وقلّة المطر وكثرته، وحالات الهواء في الفصول، وفي هذا الفصل وما قبله، وما رُكّب من ذلك لمن اقتضاه[٣] بعض

(١) يقصد هنا المريضة، لأن الفرزجة المذكورة في الجملة التالية دواء يتحمل في قبل المرأة.

(٢) كتب فوقها بخط مغاير: ووقته.

(٣) لمن اقتضاه: كذا بالأصل، ولعلّ صحتها (من اقتضاء). لمن: لعلها بالأصل (من) ومصححة كذا.

الأمراض دون بعض، وحالات الهواء في يوم يوم، وهل ذلك المرض منسوب إليها؟ [١٥٠/ظ] أو إلى السنّ، أو إلى طبيعة الفصل.

وإن لم يخرج عن المجرى الطبيعي ولا ما قبله، أو لحال موادّ هذا البدن وانقلابه[١] وخلقته، وضعف بعض أعضائه فيه خاصّةً، أو موروثاً، أو كونه حاصلاً بالمشاركة[٢]، وأيّ العضوين ابتدأ فيه، والتحرز[٣] عن عضو آخر مؤوف[٤] تضرّ به تلك الموادّ، والحيلة على تركيب ما ينفع الضدّين.

وغير ذلك ممّا لا يحصره العدد، فإنّ استحضار الطبيب لذلك في آنٍ واحدٍ لا يُطمع فيه إلا لفتىً مؤيّدٍ من الله، معصومٍ من السهو والغلط. ولذلك **قال** الإمام المنصف أبقراط: «والوقت ضيّق»، بعد قوله: [١٥١/و] «والصناعة طويلة».

وإذا علمْت ذلك؛ فالطبيب المُتصرِّف في علاج أبدان الناس إمّا أن يغفل عدم قدرته على استيفاء الشروط بأسرها، وتحقيق العلاج تحقيقاً تبرأ به الذمّة، وتبع بإزاء المرض وسببه، وينطبق عليهما بحيث لا ينقص ولا يزيد عنهما، كما يقدّر النجّار الباب على طول البناء وعرضه فلا ينقص خيطاً ولا يزيد خيطاً، وكما يقدّر الخيّاط الثوب على لابسه فيفصّله على طوله وسَعَتِهِ؛ ثمّ يعالج أبدان الناس بعد ذلك، ويشغلهم بنفسه عن غيره، أو عن الحيلة في مصالحهم[٥]، ويقودهم بذلك التوثّق منه

---

(١) مصححة في الحاشية بقلم مغاير: وامتلائه.

(٢) حاصلاً بالمشاركة: بالأصل حاصلاً أو بالمشاركة. ومصححة بقلم مغاير: خاصاً أو بالمشاركة.

(٣) كذا بالأصل وبدون نقط طبعاً، ولعلها: والتحري.

(٤) كتب فوقها بغير خط: في ذلك البدن.

(٥) كذا بالأصل، ومصححة على الهامش بغير قلم: معالجتهم.

والظنّ فيه [١٥١/ظ] بأنّه يعمل شيئاً نافعاً[١] وهو لا يعمله؛ فإنّ ذلك منه عدم دين، وهذا ما نذكره[٢] في باب عدم دِين الأطبّاء.

وإن لم يعقل عدم قدرته على استيفاء ذلك، وظنّ أنّه قادر على ضبط ذلك كله وإخراجه من القوّة إلى الفعل إخراجاً مستوفياً[٣]؛ فاقطع بأنّه لا عقل له، ولم يطّلع على دقائق هذا العلم وصعوبته، وأنّه ـ وإن أمكن النطق به وبأقسامه، فإنّ إخراجه بأسره إلى الفعل على حقّه وصدقه غير ممكن البتّة.

وذلك مطلوبنا ههنا: وهو أنّ **الاكتساب بصناعة الطبّ** ممّن يظنّ أنه يوفّي الصناعة حقّها ليتناول الأُجرة عنها حلالاً [١٥٢/و] أمرٌ قادح في العقل، أعني العقل المعيشيّ، وأمّا العقل الفلسفيّ الإلهيّ، أو العقل الشرعيّ المكتسب من تأديب الشريعة فلا يطلق لهما تعلّم الطبّ ولا يضمن شيئاً من ذلك.

فمتى كان الرجل طبيباً صرفاً فهو يظنّ هذا الظنّ السالف ذكره، فقد عري من أصناف العقل كلّها، وليس له العقل المعيشيّ، ولا عقل الفلسفة ولا الشرع، بل ربّما بفضول وقدح في الشريعة والفلسفة، لكي يُعدّ بالمخالفة من العلماء والحكماء، ولا يعلم أنّه لو وضع في الحياكة علم بجميع موضوعاتها ومبادئها ومسائلها وبراهينها وآلاتها، [١٥٢/ظ] لكان أوسع من علمه وأصحّ.

فهو من أين والفلسفة[٤] أو الشريعة، وإنّما يتفوّه بذلك حُمْقاً ورعونة يكتسبها من

---

(١) أضيف فوقها بغير خط: ناهياً.

(٢) بالأصل: أكثره، ومصححة كذا بغير الخط.

(٣) كتب فوقها بغير خط: مكشوفاً.

(٤) زاد المصحح: من أين.

صناعته، وذلك أنّه مع تعرّيه من العقل المعيشيّ، وعقل أهل المروءة والحياء، وحسّ الأدب ـ كما تقدّم ببابه ـ لايزال معاشراً للنساء، كان المريض امرأةً أو رجلاً، فإنّما يقوم بإمرة النساء؛ فهو يخاطبهم مخاطبة المتلطّف المتذلّل[١] المنافق طلباً للدرهم، وهنّ يصُلن عليه صولة المطالب له بما أشعر به من ضمان تقدّم المريض الذي قلّ أن يتقدّم إلا أخيراً في بعض المرّات، فلاتزال كلمتهنّ تعلو[٢]، وكلامه ينخفض، ورأيهنّ يعلو[٣] على رأيه، [١٥٣/و] وهو يظنّ أنّه يسُوسُهنّ بحيلته، فيخفي بعقله، ويوافق رعونتهنّ حتّى ينسى العقل، ويتخلّق بالحُمْق، كما يجري عليه أمر معلّم الصبيان؛ فإنّه يتصدّر للصبيان بصورة مستعيرٍ خُلُقاً يوافق عقولهم، فلا تمضي عليه مدّة حتّى يصير ذلك الخُلُق ملَكَة له.

وإنّي مُتردّد في اقتحامه على عملٍ يُنسب فيه النجح على الحقيقة إلى الله سبحانه، ويُنسب موت المريض فيه إلى جهله وتقصيره، أو إلى قصده مع ما يكابده في مدّة علاجه من الذلّة والهوان، والمخاطرة بالدين والعرض، ومع بخس الأجرة والمكافأة؛ هل أنسب ذلك إلى فرط حُمْقه، [١٥٣/ظ] أو شدّة قِحته، أو قلّة حيلته في أن يقتات ببيع البقول وما شاكلها، ويستريح من هذا الهمّ الطويل، والعاقبة الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وممّا يعلّمه الحُمْق، ويخرجه عن طريقة العقل؛ كونه في الغالب يبني عمله على

---

(١) بالأصل: المرلل. وكتب على الحاشية: المتدلل.

(٢) زاد المصحح: كلمته.

(٣) بالأصل: يعلين.

ما ينهي إليه المريض الذي لو قال: «النار محرقة»، لم يسمع الشرع قوله مادام مريضاً فاقداً للصحّة.

وعليك بمصاحبة(١) أبوابهم وحوانيتهم(٢)، ووصفهم لرسل المرضى في الطرقات، لتتأمّل كيف يصِفون لهم بنشاط وسرعة وصفَ من قد تحقّق أحوال المريض كلّها، وأسباب مرضه، ومقدار قوّته، وموادّ مرضه، وترتيب ما دبّره(٣) يوماً فيوماً، ولم يستدرك ما فرط منه من نقصان أو إهمال [١٥٤/و] أو غلط.

وهم ـ تداركهم الله ـ يعلمون من أنفسهم أنّهم لو باشروا المريض من أوّل ساعة مرض فيها، وجادوا بالمباشرة أحواله ساعة بساعة، واحتاطوا في أنْ لا يقع غير ما يُسرّون به، وكان المريض ومن يحضره كذلك، مع حذقهم وصدقهم، لَمَا أمنوا من الغلط في العلاج، لأمرٍ خفيَ عنهم وعن المريض وأهله(٤)، ولم تظهر له علامة بعد.

فكيف والرسول إمّا عجوز خَرِفة، أو امرأة مغفّلة، أو غلام أبْلَه، أو من ليس له بالمريض احتفال، فيتحفّظ ما أرسل على لسانه جزءً جزءً(٥)، وأعظم ما يحضر إليهم قارورةٌ قد أُخذت مع الإخلال بجميع الشرائط المعتبرة فيها، ولو إلّا بأنّها أبطأت [١٥٤/ظ] ساعات، وليس هي ممّا يُنظر فيه ولو بعد ساعة، فكيف إذا كانت أيّ بول

---

(١) بالأصل بمصابحة.

(٢) هذه مضافة بخط مغاير.

(٣) دبرته بالأصل.

(٤) أضيف فوقها بخط مغاير: حدث.

(٥) كذا بالأصل، وعلى الهامش بغير خط: حرفاً حرفاً.

اتّفق، لا البول الذي انتبه عليه المريض[١]، ولم يحترز فيه من صابغ، ولا من التخليط والتملّي المفجّج[٢]، ويردفونها بألف يمين أنّ صاحبها له أيّام ما ذاق غير الشراب، فينسبون تلك الفجاجة خفيّة وغير مُحصّلة.

فإنّك إذا تأمّلت تسرّعهم إلى كتابة الأوراق من غير تثبّت أو تقية من خطر؛ قطعتَ بأنّهم أقلُّ الناس عقلاً ـ إن كانوا يزعمون أنّهم يعملون عملاً، وإلّا فإنّهم أقلُّ الناس ديناً إن علموا خطر ذلك وعدم التحقيق فيه، ثمّ أمالوا[٣] الزبون في قضاء حاجته تأليفاً له.

[١٥٥/و] **ولقد** أتى إليّ يوماً في الورّاقين[٤] رجلٌ من أهل الريف، وشكى إليَّ أنّ أخاً له أصابه خُناق وله سبعة أيّام، وسألني أن أكتب له دواء فامتنعت، فنسبني إلى البخل بذلك، فقلت له: «إن أخبرتني بجميع ما أسألك عنه من أحواله كتبتُ لك»، فقال: «سل»، فقلت: «هل هو خُناق حقيقيّ أو **ذبحة**[٥]»؟ فقال: «لا أعلم»، فقلت: «ما بال أن يكون ورماً في اللهاة»؟ فقال: «لا أعلم»، فقلت: «فهل الورم في عضل المري يمنع الازدراد، أو في عضل الحنجرة يعسر معه النفس»؟ فقال: «لا أعلم»، فقلت له: «تركت لك هذا كلّه، فهل تعلم مقدار قوّته لأصنع له الدواء بمقدارها»؟ فقال: «لا والله».

---

(١) يقصد البول حين الاستيقاظ من النوم صباحاً.

(٢) أي الذي يكون البول بسببه غير نضيج، فج.

(٣) كذا بالأصل، ومصححة بغير خط: مالوا إلى.

(٤) يقصد سوق الوراقين بالقاهرة.

(٥) الذبحة: هي من أنواع التهابات الحلق، والخُنَاق: هو المعروف حديثاً بالدفتريا.

ثمّ سألته عن مزاجه الأصلي [١٥٥/ظ] وتدبيره المقدّم، وأمراضه المعتادة[١]، وبُعد عهده من الاستفراغ والفصد والإسهال، ولمّا أفصدَ الآن كم مقدار ما خرج له من الدم؟ وعن كون قارورته وبرازه، وما ينفثه؛ فحلف أنّه لا يعلم من ذلك كلّه شيئاً، فصرفته عنّي.

فانتقل إلى يهوديّ في مقابلة لدكّاني[٢]، فأوّل ما قال له: «لي أخ به خُناق»؛ التفت إلى عطّاره وهدر، فهيّأ له دواءً أقوى الأدوية، وشراباً، وتعيّش عليه هو وعطّاره في دراهم لها مقدار.

فأخذتني الحميّة، فاستدعيت الطبيب بحضور الجماعة الذين سمعوا سؤالي للرسول، فسألته [١٥٦/و] عمّا سألتُ الريفي، وهل علم شيئاً من ذلك؟ فقال: «لا»، فقلت له: «فكيف يحلّ لك، أو يسوغ في عقلك أن ترسل دواءً مسهلاً إلى من لعلّ قوّته في السقوط فتعجّل عليه، أو إلى من هو أحوج إلى الحقنة من الدواء؛ إمّا لضعف، أو لامتلاء مفرط، يُخاف[٣] من تحريك الدواء له فيعظُم الخطب»، فكان جوابه أن قال: «لو توقّفنا في المداواة على هذا الاحتراز كلّه ما داوينا أحداً». فهل هذا الجواب صادرٌ عن عقل؟ فكان الأَوْلى أن يقول: «لو توقّفنا على هذا كلّه لما قتلنا أحداً».

ولقد كان إلى جانبي طبيب مهوّر، فلا يبحث عن حال المريض؛ ماضيه،

---

(١) زاد فوقها بخط مغاير: وبوله وامتلائه.

(٢) بالأصل: في مقابلتي لشقاي.

(٣) يخاف: كتبت بقلم مغاير، وهي غير موجودة بالأصل.

وحاضره، [١٥٦/ظ] وربّما زاحمهُ الشاكي يشرح الحال، وهو يُعرض عنه، كأن أُخبر منه بما يقوله وبحال مرضه الذي لم يشاهده قطّ، وهو مستعجل في الكتابة عجلة واثق بأنّه قد يحقّق المرض كما يتحقّق أنّ الواحد فردٌ، وربّما أخرج ورقة من كمّه من أوراق كتبها في الليل وأعدّها للتفرقة.

فحضر إليه رجلٌ، فزعم أنّ له مريضاً بالقولنج، فما سأله إلّا أنْ كتب له ورقة بمعجون سفرجلٍ مسهل. فحرّكتني الشفقة إلى أن قمتُ فجريت حافياً حتّى لحقت بالرجل، فأحضرته إلى مصطبتي وسألته: هل القولنج الذي يجده في الجانب الأيسر أو في الأيمن؟ أو خلف [١٥٧/و] الظهر؟ أو في رأس معدته؟ أو هو تحت سرّته؟ أو فوقها بقليل؟ فقال: من تحت سرّته بكثير. فما شككت أنّه إمّا في المثانة عن ريح أو حصاة[١]، أو في المعى المستقيم عن سحج وزحير كاذب، فقلت له: «هل يجد في البول حرقة أو عسراً أو تقطيراً»؟ فقال: «لا»، فقلت له: «هل يجد تزحّراً على الطبع، **ويختلف**[٢] خراطة ودماً»؟ فقال: «كثيراً جدّاً»، بحيث إنّه قام البارحة خمسين مرّة. فكتبت له ما يصلح للاحتياط في ذلك، ونهيته عن أشياء، وسألته أن يطالعني بأمره من الغدِ.

فهل يصدر هذا التهوير في الأنفس عن رجلٍ عاقل، حتّى يضع الضدّ على الضدّ.

ولمّا عوّدوا الناس [١٥٧/ظ] ذلك؛ حتّى لو شكا لهم رجلٌ عن مريض في العراق فقال به ما لا أعلمه، لم يشمّ كلامه حتّى يخرج أحدهم الدواة ويكتب مسترسلاً، وإذا

---

(١) كتب بعدها وبخط مغاير: ونزلت.

(٢) الاختلاف هنا هو خروج مواد غير الطبيعة مع البراز.

شكوا للمحترز المتّقي فيتوقّف حتّى يرى المريض أو يثبت عنده حاله على الحقيقة؛ ازدرَوه ونسبوه إلى العجز والتقصير، أو البخل والصلَف، وشتموه.

وإذا أردتَ أن تعلَم أنّهم مسترسلون في أنفس الناس بما لا يخشَون فيه من الله، أو تحملهم عليه قلّة العقل وكثرة الحُمْق، وأحضر عندهم أحدهم وهو مريض؛ فأقسمُ أنّك لا تجده يُقدم على أن يصف لنفسه الماء البارد، ولا يعرف ولا يثق بنفْسه، [١٥٨/و] ويتّهمها في صوابه حتّى يستدعي طبيباً أو طبيبين. وأمّا في حقّ غيره فإنّه يغتاظ من جالينوس إذا شاركه في الرأي، إقناعاً برأيه وغيظاً من اتّهامه بالتقصير.

فأُفٍّ لها من طائفة **تُوكَى**[1]، ما أحمقها.

وأمّا إذا شاهدتَ قلّة حرصهم حتّى على تحقيق ما عرض للمريض إلى وقت حضورهم، وما دُبّر به، وسائر أحواله، واقتناعهم بشهادة عجوز أو صغير أو جاهل لا يفقه الخطاب، وقطْعهم بتلك الشهادة، وعدم تردّدهم فيها، والتمحُّص[2] عمّا هو أجلى منها ممّا شهد بصحّته ما يختصّ بعلمهم من العلامات والأعراض؛ فإنّك تقطع بأنّهم أقلُّ الناس عقلاً، أو أشدّهم [١٥٨/ظ] إقداماً على مبارزة الله في خلقه.

وأقسم إنّني منذ مارست العلاج لم أقع بمن يصدُق فيما يُخبر به من أحوال المرضى إمّا عمداً وإمّا عادة، وإمّا سهواً ونسياناً، وإمّا جهلاً بتحقيق الشهادة[3]؛ كم من يشهد بأنّ المريض لم يأكل أو لم يندفع، وتلك الشهادة مشروطة بملازمته دائماً،

---

(١) توك: أحمق تائك: شديد الحمق، ولا فعل له. (لسان العرب).

(٢) لعلها والفحص.

(٣) أضاف في الحاشية بغير قلم: من حيث العادلة والطبّ.

ولربّما شهد بذلك العدل العالم فكذّبه المريض أو آخر وقال: «يا سيّدنا، نعم أكل حين غاب سيّدنا عنه»، أو اندفع فيخجل وينقطع[١]، وقد يقول عن إسهال المريض: «ما جاءه غير النقوع الذي شربه»، فأُلْزِمُه بإحضار قصريّة الإسهال وأسألُه كم مقدارها؟ [١٥٩/و] فيقول: «خمسة أرطال»، فأقول: «وكم كان مقدار المشروب»؟ فيقول: «رطل، أو نصف رطل»، فنعلم أنّه شهد باطلاً. ويقول: «إنّ المريض يخلط في كلامه»، ويكون المريض ينام نوماً خفيفاً وعيناه مفتوحتان ويعرض له أضغاث أحلام، فتكلّم بها لخفّة نومه، ويشهد سامعه باطلاً من حيث الجهل بالطبّ.

وأمّا إذا سمعت أطبّاءَهم؛ أعني الأطبّاء في ذمّ الأغذية الرديئة، كالحِرِّيفة والمالحة وذوات الكيموسات[٢] الغليظة والسوداوية، وتحذير الناس منها طبيب أنّهم لا يستجيزون النظر إليها البتّة، فضلاً عن استعمالها، فإذا باطنهم وجد بهم [١٥٩/ظ] أقذر الناس مأكولاً فيحطّون على أردأ الأطعمة ولا انحطاط الكلب على الجيَف، ولا يلتفتون إلى قول الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتي مثلَهُ عارٌ عليك إذا فعلْتَ عظيمُ[٣]

فإمّا أن يكونوا ما حَذّروا منه الناس حقّاً ثمّ رضوه لأنفسهم، وذلك يدلّ على

---

(١) أضيف عليها بغير قلم: فهذا من تحقيق العدالة.

(٢) **الكَيموس**: بالفتح، هذه اللفظة سريانية، ومعناها الخِلط، والكيموس في عبارة الأطبّاء هو الطّعام إذا انهضم في المعدة قبل أن يتصرّف عنها ويصير ماءً. (اصطلاحات الطب القديم).

(٣) البيت لأبي الأسود الدؤلي. (ديوانه- ص ٤٠٤)

فساد العقل والمروءة، وإمّا أن يكون كذباً، وذلك يدلّ على المكر والحيلة وقلّة الدين والغشّ في المعيشة والمعاملة، وذلك فعل أسقاط الناس وأراذلهم، لا فعل أرباب العقول والرئاسات، وتجدهم يعتذرون ويقولون: إنّ الحمية [١٦٠/و] في حال الصحّة كالتخليط في حال المرض، وذلك مغالطة، لأنّا لم ننتقد عليهم التخليط، بل إدمان الأطعمة الرديئة.

وليس المباح في حال الصحّة من التخليط هو إدمان الأغذية الرديئة، والأكل والشرب كيف اتّفق، بل للصحّة أيضاً قانون كقانون المرض في الطعام والشراب، ومقدارهما وترتيبهما، وترتيب تناول الأغذية اللطيفة والغليظة، والرديئة والجيّدة، والنوم واليقظة، والحركة والسكون، والجماع والأحداث النفسانيّة، والمساكن، والاستفراغ والاحتقان، وتدبير الهواء.

وإنّما الحمية المكروهة في حال الصحّة [١٦٠/ظ] هي سلوك قانون المرضَى في اجتناب أكثر المآكل، وتلطيف الأغذية، وتناول الشراب الملطّف للأخلاط، والمنضّج حين لا يُراد استفراغ ولا نضج ولا تحليل، فتضعف القوّة، ويهيج ما هو ساكن؛ ولذلك يقول **أبقراط**: «ومِن قِبَل هذا صار التدبير البالغ في الأصحّاء أيضاً خطراً، لأنّ احتمالهم لما يعرض من خطئهم أقلّ»؛ يعني لأجل توفّر قواهم واحتياجهم إلى الغذاء.

بل من الأطبّاء من إذا مرض استهتر وخلّط ولم يجتنب المضرّات بسبب ذلك، لأنّه لم يثبت عنده حقيقة شيء البتّة، وإنّما [١٦١/و] يصفه لغيره كالمجرّب، هل يفعل

ما قيل فيه أم لا، فهو قليل الوثوق بما في يده، ولولا طلب الدرهم لم يصفْه أيضاً لغيره، ولا أمَره ولا نهاه، وخصوصاً إن جرّبه، فلم يصحّ ما قيل فيه، وإن أتى الخلل من جهة تجربته ولم يهتدِ إلى ذلك، أو كان الدواء رديئاً، أو له عائق عن فعْلِه من داخل البدن أو من خارج.

ولكثرة ما يسمعونه عن الأغذية الرديئة، وأنّ كثيراً يشفى بها من أمراضه، ولعلمهم اختلاف الأطبّاء فيها، وأنّ الأحكام الطبّيّة محتاجة بعدُ إلى التحقيق والتكميل؛ فهو قليل الإيمان بصناعته، ضعيف الثقة بها.

[١٦١/ظ] **وهل** يوصف بالعقل من رضي بصناعة كالكذب والأضغاث، مبنيّة على حدْس وتخمين وأوهام وظنون، كأنّها الألغاز **والمُعَمَّيَات**[١]، أو حزازير البُنيّات، لا يهنأ معها العيش، ولا يطعم معها القَدْر، ولا يسلم معها العِرْض، ولا تخلص معها الذمّة، وليس صاحبُها معدوداً من أهل العلوم المعقولة، ولا الصنائع المحسوسة، ولا من أرباب الأموال ولا المناصب ولا الرئاسات، فهو في الناس لا شيء؛ فصناعته في الصنائع لا شيء، وإن ظهر عنها أثر فكثيراً ما ظهر ذلك الأثر مع عدم الاعتماد عليها، وربّما [١٦٢/و] حصل النجح مع عدمها[٢]، ولو إلّا بأنّ العافية قد تحصل بدونها، والثوب لا يقوم بغير الحياكة أبداً، **وللعاقل مندوحة عن جميع هذه الدناءات.**

---

(١) المُعَمَّى: هو تضمين اسم الحبيب أو شيء آخر في بيت شعر، إما بتصحيف أو قلب أو حساب، أو غير ذلك. وهو اللغز. (معجم التعريفات للجرجاني ص ١٨٥).

(٢) زاد بقلم مغاير فوقها: فقلل الوثوق بها.

فكن ـ هداك الله ـ ممّن اتّقى ونهى النفس عن الهوى، ولا تَبعْ عقلك بملك الدنيا، واعمل بقول حكيم الشعراء[١]:

لَوْلا العُقولُ لكانَ أدنَى ضَيغَمٍ   أدنَى إلى شَرَفٍ منَ الإنسانِ



(١) القول للمتنبى. (ديوان المتنبى ص ٤١٤).

قال الوبوي

حصل العج من عدتهما ذلو الالباب
الجاتية من كحصل بدونهما والعرب
لا يحصل بعضها عادة ابدا وللعاقل
مندوحة عن جميع هذه الدبابات
مثل هذا الشر اثنى وهى السير
عن الهوى ولا يحتج عقلك بهذا الدنيا
واحمل سواحل السعادة
لولا العقول لكان ادنى ضيغم
ادنى الى شرف من الانسان

الباب الرابع

وهو الباب الذي من التلبيس الى
دار الحسنا المبتدع فى الدين
اعلم وفقك الله لمرضاته ان الدين هو

البابُ الرابع
وهو البابُ الثاني من القسمِ الثاني
في أنّ التكسّبَ بالطبّ يقدحُ في الدين

اعلم ـ وفقك الله لمرضاته ـ أنّ الدين هو [١٦٢/ظ] الغاية المطلوبة بوجود الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكلّ من حصل على جملةِ مُلْكِ الدنيا ثمّ فاته الدين فهو خاسر.

والدين طريقٌ، وَهَادٍ إلى سعادة الآخرة، وحارسٌ للعباد في أمور دنياهم، وسياجٌ حفظهم الله به، فمن خرقَ سياجَ الله أهلَكه، ومن فرّط في ناموس الله في صغيرةٍ عوقبَ عليها، لقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

ولمّا عَلِمَ الله سبحانه تفاوت مراتب الناس في العقل، ولو يترك الله الناس وعقولهم لضلّ الأكثرون، [١٦٣/و] وتضاددت الآراء، لكنّه رحمهم بما نزّله على رسله من الناموس العامّ إرشادَه الشاملَ نفْعه، لينفع به الخاصّ والعامّ، ولذلك سمّاه شريعة يدركه[(١)] الكلّ، بخلاف الفلسفة؛ فإنّها إن انتُفع بها، فإنّما ينتفع بها القليل من الناس، وأرباب الأذهان الفاضلة، والمهتمّون بالعلوم. وأمّا الشريعة فيهتدي بها العالِمُ والجاهل، والفطنُ والأبله البليد.

---

(١) بالأصل يذكره.

وللناس في الدين مراتب؛ فمنهم من يعمل بأحكامه الكلّيّة، ومنهم من يتفقّه فيه فلا يفرّط في أقلّ الجزئيّات، ويخاف أن يعاقب على إهمالها أو التقصير فيها، [١٦٣/ظ] والقعود دون الاجتهاد التامّ في العبادات والمعاملات، وتحقيق الحلال ليطلبوه، والحرام والمكروه لكي يجتنبوه، وتخليص الذمّة ممّا قلّ وحلّ في معاملة الله والناس، والثبات على العقائد الصحيحة، والاعتقادات المُسلّمة من الشريعة، من غير شكّ أو تردّد، أو ذهاب مع الظنون والأوهام والاعتداد بالمعقول، واتّهام النبيّ والرسول، فإنّ عقولها أضعف من أن تدرك حقائق الموجودات وأسرار الإلهيّات، لولا ما رحمنا به؛ فما جاء على ألسُن الأنبياء بحسب ما تجهله العقول [١٦٤/و] البشريّة.

فمن كان بهذه الصفة فهو موفّق في الدنيا، وسعيد في الآخرة، ومن قدح في العقائد، وتخطّى الشرائع، وتعدّى أوامر الله، وألقى حبله على **غاربه**(١)، ومضى مع هواه وشهواته، واشتهر بالاستهتار؛ كان سيّئ الحال في الدنيا، شقيّاً في الآخرة، ولو أقبلتْ عليه الدنيا كان ذلك أوكد في شقائه في الآخرة.

وصناعة الطبّ صناعة تَقتضي لأهلها عند الناس ـ ولو أنهكوا أبدانهم عبادة ونُسكاً وصوماً وصلاةً، ووضعوا الكتب في تصحيح العقائد الشرعيّة، لَما نُسبوا مع ذلك كلّه إلّا إلى الانحلال في العقائد والاستهتار [١٦٤/ظ] في العبادات، وتعلّق الذمّة في المعاملات.

---

(١) الغارب: أعلى مقدّم السنام، أو ما بين السنام والعنق. (لسان العرب). ويقال لإطلاق الرسن إذا أهمل البعير: طرح حبله على سنامه. ومعناه أمرك إليك، اعمل ما شئت.

أمّا العقائد:

فإنّه الشائع عن الأطبّاء أنّهم لا يعتقدون قيامة الأجساد، بل ولا معاد الأنفس، كما يعتقد الفلاسفة، بل يزعم الناس أنّهم يذهبون إلى أنّ النفس عبارةٌ عن الهواء المستنشق أو الدم، وأنّها تتولّد من لطيف بخار الأخلاط، وتغتذي بالنسيم كحال سائر الحيوان، وأنّ تلك الروح لابد لها أن تنطفئ وتفنى بفناء مادّتها كما يفنى السراج لفناء الزيت؛ وهو الموت الطبيعي. أو تختنق، أو تعود، أو تنبسط فتتلاشى لأسباب مختلفة؛ وذلك هو **الموت الاخترامي**[١].

[١٦٥/و] وأنّ علْمَهم لا يقتضي لهم أن يعقلوا وراء ذلك شيئاً آخر، ولا ينسبون أفعال الإنسان كلّها إلّا إلى قواه المحمولة على تلك الروح، ولا أخلاقه وإدراكه إلّا إلى مِزاج عناصره المخصوص، كما اقتضى مِزاج كلّ حيوان له؛ أخلاقاً وإدراكاً،

---

(١) للوقوف على هذا لابد من إيراد ما جاء في كتب الطب القديم بمختلف الآراء العلمية والشرعية. (ينظر اصطلاحات الطب القديم).

الأجلُ: الطبيعي عند الأطباء عبارة عن انطفاء الحرارة الغريزية لانطفاء الرطوبة الغريزية، والأجلُ العرضيّ هو أن لا يكون انطفاء الحرارة بانطفاء الرطوبة؛ ويقال له الموت الاخترامي.

الموت: عدم الحياة عمّا اتصف بها، وقيل: هو تعطّل القوى بالانطفاء، وقيل: هو ترك النّفْس استعمال الجسد. والمُوات: بالضمّ، الموت، والمَوْتة: المرّة، والمِيتة: الحالة .**والموت الطبيعي**: هو انقضاء الرطوبة الغريزيّة بالأسباب اللازمة الضروريّة، ويقال له: الموت الاقتراني أيضاً، **والموت الاخترامي**: هو انطفاء الحرارة الغريزيّة لا بأسباب ضروريّة، بل بعارضٍ؛ كقتل، أو خنق، أو سقطة ونحوها، والقائلون باخترام الآجال هم المعتزلة، والطبيعيّون من الحكماء، ومعتقد بعض العلماء أنّ الجميع بأجل قدر الله تعالى، لا يتقدّم ولا يتأخر. **والموت الأحمر**: القتل، لما يحدث عنه من الدم. (اصطلاحات الطب القديم).

ولا يعرفوا نفْساً ناطقةً، ولا عقلاً مجرّداً عن الهيولى، بل عِلْمهم مقصورٌ على ما وصفناه، منقطعٌ عمّا وراءه.

وأنّهم يرَوْن أنّ هذا البدن إذا انحلّ تركيبه عاد إلى عناصره، وذهبت عنه[1] البتّة، ولم يبْق منه شيء، فعلْمهم وقف على النظر في التراب، وما يقوم عنه محجوب عن النظر في العالَم العلوي.

وأنّهم ليسوا ممّن [١٦٥/ظ] يعتقد أنّ هذا الجسد سوف يعود، لأنّهم لا يطّلعون على أصول الكائنات وعللها، وتعلّق العوالم بعضها ببعض، ووصول القوى العالية إلى العالَم السفلي وتعود بما فيه، وتدبيرها له، ووجودها قبله، وبقاؤها بعدَه ـ كما تعرفه الفلاسفة، وإن عَرف واحدُهم شيئاً من ذلك فليس هو مِن علْمه، بل مِن عِلْم آخر.

وأمّا كلامنا في الطبيب خاصّة، ومن كثرة ما يُشاع ذلك عنهم، نظَم فيهم بعض الشعراء، وقد قيل: إنّ الشافعيّ ﷺ قال:

زعَم المنجّمُ والطبيبُ كلاهُما ... أنْ لا معادَ فقُلتُ: ذاكَ إليْكُما

[١٦٦/و] إنْ صحّ قولُكما فلستُ بخاسرٍ ... أو صحّ قولي فالوبالُ علَيْكما[2]

---

(١) بالأصل عينه.

(٢) البيتان في (الفتوحات المكية لابن عربي ج١ ص٤٧٠) ولم ينسبهما، وهما:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تُبعث الأجسامُ قلت إليكُما

إن صحّ قولُكما فلستُ بخاسر ... أو صحّ قولي فالخَسارُ عليكما

وهما أيضاً في ديوان أبي العلاء المعري ضمن قصيدة (اللزوميات- لزوم ما لا يلزم ج٢ ص٣٠٠)

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تُحشر الأجساد قلتُ إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسر ... أو صحّ قولي فالخسارُ عليكما

وقد اشتُهر عن جالينوس كبير الأطبّاء أنّه خالط **الرُّواقيّين**[١] الفلاسفة، وأظهر أنه فيلسوف، فكان أولئك يجتمعون في أوقات معلومة، ويذكر كلّ واحد من الجماعة ما صحّحه من الآراء في اللاهوت وفي النفْس، فانبرى جالينوس من الوسط وزعم أنّ النفس عبارة عن جوهر البخار اللطيف الصافي المتولّد عن الدم، ولمّا سمعوا منه ذلك وعلموا أنّه بعيدٌ عن الحقّ، متظاهرٌ بما ليس من أهله، أمروا بإشهاره في الرواق، ليتحفّظوا من سوء مذهبه.

[١٦٦/ظ] وقديماً رأى الناس من هذه الطائفة صبياناً هوجاً أخِفّاء، يتباهَوْن بالانحلال عن العقائد ويستهترون بها، ويتبلّهون بالمتشرّعين، ويزعمون أنّهم أغماراً[٢] قد حمل على رقابهم تبرئة[٣] يكف شرّهم ويستعملهم في الأجرات[٤] والعمارة، وينحطّون إلى أكثر من هذه الأقوال ـ **أعاذنا الله من مخالطتهم.**

كلّ ذلك لظنّهم أنّهم من العلماء، أو لكي يظهر بذلك أنّهم من الحكماء، ولا يعلمون أنّ الفلاسفة الطبيعيّين الذين علمُ الطبِّ حصريٌّ لعلمهم، بل الفلاسفة الإلهيّين الذين قضَوا أعمارهم في البحث عن الحقّ؛ **كفيثاغورس** أبي الحكماء، **وديوجانس، وأنبادقلس**[٥]، [١٦٧/و] **وسقراط** الربّاني، **وأفلاطون** الإلهيّ، وغيرهم

---

(١) الرواقيون: تلاميذ زينون الفيلسوف لأنه كان يعلّمهم في رواق. وقيل: شيعة من اليهود يعتقدون بالتقدير والتناسخ (تكملة المعاجم، ومحيط المحيط).

(٢) الغَمْر: من لم يجرب الأمور، وجمعه أغمار. (كتاب العين للخليل).

(٣) لعلها كذا.

(٤) لعلها كذا.

(٥) إن كان يقصد ذيوجانس الكلابي الفيلسوف اليوناني من جملة أصحاب الفرق السبع من فرق حكماء يونان، فلم يكن على هذه الصورة، ينظر ترجمته في (إخبار العلماء بأخيار الحكماء للقفطي ص١٢٥). =

من المحقّقين، زهدوا في الدنيا، وكانوا جياعاً عراة، ثمّ لم ينالوا من معرفة الحقّ ما هو بالنسبة إلى ما كشفه الله لأنبيائه وأتباعهم المؤمنين الصادقين إلّا كالنقطة في البحر العظيم.

فهذا حالهم عند الناس في الاعتقادات، وأشدّ من ذلك أنّ الناس يخلطون الصالح منهم بالطالح.

وأمّا العبادات:

فالطهارة[1] متعذّرة على الأطبّاء، لِما ذكرناه فيما سلف من ملامستهم النجاسات، فإن تطهّروا وصلّوا فإنّما يصلّي منهم من تأدّب بالديانة واعتادها قبل دخوله في الطبّ، وإن صلّى الباقون [١٦٧/ ظ] فأكثر صلاتهم قضاء، لأنهم لا يملكون أنفسهم في أوقاتها، وإذا دُعي أحدهم لدرهم رجّحه عليها، وقدّمه وأخّرها.

وأمّا الصوم؛ فإنّ المبجّلين منهم يجوعون مع النّاس، متنكّرين به خوفاً على

= أنبادقليس: لعله إبيذقليس: حكيم كبير من حكماء يونان، وهو أول الحكماء الخمسة المعروفين بأساطين الحكمة وأقدمهم زماناً، والخمسة هم إبيذقليس هذا ثم فيثاغورس ثم سقراط ثم أفلاطون ثم أرسطوطاليس. فأما إبيذقليس هذا فكان في زمن داود النبي عليه السلام، وقيل: إنه أخذ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام ثم انصرف إلى بلاد اليونانيين. (إخبار العلماء بأخيار الحكماء ص١٢). في (مسالك الأبصار ٩/ ٢٢): بندقليس (٤٩٥ـ ٤٣٥ ق.م)

(١) بالأصل فالطاهر.

انحراف أمزجتهم .**وأمّا الزكاة**؛ فإنّهم كما قيل: «حوالينا الصدود ولا علينا»[١]، بل هم ممّن يستحقّ أن يعطاها، لأنّهم بياض المكاديّة.

وعلى الجملة فلو صلّوا وصاموا وزكّوا، وطاروا في الهواء، ومشَوا على الماء لكان في النفوس تردّد في إسلامهم، أو في أنّ لهم دِيناً ما، ولاسيّما الغالب على صناعتهم اليهود.

ولقد كان يشتغل معنا بالطبّ رجلٌ فقيه، ولم يكن في الفقهاء ملحوظاً [١٦٨/و] بالدِّين، بل كان عندهم مستهتراً، ولا نال ما ناله الفقهاء من العدالة والتصدّر، وكان على غاية الفقر، وكان ذكيّاً فحصّل من الطبّ وترجّح به على أقرانه، وسعى غيرُه من رفقته في الاشتغال، وحصّل الإذن بالتصرّف، وطبّ الناس وكسب الدراهم، وذلك الفقيه لا ينبسط إلى ذلك ولا يفرح عليه، فسألته عن السبب فقال: لم أجد من نفسي مطاوعة ولا مسامحة بأن يذهب عنّي اسم الفقيه وأسمَّى بالطبيب أو الحكيم، أعوذ بالله أن أفعل ذلك ولو متّ جوعاً. فعلمت منه أنّ مرتبة الأطبّاء عند الفقهاء منحطّة في الدين.

وأخبرني الصادق عن قاضٍ [١٦٨/ظ] غير واثقين بطهارته، وأنّ صلاتهم لا تصحّ بإمامته.

فهذا حال الطبيب في العبادات، ومرتبته عند الناس فيها.

---

(١) أصل الحديث للرسول ﷺ حين شكا إليه الصحابة المطر الذي هدم البيوت، فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والظراب، وبطون الأودية» فجعل السحاب يتقطع يميناً وشمالاً .

وأمّا المعاملات:

أمّا في المال؛ فقد سلف لك ما وصفته من غشّ بعضهم، وحيلته على سلب الدراهم بالسَّفوفات والمعاجين والأشربة والأقراص والسُّمنة[1] والفرزجة وغير ذلك، ومواطأة العطّارين على أرذل الأدوية وشكرها، واتفاقهم مع الدايات على سلب بيوت الأكابر بالسُّمَن **والغُمر**[2]، وربّما تعدَّوا ذلك إلى ما يُحبّب المرأة إلى بعلها وغيره، وإلى أشدّ من ذلك من منع الحبَل، وإسقاط الأجنّة من غير توقّف طلباً للسُّحت، وربّما [١٧٠/و][3] احتالت عليه القابلة فادّعت أنّ امرأة ولدت ثمّ تعوّقت المشيمة، وتعطيه نصف درهم فيكتب لها بما يخرج المشيمة، فتستعمله لإسقاط الأجنّة. وربّما تحيّل عليه بعض المكّارين واستخبره عن ذكر الأدوية القتّالة التي نُهي عن إظهارها. **وهؤلاء فليسوا في الحقيقة أطبّاء**، بل أهل حِيَل وعزيمة[4].

وقد رأيت من هذا الصنف من ينتهي في القساوة إلى أن لا يرى للفقير ولا للمسكين والأرملة واليتيم، بل يسلبهم قوت يومهم لأجل ضرورتهم. ولقد أخبرتني امرأة أرملة كانت دعتني إلى مداواة ابنتها قالت: [١٧٠/ظ] أتاني فلانٌ

---

(١) السُّمنة بالضم: دواء يتّخذ للسمنة. والفرزجة: دواء يحمل في قبل المرأة (اصطلاحات الطب القديم- من تأليفنا).

(٢) **الغُمْر والغُمْرة** بالضّم: هي ما يُطلى به الوجه من الدّواء الجالي، يقال: غمّرتْ المرأة وجهها، وهو طلاء مركّب يتّخذ من الزعفران أو الكركم، يجلو الوجه ويبيّضه. (اصطلاحات الطب القديم).

(٣) الخطأ في ترقيم الورقة بالأصل كذا.

(٤) كتب فوقها بخط مغاير: وغربة. (الكلمة غير منقوطة في الأصل والتصحيح).

الطبيب، فزعم أنّ ابنتي لا تبرأ إلّا بشراب مُدبَّر، وأنّ قيمته عشرون درهماً، وأنّه لا يصف شيئاً غيره ولا يكتبه، بل يعْلمه ويحضّره، فمن شدّة الخوف على الولد نزعت مِقْنَعة(١) الصبيّة ـ ولم يكن لها غيرها، وقنّعتها بخلقة(٢) وأعطته المِقنعة ليبيعها، فأخذها وانصرف، وعاد من الغدِ ومعه بَرنيّة(٣) فيها رطلان من الشراب، وكان بجوارنا رجلٌ من رسل الولاية، فأخبرتْه زوجته بحالنا، فرقّ لنا وأخذ البَرنيّة وأعرضها على أرباب الخبرة من العطّارين، فأخبروه أنّها شراب أصول، وقيمتها ثلاثة دراهم، هذا وليس [١٧١/و] لنا ما نأكله، فمضى إلى الطبيب وتهدّده ـ وكان يهوديّاً، فخاف منه وأحضر المِقنعة بعينها وأعطاه الشراب، وتصدّق علينا ذاك الرسول بنفقة وتعصّب لنا. فانظر كم بين الشرطيّ في الشفقة، وبين ذلك المسمِّي نفسه طبيباً.

وأشدّ ما على أفاضل الأطبّاء اشتراكهم مع أمثال هؤلاء في الاسم والصناعة، وهم على ما وصفناه من قلّة الدين.

ومن أمثال هذه الحكاية كثير، ولذلك كثرت اليهود في هذه الصناعة، لأنّ دينهم(٤) لا يؤاخذهم بغشّ الغريب(٥) من ملّتهم(٦)، حتّى إنّ شريعتهم تنهى عن الربا

---

(١) المقنعة: ما تغطي به المرأة رأسها. (لسان العرب).

(٢) بالأصل بحلقة بدون نقط.

(٣) البَرْنِيَّة: إناء من خزف، وقيل: هي من القوارير، وقيل: البَرني قدح. (اصطلاحات الطب القديم).

(٤) يقصد هنا المؤلف دينهم المحرف.

(٥) انظر في المقابل إلى شريعتنا المحمدية حيث يقول رسولنا ﷺ: «من غش فليس منا».

(٦) الكلمة بالأصل: مثلهم. ومصححة كذا في الحاشية بخط مغاير.

إلّا مع الغرباء[١]، وقد أخبر سبحانه عنهم بذلك في [١٧١/ظ] قوله: ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]، وفي قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، وفي قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢].

ولمّا كانوا ضعفاء عن المقابلة تحيّلوا بمكرهم على صناعةٍ يمكنهم فيها أن يضرّوا الناس ويؤذوهم في الخفاء، وإن لم يتعمّدوا ضررهم، لم يتوجّعوا لوقوعه ـ بخلاف المسلمين المشفِقين، ولهذا السبب؛ وهو أنّ الأطبّاء هرب أكثر المسلمين من هذه الصناعة[٢]، واستولى عليها اليهود، ولم يُقْدم الناس على خطر أشدّ من استعمالهم اليهود في الطبّ، [١٧٢/و] وهو أمرٌ مجهول يقلّدون فيه اليهودي نافعاً كان أم ضارّاً، مع أنّه عدوّ ومذهبه ضرر العدوّ، وناهيك لم تشاهد ذلك منهم بأنك كما قيل: «**ليس المُغَرَّر محمود وإن سلما**»[٣].

وإنّما أنفَقُ الأطبّاء من اليهود عند الناس أكثرَ من غيرهم لهذا السبب؛ وهو عدم الشفقة عليهم، وترك الحرص على مصالحهم، فتجدهم يوافقون المريض وأهلَه على آرائهم ولو كان فيها عطب المريض، فإنّ ذلك أحبّ إليهم من سلامته، ولاسيّما إذا كان في موافقتهم تأليفٌ لهم وفائدة منهم، وقد يلجئ بعض المسلمين للضرورة

---

(١) وكذلك الزنى.

(٢) وفي ذلك القول المشهور للإمام الشافعي: «العلم علمان، علم الأبدان وعلم الأديان».

(٣) ورد القول في (نهاية الأرب ج٢ ص١٨٧): «فما المغرر محمود وإن سلما». المغرر: هو الذي يعرض نفسه للهلكة.

وتحملهم الغبينة[1] حتى يصحّون فلا يقبل منهم [١٧٢/ظ] ويُبعدون، ويُقبل من اليهود غشّهم ويُقرّبون، ولاسيّما إذا كان دينهم ضعيفاً، وحاجتهم شديدة إلى أن يتشبّهوا باليهود في ذلك، إلّا أنّ اليهود يغلبونهم باحتمال الإهانة[2]؛ فلو صُفع أحدُهم لقال لصافعه: «حاشاك يا سيّدنا، كم يتفضّل صفعك على رأسي»، وإذا لعنه قال: «لَعِينُكَ إكرام»، فيخبث عليه.

ولذلك علّموا الناس أن يهينوا الأطبّاء قاطبة، وأن يظنّوا فيهم الخبث والمكر والأذى، فإذا اجتمع في طبّ مريض مسلمٌ ويهوديٌّ هرب المسلم من الإهانة[2] والأذى والخوف على دينه وعرْضه، وثبت اليهودي وحده، فهُم لذلك [١٧٣/و] أنفق وأكسب.

فهذه رذائل الطرقيّة منهم في المعاملة في المال.

وأمّا المتحرّز المقتنع بأُجرته فإنّه لو ناقش نفسه من حيث الدين لما حلّ له أن يتناول أجرة؛ أمّا أوّلاً فلأنّه عملٌ لا عين له، بل كشهادة العدل، وفتيا الفقيه، لا أجرة عليها، ولذلك يحتجّون بقولهم: «إنّ الأجرة حقّ الركوب»، وههنا جائزة، لكن إنّما يُعطاها على عمل هو برء المريض، فكان يجب أن يؤخّرها إلى حدّ برئه لو كان من أهل التحقيق ووهبنا ذلك له، وأنّه يتناول أجرة عمل يومه وأنّ البرء ليس بيده لكن عليه أن يعمل اجتهاده، فلو جاء فقيه على أنّه عمل عملاً يعلم أنّه بلغ غاية [١٧٣/ظ] الاجتهاد فيه، وأنّه سالم من نقص أو عيب يضع من الأجرة، لم يقدر على إثبات ذلك، فهو في تناول الأجرة من غير احتراز أو محاسبة لنفسه على ما يستحقّه وما لا يستحقّه منها مُساغ لنفسه بخلاف أهل التحقيق.

---

(١) الغبينة: الاسم من الغبن..

(٢) رسْمُها بالأصل: الإهنة.

وأمّا معاملته في صناعته المطلوبة منه؛ فلو كان عنده أدنى طرف من الدين، وبذل له ملك الأرض على مداواة الصداع الحارّ لما أقدم على ذلك خوفاً من الله ومن خطر المداواة، ولعلمه أنّ الإنسان في جميع أقواله وأفعاله وصنائعه لا يخلو من السهو والغلط، وأنّه محاسَب [١٧٤/و] عليه من سريع الحساب.

فما لنا(١) ولصناعةٍ يُطالَب الغالط فيها بعطب أنفس الناس، وإنْ لم يُعطب أورث مرضاً مزمناً، أو أحدث في بعض الأعضاء آفة تمنعه من كمال أفعاله لقلّة نظره في العاقبة؛ كالذي سقى دهن اللوز في جرد(٢) الكلى فأورث لصاحبه ديابيطس، وكالذي سقى الكافور بإفراط في الحمّى فقطع النسل، ومثل الذي قطع السبَل فأصاب إحدى العضل المحرّك للمقلة فأورث لصاحبها الحوَل، وكمن يبرّد في الحمّيات تبريداً مفرطاً شرهاً(٣) في المقابلة والضد، وذهولاً عن أنّ الحياة بالحرارة، وأنّ جالينوس

(١) هذا ما وقع لكثير من أطباء المسلمين، وهو خطأ فادح ولكن الأحرى أن يثبتوا بأخلاقهم وصبرهم وتفانيهم في خدمة المهنة التي أقسموا على برها، وبالمقابل على الحاكم أن يحمي هؤلاء من تعرضهم للفقر والإهانة، وتأمين الحياة الكريمة لهم، ويكون ذلك أولاً بإنهاء العلاقة المادية المباشرة بين الطبيب والمريض، بل تكون من قبل جهات تؤمن الطرفين، كما هو الحال حالياً في معظم الدول.

(٢) جرد: كذا بالأصل، والجرد لغة هو إزالة الشيء عن الشيء بقوة، وذلك يماثل قروح الكلية وتسحجها (القانون ج٢ ص٦٨٣).

ولعل المقصود جرب الكلية: وهو من جنس قروحها، وأسبابه في الأكثر بثور تظهر عليها ثم تتقرح (القانون ج٢ ص٦٨٦).

(٣) كذا مصححة بقلم مغاير، ولعلها بالأصل: مدهشاً.

[١٧٤/ظ] أعطى حساء الشعير المبزّر[1] بالفلفل وغيره في الحمّيات البلغميّة، ونهى عن استعمال البارد الصرف حذراً على الحرارة الغريزيّة، فيبرّدون الكبد جدّاً، ويقع صاحبها في سوء القِنْيَة[2].

وكمن يخفّ في الأدوية المسهلة الحادّة، المُنكية للأمعاء الضعيفة جِبِلَّةً أو مرضاً، فيقع في الدوسنطاريا، وكمن يفرط في الاستفراغ ولو بسبب الرمد، فيوقع في **الدقّ**[3]. وكمن يسرف في **تغرية**[4] الرئة من صاحب السعال فيوقع في الربْوِ، أو ببثق عرقٍ فيوقع في السلِّ. ولقد شاهدت من سقى صاحب سعالٍ غراءَ السمك[5] فارتبك، وحاولت الرئة دفعه عنها [١٧٥/و] فانبثق فيها عِرْقٌ وانجرحت ووقع في السلّ ومات.

---

(١) المبزر: الذي فيه الأبازير الحارة، والأبازير هي جمع الأبزار كالفلفل والكمون والشمرة وغيرها. (اصطلاحات الطب القديم).

(٢) **سوء القِنية**: القِنية بالكسر، عند الحكماء هي المُلْك، وهو كون الشيء بحيث يحيط به، وينتقل بانتقاله؛ كالتعمّم والتلبّس، وجلد الإنسان محيط به، فينتقل بانتقاله، وهو في هذا المرض يسوء حاله، ولذلك يقال في هذا المرض: سوء القِنية، وإن كان الاستسقاء أَوْلى بذلك الاسم، لكن لمّا اختصّ هو باسم خاصّ، فيبقى هذا الاسم خاصّاً بهذه الحالة، وهو مقدّمة الاستسقاء. وقيل: هو فساد في المزاج، يبتدئ من الكبد في الأكثر، ثم ينتشر في جميع البدن، فتتهيّج له الأجفان والأطراف. (اصطلاحات الطب القديم).

(٣) الدِّقّ؛ المراد به ضرب من الحمّى يدق بها البدن ويذبل. (اصطلاحات الطب القديم).

(٤) التغرية: هي إعطاء الأدوية المغرّية التي من شأنها أن تحدث لزوجة. (اصطلاحات الطب القديم).

(٥) غَرا بالفتح، وغِراء بالكسر والمدّ، إذا فتحت الغين قصرت (غرى)، وإذا كسرت مددت: ما يُلصق به الورق والجلد والخشب، وهو كل رطوبة لعابيّة لها قوّة إلصاق كالصمغ والنشا، وإذا أطلق أريد منه غراء السمك، وغراء الجلود. (اصطلاحات الطب القديم).

وصبيّة سُقيت أوقيّة كثيراء[١] بيضاء لتسمن، قبل أن تدخل بدنها وتنتفخ فامتلأت رئتها ونفثت بالسعال دماً وتقطّعت الرئة قطعاً وخرجت بالنفث وماتت.

وكالذي شكا حرقة البول، وكان عن حِدّته، فوصف له الحسك[٢] والنجيل والبزور ظنّاً أنّ كبر حصاة، فاجتمع كثرة الأكدار واتّحدت، وجُرحت الكلى، وبال الدم وانتقل إلى المِدّة، وطال به الأمر.

وكالذي شكا سلس البول فظنّه الطبيب عن بلغم انحلّ، وكان لضعف كلاه وضعف ماسكتها، فسقاه مثاقيل من **لوغاذيا**[٣]، فذابت كلاه [١٧٥/ ظ] ورأيتها تخرج من فمه بالقيء ومات، وإنّما خرجت من فمه بعد أن عرض له عسر البول، وكان ما ذاب من الكلى اجتمع في البربخ وغلظ وسدّ طريق البول.

ولقد دقّقت النظر في خطر هذه الصناعة إلى أنْ علمتُ أنّ الطبيب قد يُخطئ خطأً يكون سبباً للعطب بعد سنة واثنتين، وبعد عشرين سنه؛ فأمّا السنة؛ فإنّ امرأة شكت رطوبة في الفرج، فوُصف لها المجفّفات والقوابض بإفراط، فانضمّ منها عنق الرحم انضماماً شديداً، واكتسب صلابة وصار كالمتشنّج، واتّفق أن حَمَلَتْ وبلغتْ الوضعَ، فعسر عليها الطلق أيّاماً وماتت ولم تلد.

---

(١) كثيراء: نوع نبات.

(٢) الحسك: نوع نبات.

(٣) إيارَج لوغاذيا الحكيم من تلامذة أسقليبيوس، كان مباركاً حاذقاً فاضلاً، واشتهر بهذا الدواء في أيّامه. ومنه أيضاً معجون لوغاذيا، ومعناه ما خاب من استخدمه. (اصطلاحات الطب القديم).

ورجلٌ محرور المِزاج شكى من [١٧٦/و] عِرْق النَّسا[١]، فسُقي الفَرْبَيون[٢] مرّات، فانفتحت له أفواه العروق وجرى منه دم كثير، وأقام بذلك عشرين سنة حتّى فسد مِزاجُه واستسقى ومات.

ورجلٌ شيخ سُقي شحم الحَنْظَل غير محكم الإصلاح، فتشبّث بخمل معدته وأمعائه، واستمرّ به الإسهال سنين فأضعفه، ومع ذلك ورمٌ في المعدة، فمات بهما. وإن أخذتُ أنْ أعدّد ما يقع من هذه الغلطات اطلب وأطنب.

وأمّا غلطات الكحّالين والجرائحيّة والمجبّرين والآسية[٣] فلا تحصى، ولذلك

(١) عِرْق النَّسا: بكسر العين وفتح النون، قبالة الصّافن، هو عِرق يمتد على الفخذ من الوحشي إلى الكعب، وقد يُطلق عرق النَّسا على وجع النَّسا؛ وهو اسم المرض والألم الذي يكون في مفصل الورك ويمتدّ مع وحشيّ السّاق وربّما اتّصل بالقدم، لكنّ العادة جرت بأن يُسمَّى وجع النَّسا بعرق النَّسا، وتقدير الكلام؛ وجع العرق الذي هو النَّسا، إذ النَّسا اسم لهذا العرق بالفتح والقصر، فإضافة العرق إليه للتبيين، مثل إضافة الشجر إلى الأراك. (اصطلاحات الطب القديم).



(٢) فَرْبَيون، بفتح الفاء والباء وبينهما راء ساكنة: صمغ معروف. (اصطلاحات الطب القديم).

(٣) الأَسْوُ: علاج الطبيب الجراحاتِ بالأدوية والخياطة، أسا يأسُو أسواً، وهو الآسي. (العين).

نُهوا أنْ يعملوا أعمالاً إلّا بحضور الطبيب، لأنّهم كالخدّام له؛ فكم برَد الكحّال وغلط في الأرماد فأورث السبَل [١٧٦/ ظ] والجرب[١] (والبهار)[٢] وغلّظ البيضيّة[٣]، وسدّد طرق الروح[٤] وأذهب البصر.

وكم بطَّ الجرائحي سرطاناً فأهلك صاحبَه، وأبطأ في بطّ **أوذيما**[٥] فأكلتْ المِدّة ما تحتها من عصب، وفسد العضو وبطل حسّه. وغير ذلك كثيراً جدّاً.

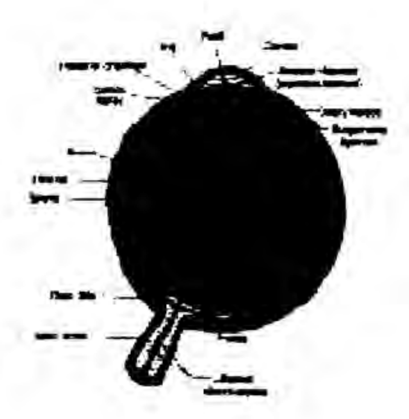
---

(١) يقصد جرب الجفن؛ وهو خشونة فيه، من أسبابها التراخوما.

(٢) كذا، ولم نتحققها. لعلها البثر، أو الحفر.

(٣) بالأصل المضيئة، ومصححة بغير خط كذا.

الرطوبة البيضيّة: هي رطوبة شبيهة ببياض البَيْض لوناً وصفاءً وقواماً، ولذا سمّيت بها. Aqeous humour.



(٤) يقصد الروح الباصر، وهو العصب المجوف، وفي الطب الحديث العصب البصري Optic Nerve.

(٥) هي الوذمة أيضاً في الطبِ الحديث Edema.

فمن يرضى أن يكتسب من صناعة هذه غلطاتها[١] إلّا من لم يخَفْ من المعاد والحساب، وعسى أن يكون الحامل للأطبّاء على إنكار المَعاد، وليس في علمهم ما يبيّنه أو ينفيه؛ إنّما تولّد عن الخوف من تبعة هذه الغلطات.

وكان الطبيب إذا وقعت منه أوّل غلطة؛ هالَهُ ذلك جدّاً، وجبُنَ عن الطبّ، ثمّ يلجئه [١٧٧/و] طلب المعاش إلى الطبّ، فإذا وقعت له غلطة ثانية لم تهُلْهُ كالأوّل، والثالثة تهون أكثر، ثمّ يتجلّد على ذلك، ويقسو قلبُه، ويضرى كما يضرى الغاسل، ويشري عن نفسه الهمّ بإنكار المعاد والحساب.

ومن اليهود من يضرّ الناس طلباً للمعاش، وميلاً لما يرضي النساء ممّا يؤدّي إلى عطبهنّ، بما يصفه من السُّمنة التي توافق آراءهنّ، لا التي على رأي الأطبّاء، ممّا قد سمعه من امرأة أخرى أو قابلة، علماً منه بأنّ ذلك لابدّ وأن يكون قد نُمي إلى تلك الامرأة من غيرها، فإذا وصفه لها سُرّت به وقطعت بعلمه، إذ يقول لها: عليك بغذية[٢] من ميعة[٣] [١٧٧/ظ] وأنزروت[٤] وكثيراء بيضاء وإهليلج أصفر[٥] وهندي،

(١) إن أخطاء الطب الناجمة عن عدم خبرة الطبيب وجهله يحاسب عليها شرعاً، أما الأخطاء التي قد تحدث مع أي طبيب دون إهمال، أو أي اختلاط يحدث بالرغم من اتخاذ الطبيب كل الاحتياطات اللازمة، فلا يحاسب عليها. ثم هناك الخطأ الجسيم، والخطأ البسيط الذي لا يتولد عنه عاهة دائمة، فالأول إذا كان عن تقصير وإهمال يحاسب عليه. ولا تخلو مهنة الطب من الاختلاطات والمخاطر والأخطاء، ولا يجب أن يمنع ذلك من الابتعاد عن مزاولة المهنة وتركها للعابثين والمتلاعبين من غير ذوي الالتزام بالشرائع والقيم والأخلاق والنواميس.

(٢) لعلها كذا.

(٣) الميعة: هي عسل شجر اللبنى.

(٤) أنزروت: اسم فارسي لصمغ معروف.

(٥) أضاف بخط مغاير: وبندق ولوز وقلب فستق.

وعُكنة ومستعجلة(١) وحبّ الغول(٢) بالأواق والأرطال، فيخلط المسهل العاصر باللبوب المسدّدة، فأوّل ما تنحلّ القوّة المُسهلة للطافتها، فتنفذ للعروق والمجاري فتحرّك الأخلاط، فإذا تحرّكت للخروج وافتها اللبوب المسدّدة في الطريق بعد أن تزعزعت من مواضعها وزادت فيها القوّة القابضة في الفتحات فوقفت المسدّدات في الوسط والقابض خلفها كالرباط يمنعها أن يدفعها الخِلط المتحرّك، وتمنعه المسدّدات أن يجري، فيقف الكلّ كالسدد في مجاري الروح [١٧٨/و] فيكون صاحبها كالمخنوق، فإنّ الروح تختنق في جميع المجاري، وإن كان اختناقها يسدّ السباتيّين أوحى موتاً(٣)، لكونهما من القلب، والدماغ للتنفس.

فإذا سمعت المرأة هذه الصفة أعجبت بالطبيب، وخصوصاً إن حلّى الوصف بألفاظ النساء؛ إذ يقول: «يا ستي، هذا دواء طائل، عافية في البدن، استعملته فلانة وكانت تسلّ من طوقها، هي اليوم الأحباب شحم ولحم مثل الخمر واللبن»، وما أشبه ذلك من ألفاظ النساء.

وأمّا من يسهو فيكتب بدل الأفثيمون(٤) أفيون، وبدل ثلث درهم محمودة

---

(١) العُكنة: هي السورنجان Colchicum، نبات. (معجم النبات ٥٤/ ٣). مستعجلة: نبات خصى الثعلب، بو زيدان Orchis hircine (معجم النبات ١٢٩/ ٨).

(٢) حب الغول: الفستق الشرقي، شجرة صمغها هو المصطكى Pistacia lentiscus. (معجم النبات ١٤١/ ١٢).

(٣) أوحى موتاً: يقصد سبب الموت الوحي، وهو السريع.

(٤) الأفثيمون: اسم يوناني لنبات معناه دواء الجنون Cuscuta epithymum (معجم النبات ٦١/ ٦).

ثلاث دراهم، ويدقّ البزر قَطُونا[١] [١٧٨/ظ] مع البزور؛ فذلك ليس ممّا بعضهم[٢] منه.

وأمّا سقي الأدوية في البُحرانات[٣] وإشغال الطبيعة عن القتال ومضادّتها في جهة مثل المادّة؛ فذلك ممّا لا يُحترز منه، إذ قد يقدم البُحران ويتأخّر، فيصادفه الطبيب بالدواء، ولاسيّما إن لم تَطُلْ له علامات، ولو طالت لم يكن الطبيب ملازمَها فيراها، ولا المريض وأهله يفقهونها فيخبرونه بها.

وممّا رأيت من الموت الوَحِيّ[٤] أنّ امرأة مالت المادّة فيها إلى جهة القيء أتعبتها، وهي وأهلها يضجّون عليّ ويلتمسون قطعَه، وأنا أُنكر ذلك، وأُعطي المعدِّل للصفراء، والمبرِّد فقط، [١٧٩/و] وأستدعي انحدار الطبع ليخفّ القيء قليلاً، وظنّوا أنّني لم أعرف الصواب، فاستدعَوا بطبيب آخر، والتمسوا منه قطع القيء، فأعطاها لباس الفستق وجُفت البلّوط[٥] في شراب الحصرم والرمّان

---

(١) بزر قطونا: حب البراغيث، نبات Plantago psyllium (معجم النبات ١٤٣/ ٤).

(٢) كذا بالأصل، ومصحح فوقها بقلم مغاير: يعصم.

(٣) كذا بالأصل، والمستعمل في الطب القديم: البحارين، جمع بُحران.

(٤) **الوحِيّ**: على مثيل السريع، يقال: موت وحِيّ. وَحَىً: هو السّرعة. (اصطلاحات الطب القديم).

(٥) **جُفت البلّوط**، بضم الجيم، وجُفّة البلّوط: هو جلده الرقيق الذي يلي جرمه تحت الجلد الغليظ، وهو قشره الداخل. (اصطلاحات الطب القديم).
ولعل لباس الفستق أيضاً هو قشره الداخل.

الحامض وربّ الريباس[١] والآس، فامتنع القيء والطبع جميعاً، واختنقت في تلك الليلة بعد انتفاخ بطنها، وأرادوا أن يحقنوها فما لحقوا، وماتت.

وأقلّ ما يقع من خطأ الطبيب أن يتقدّم فينذر بموت المريض، وإن كان ذلك معدوداً من حُسن صناعته، ويكون ذلك الإنذار غير محقّق، ومن أين له التحقيق في ذلك، ووراء ما يدركه أمور خفيّة جدّاً، وألطاف[٢] [١٧٩/ ظ] الله لا تُدرك، وأكثر ما يغلب الظنّ بأنّ هذه القوّة ضعيفة، وأنّ المادّة كثيرة ورديئة، والأعراض شديدة، والعلامات البُحرانيّة رديئة، وطبيعة المرض قتّالة، والمرض غير مسلَّم، فهذا أعظم ما يغلب الظنّ بموت المريض، ومع ذلك فقد يكون ضعف القوّة لثقل المادّة، وشدّة الأعراض وعلامات البُحران تكونان لاستجمام[٣] القوّة والهمّة لكفاح تامّ، فينهزم المرض، وتستولي القوّة لِما ذكرناه، ولِما يفوت النظر البشريّ من أسرار الطبيعة وألطاف الله، فينهض المريض.

(١) هذه صورة الريباس:



(٢) بالأصل واللطاف.

(٣) كذا ولعل الأصح لاستجماع.

فإذا أنذر الطبيب بموته كان [١٨٠/و] سبباً لأحد الأمرَين؛ إمّا إعراض أهله عن مداواته للإياس منه، فيفوته مداواة يجوز أن يكونَ برؤه فيها، وإمّا أن يفسحوا له فيما يشتهيه ممّا يعجّل بعطبه، فيموت بالتخليط قبل أن يموتَ بالمرض، فيكون مقتولاً ولو قبل موته بساعة.

ومن أمْر غلط الطبيب[١] أيضاً أن يقنط ممّن يستوصفه في الطريق، فيرى أنْ ينفعه بأيّ شيء اتّفق؛ فيقول له: «خذ له شراب الورد»؛ أي أنّه لا يضرّ، ويكون المريض محتاجاً إلى استفراغ في يومه، فيعتمد أهلُه على ما قال الطبيب ويفوته الاستفراغ [١٨٠/ ظ] ويختنق.

ومن ذلك أن يحضر عند المريض فلا يظهر له المرض البتّة، ويشتبه عليه، فلا يرى أن يُخجل نفْسَه ويعترف بالحق ويقول: «لم أعرفْ هذا المرض»، بل يصف كيف اتّفق ويضيّع على المريض مصلحة، ولا يفسح لمن هو أخبر منه ـ كما عليه باقي أهل الصنائع، ويستمرّ على ذلك إلى أن يموت المريض بدائه. وقد قنع الأطبّاء بالمثال المضروب: «غلطُ الطبيب إصابة المقدار»[٢]، وأنا أقول: «وكذلك غلط القائل إصابة المقدار أيضاً». ومع ذلك فعليه إثمه.

---

(١) بالأصل الطب.

(٢) القول لابن الرومي في إسماعيل الطبيب وقد سقاه دواء غلط فيه:

غلِط الطبيب عليّ غلطة مُورد ... عجزتْ محالتُه عن الإصدار

والناس يَلحَون الطبيب وإنّما ... خطأ الطبيب إصابة المقدار

(يلحون: يلومون)

(ديوان ابن الرومي ج٢ ص ١٤٦)

وما لَكَ وصناعة يكون فيها آلة الإصابة المقدار، [١٨١/و] وعندك آلة للعطاء والجود، وعمارة الأرض، ووضع السنن الجميلة، فإن قلتَ: «وقد ينتفع بي المريض ويبرأ من مرضه فأكون آلة للنفع»، فأقول: اسمع قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فما لَكَ ولصناعة إن تخلّصْتَ من الوزر فيها كنت رابحاً، وكانت المؤنة[1] عليك، فإنْ قلتَ: «ذلك ما أراده الله بي»، قلتُ لك ما قال سقراط حين مرض وعاده تلاميذه فقالوا له: «لا تجزع فإنّ هذا أمرُ الله»، فقال: «هو إذن أشدّ عليّ».

على أنّ الباري سبحانه أكرم وأرحم من أن يريد لعبده سوءاً، بل خلق له عقلاً [١٨١/ظ] يفرّق به بين الخير والشرّ، وقضى له أن يكون مختاراً لما أراد بينهما، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وكثير من آيات الكتاب العزيز دالّة على أنّ هناك أفعالاً، للإنسان أن يعملها وأن يتركها؛ وهي التي أعطي القدرة عليها بفكره وتمييزه وحركات نفسه وبدنه، وما عدا ذلك ممّا ليس ليفعله وتركه؛ كالحوادث السماويّة[2] والأرضيّة، فلا لوم

---

(١) بالأصل المانة.

(٢) بالأصل السمائية.

عليه فيها. وإن كان الكلّ بقدرٍ إلّا [١٨٢/و] أنّ الأفعال التي إليه عملُها قد قدّرت قدرته عليها، واختياره لما اختار منها، فهي في الأصل مقدّرة، وبالنسبة إلى اختياره متفوَّضة.

فمن عرف عقلَه وبادر بالدين، ثمّ رضي أن يكتسب بصناعة هي أكثر الصنائع غلطاً، والغلط فيها ليس كالغلط في النجارة فينفسد الخشب، أو في الحدادة فينفسد الحديد، أو غير ذلك، بل في الأنفس. فهذا قد رفض عقله ودينه وراء ظهره، وأباعهما بكسرةٍ ولونٍ لا يعدمهما عابد سائح في وادٍ قفرٍ غير ذي زرع. وما عداهما فمن مطالب الأطفال والنساء وجهّال الناس كبيتٍ مزخرفٍ، أو ثوبٍ موشّى [١٨٢/ظ] مطرّزٍ[(١)].

وهَبْهُ التذّ بذلك، فهل تفي لذّته وحلاوته أمداً قليلاً في الدنيا بمرارة عذاب الآخرة المؤبّد؛ قال الله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وجاء في الإنجيل: «**ماذا ينفع الإنسانَ لو ربح العالَم كلّه وخسر نفْسَه، وماذا يفدي الإنسانُ به نفْسَه**»[(٢)].

---

(١) أقول: إن كان من لم يجد في نفسه الأهلية لخدمة هذه المهنة الشريفة بما يرضي الله؛ طبعاً عليه أن يتنحى عنها جانباً ويفسح المجال لمن هو أكفأ منه وأقدر وأثبت ويرضى بما قسمه الله له من معيشة كريمة، مبتعداً عن كل ما يشين أو يسيء لهذه المهنة التي كرمها الله وأنبياؤه.

(٢) متى ١٦ ـ الآية ٢٧.

فاثبت عند نفسك ـ هداك الله ـ إنّ نفسَك رأسُ مالك، وإنّ نعيمها بالدين، وشقاءَها بالمعصية، فلا تبعْ لذّة دائمة بلذّة منقطعة. ولله درّ[١] القائل[٢]:

وقدْ تغدِرُ الدنيا فيُضحِي غنيُّها ... فقيراً ويَغْنَى بعدَ بؤسٍ فقيرُها

فلا تقْرَب الأمرَ الحرامَ فإنّه ... حلاوتُه تَفْنَى ويَبْقَى مريرُها

[١٨٣/و] **وممّا** جاء عن رسول الله ﷺ قولُه: «إنّ من أمّتي سبعين ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب، قيل: يا رسول الله، ومن هم؟ قال: الذين لا يكتوون ولا يتطيّرون ولا يسترْقون، بل على ربّهم يتوكّلون»[٣]. وهذا يشعر بأنّ الطبّ ليس من شروط الدين.

وقد جاء في مزامير داود: «والأطبّاء لا يرون وجهك»[٤].

---

(١) در: غير موجودة بالأصل، ووضعناها لصحة السياق.

(٢) هو ابن مطير، والبيتان في ديوانه ص ١٦٧.

(٣) القول في أصل النسخة: «الذين لا يكتوون ولا يستطبون ولا يرقون ولا يسترقون بل على ربهم يتوكلون» وهذا لا يصحّ. وقد ورد الحديث في (كشف الخفاء ج٢ ص ٣٩٨ الحديث رقم ٣٢٦٠): «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فلينظر.

(٤) **سامح الله المؤلف، تجنّى على الطب والأطبّاء كثيراً هنا ابتداء من زيادة كلمة (لا يستطبّون) والتي لم ترد في أي رواية من الحديث، إلى قوله: الطب ليس من شروط الدين، بينما نجد رسولنا ﷺ حث على المعالجة والدواء في كثير من الأحاديث** =

وحكى لي صادق قال: كان ابن الجزري[١] بمصر يطبّ الناس، ويصفُ لهم رمّاناً، فرأى في منامه وكأنّ القيامة قامت، والميزان وُضعت، وأُحضر الأطبّاء يتعلّق بذيل كلّ طبيب آلاف من الناس، ويرونهم ما فعلوا بهم في الدنيا، ورأى الأطبّاء في عذاب[٢].

وقد نصحتُ لك جهدي وبُحْتُ لك من خطر هذه [١٨٣/ظ] الصناعة، وهو أنّها بأقلّ ما عندي، ولو أخذت أن أكتب بجميع ما علمْتُه وما رأيتُه من مساوئ الاكتساب بصناعة الطبّ لطال الكتاب وحصل الملل لفرط الإطناب.

وإذا كنت مشتغلاً لفطنتك، وحريصاً على خلاص ذمّتك اقتنعت من النصح بالسبب، واستدللت بقلبك ما بصرتَ به على الكثير، واحضر ما انتهك[٣] به إن كنت من أهل التحقيق والنظر والتدقيق أنّك إذا كنت أحذق الأطبّاء وأذكى الألبّاء وخفتَ الله ورفقت بالمريض، وترفّقت في النظر فاستقريت العلامات واستدللت على الأسباب

= **المعروفة، أمّا قوله عن لسان داود: «الأطباء لا يرون وجهك» فلا أعتقد فيه أي وجهة من الصحة. حتى إني وجدت في المزامير إكرام الطبيب منها في سفر يشوع بن سيراخ ١/٣٨: أعط الطبيب كرامته لأجل فوائده فإن الرب خلقه. وفي ٣/٣٨: علْم الطبيب يُعلي رأسه، فيعجب به عند العظماء. والله أعلم.**

(١) لعله محمد بن المجلي بن الصائغ الجزري- توفي ٥٦٠هـ تقريباً. (الوافي بالوفيات ٤/ ٢٧٢).

(٢) طبعاً هؤلاء الأطباء بالاسم، أما الأطباء الحقيقيون الذين يتفانون في خدمة المريض ومرضاة الله فلهم أجرهم عند ربهم، وهم مع العلماء والصالحين في الفردوس الأعلى بإذن الله.

(٣) بالأصل اتهل.

وأفكرت في العلاج وفي [١٨٤/و] موادّه، واستحضرت جميع الشرائط؛ كنتَ في جميع هذا إنّما تحكم بغلبة الظنّ، وأحسب بأنّك لو اجتهدت أكثر لوضحَ لك ما هو أجلى من الأوّل.

وكذلك يريد الاجتهاد الثاني أنّك لو اجتهدت أيضاً لاشتكت[١] لك الحال أكثر، فلا تحلم بحلم إلّا وأنت تعلم أنّك لو زدت في الاجتهاد لخرج أتمّ وأكمل وأبعد عن الغلطة، فكأنّك عملت عملاً لم تتيقّن صحّته، ولم تبلغ غاية الاجتهاد فيه، وهو مع ذلك متعلّق بالأسس.

وإنّما ردعتُك بهذا القول حتّى لا تحتجّ بأن تقول: «عليّ اجتهادي». وقد اجتهد قبلك قومٌ كانوا أنبياء الطبّ [١٨٤/ظ] ومع ذلك لم تطّرد أحكامهم، ولم تستمرّ قواعدهم. وكيف والبدن الذي تحكُم عليه متغيّر على اللحظات، سريع الانتقالات، ثمّ أبدان الأشخاص وأحوال تلك الأبدان غير متناهية[٢]، ومن ذا الذي يضبط ما لا يتناهى إلا مَن حامَق[٣] وكابَر الحقّ وكذّب الحسّ.

وفي إخلال «كتاب البُثور»[٤] لأبقراط ما يكفيك في إبهام علمك، وفي انتقاض

---

(١) كذا بالأصل، وكتب فوقها بغير خط: لاستقرت.

(٢) متناهية: بالأصل متلينة، ومصححة كذا بالهامش.

(٣) بالأصل كامق، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٤) هو كتاب منسوب إلى أبقراط، وأوافق المؤلف هنا بأنه عري عن الصحة في مضمونه العلمي وفي نسبته إلى أبقراط. ومنه نسخة (ص ٦٤٦ من مخطوط المكتبة البريطانية برقم MS 12187 ـ كتاب البثور في علامات الموت المنحول لأبقراط ـ تفسير يحيى بن البطريق).

قوله: «من انخرقت مثانته مات» ما يعلّمك أنّ أحكام الصناعة ليست بدائمة الصدق، لِما ينضاف إليها وينقص من شروط لا تتناهى.

ومن [١٨٥/و] أين لك وثوق بما تصفه، ومناسبات الأبدان للأدوية والأغذية خفيّة عنك، ولن ينفعك الحكم على أمزجتها وأفعالها فقط؛ فبماذا تعلّل حال رجُلٍ كان إذا أكل نصف بيضة من بيض الدجاج انتفخ بدنه وورم بالشرى، وآخر كان إذا أكل لحم النعاج ولو لم يستقرّ به قذف كل ما في جوفه، وغير ذلك كثير.

وكلّ صناعة وإن كانت بطبعها لا يمكن النظر في استقصائها، ولا إخراج كلّ ما فيها بالقوّة إلى الفعل، إلّا أنّ التقصير فيها لا ينبني عليه عطب الأبدان(١).

فارجع ـ أصلحك الله ـ إلى عقلك [١٨٥/ظ] ودينك، ولا تسلّط وهمك على نفسك، واجعل نصيحتي هذه فوزاً بيمينك، لتستريح في دنياك من هوان هذه الصناعة، وشؤمها وهمومها وغمومها، وفي آخرتك من أخطارها وأوزارها والعقوبة

---

(١) هذا لا يعني أن نقف دون مهنة الطب، ونتركها للمزعبرين والطرقية، بل على العكس مهنة الطب وإن كان فيها غوامض في القديم كشفت بتطور الزمن والعلم، فنحن حتى في وقتنا الحاضر نقف عاجزين حيال الكثير من الأمراض، ولكن لا يعني هذا أن نيئَس ونهجر الطب، بل نتابع البحث والدراسة، وسنصل إلى ما يمكن الوصول إليه، فالعلم بحور ولا يصل الإنسان إلى نهايته، فلن يؤتى الإنسان مهما طال الزمن إلا القليل من العلم- كما علمنا خالقنا الباري عز وجل ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

على ذنوبها ومضارّها، والله يهديك بالعقل والدين، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القلم: ٧ ـ النحل: ١٢٥]. إن شاء الله تعالى.

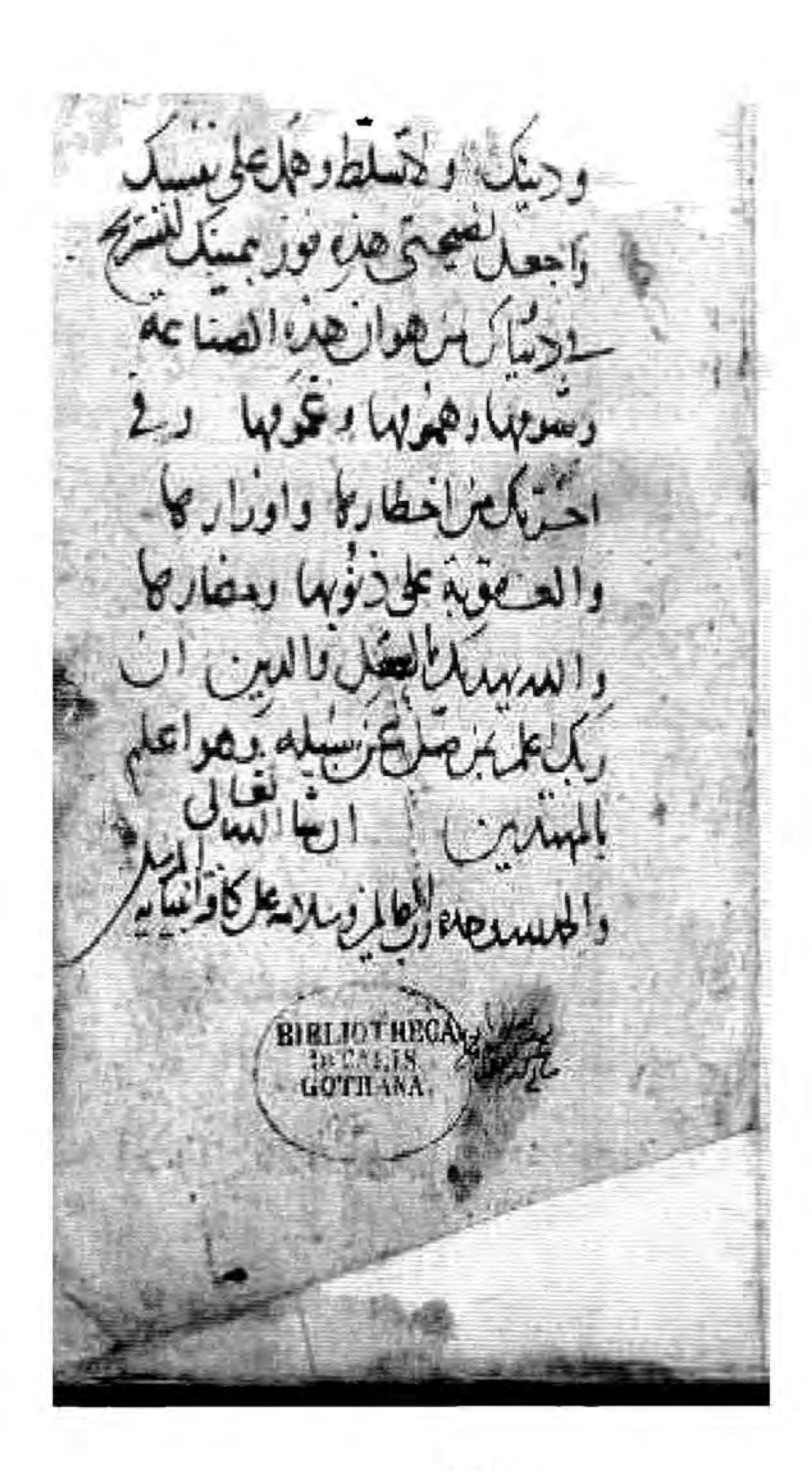
والحمد لله وحده، ربّ العالمين،

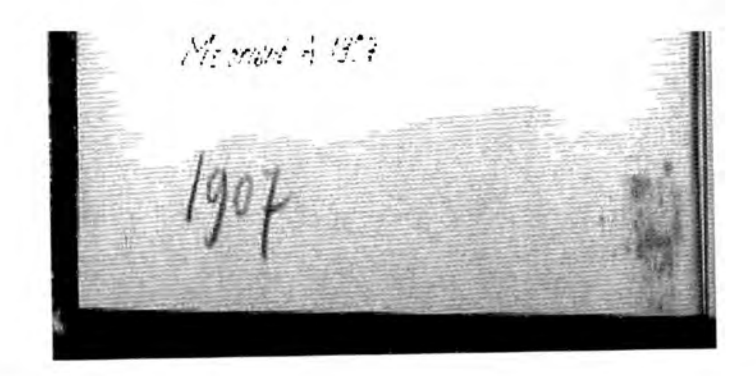
وسلامه على كافّة أنبيائه

المرسلين(١)

---

(١) بعده خاتم مكتبة جوتة. وبجانبه كتب بالخط المغاير كلمات لم نتحققها، ولعل منها (أصلحه... سابع عشر ذي القعدة).






A. 1907.
564.

الفهارس العامة

وفيها الفهارس التالية تباعاً، وقد أشرت إلى المكان الذي وردت فيه المفردة من أصل المخطوط، وذلك بوضع رقم الصفحة من المخطوط كونها ثابتة لا تتغيّر مع تغير أرقام الصفحات أثناء الطباعة، فمثلاً: [٩/و]، [١٧/ظ] وهكذا، وحين تكرر الكلمة في أكثر من ثلاث صفحات وضعت إشارة ++.



فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبويّة الشريفة

فهرس الأعلام

فهرس أسماء الكتب التي وردت في متن المخطوط





فهرس الأشعار والأقوال

فهرس الأماكن والبلدان والأقوام





فهرس المفردات

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الإنجيل المقدّس.

مزامير داود.

إخبار العلماء بأخيار الحكماء؛ علي بن يوسف القفطي، طبعة الخانجي بمصر ١٣٢هـ.

اصطلاحات الطب القديم؛ للدكتور محمد **ياسر زكور**، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠١٧م.

الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م.

أعيان العصر وأعوان النصر؛ خليل بن أيبك **الصفدي** (٧٦٤هـ)، دار الفكر ـ دمشق ١٩٩٨م.

الأنساب: عبد الكريم بن محمد **السمعاني** (٥٦٣هـ)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ١٩٧٧م.

البثور في علامات الموت؛ المنحول **لأبقراط**، تفسير يحيى بن البطريق (القرن الرابع الهجري): مخطوط في مجموع برقم (MS 12187) في المكتبة البريطانية ص٦٤٦.

تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد مرتضى الزبيدي، طبعة الكويت ٢٠٠١م.

تذكرة داود المسمى تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، **الأنطاكي**، داود بن عمر، مجلدين، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦م.

تكملة المعاجم العربية، : رينهارت دوزي، تعريب محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠م.

تهذيب سير أعلام النبلاء؛ محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ)، أشرف على تحقيقه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٩١م.

تهذيب اللغة؛ محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠١م.

الحاوي في الطب: لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي، مراجعة محمد محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠٠٠م.

الخطط المقريزية؛ أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥هـ)، دار صادر ـ بيروت، طبعة بالأوفست.

الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (٩٧٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠م.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة؛ **ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)**، طبعة دار المعارف عن نسخ سالم الكرنكوي.

ديوان أبي الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو بن سفيان (٦٩هـ)؛ صنعة أبي سعيد

الحسن السكري (٢٩٠هـ)، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ١٩٩٨م.

ديوان البحتري؛ تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

ديوان ابن بسام البغدادي علي بن محمد بن نصر (٣٦٠هـ)؛ تحقيق د. مزهر السوداني، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٩م.

ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت (٢٤٦هـ)، دراسة د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣م.

ديوان دريد بن الصمة، تحقيق الدكتور عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة.

ديوان ابن الرومي (٢٨٣هـ)؛ شرح الأستاذ أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠٠٢م.

ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣م.

ذيل لب اللباب في تحرير الأنساب؛ أحمد بن أحمد العجمي الوفائي (١٠٨٦هـ)، تحقيق د. شادي آل نعمان، مكتبة ابن عباس، اليمن ـ صنعاء ٢٠١١م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٧م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛ **ابن العماد الحنبلي**، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة ١٠٨٩هـ)، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ١٩٩٣م. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط.

شرح ديوان أبي تمام (حبيب بن أوس ٢٣١هـ)؛ الخطيب التبريزي (٥٠٢هـ)، تقديم راجي الأسمر، دار الكتاب العربي ١٩٩٤م.

شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة؛ محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.

شرح مقامات الحريري؛ أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ـ بيروت ـ صيدا ١٩٩٢م.

شرح نهج البلاغة؛ ابن أبي الحديد، تحقيق محمد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد ٢٠٠٧م.

صبح الأعشى في صناعة الإنشا؛ **القلقشندي**، أبو العباس أحمد بن علي (توفي ٨٢١هـ)، ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ـ ١٩٦٣م.

الصحاح، إسماعيل بن حماد **الجوهري** (٣٩٨هـ)، دار الحديث القاهرة، ٢٠٠٩م.

عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء؛ لابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم بن خليفة، نقل امرؤ القيس بن الطحان، المطبعة الوهبية ١٨٨٢م.

غريب الحديث؛ القاسم بن سلام الهروي (٢٢٤هـ)، تحقيق حسين محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ القاهرة ١٩٨٤م.

غريب الحديث؛ عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥٩٧هـ)، توثيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤م.

الفتوحات المكية، محيي الدين محمد بن علي (**ابن عربي** ـ ٦٣٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩م.

فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا، ششن، رمضان، ١٩٨٤م.

فهرس معهد المخطوطات (عن موقع معهد المخطوطات)

http://41.32.191.214/cgi-bin/koha/opac-ISBDdetail.pl?biblionumber=38965

فهرس مخطوطات مكتبة جوتة بألمانية.

Orientalschen Manuschriften Herzoglichen Zu Gotha, gotha 1878.

DIE

ORIENTALISCHEN HANDSCHRIFTEN

DER

HERZOGLICHEN BIBLIOTHEK ZU GOTHA.

AUF BEFEHL

SR. HOHEIT DES HERZOGS ERNST II. VON SACHSEN-COBURG-GOTHA

VERZEICHNET

VON

DR. WILHELM PERTSCH.

DRITTER THEIL:

DIE ARABISCHEN HANDSCHRIFTEN.

ERSTER BAND.

GOTHA.

FRIEDR. ANDR. PERTHES.

1878.

فوات الوفيات والذيل عليها؛ محمد بن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت ١٩٧٣م.

فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر؛ الحموي، ثم المكي، مصطفى بن فتح الله، تحقيق الدكتور محمد ياسر زكور، لم يطبع بعد.

القاموس المحيط: محمد بن يعقوب **الفيروز آبادي**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ٢٠٠٥م.

القانون في الطب: تأليف الحسين بن علي بن سينا، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٩م.

كتاب بغداد؛ ابن طيفور أحمد بن طاهر الكاتب (٢٨٠هـ)، تحقيق محمد زاهد الكوثري، الناشر عزت العطار الحسيني مؤسس مكتبة النشر الإسلامية ١٩٤٩م.

كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي.

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس؛ **العجلوني** الجراحي، المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد، المتوفى سنة ١١٦٣هـ، مكتبة القدسي ١٣٥١هـ.

اللزوميات لأبي العلاء المعري، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، منشورات مكتبة الهلال ـ بيروت، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٢٤م.

لسان العرب: لابن منظور، دار المعارف، القاهرة.

مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني (٥١٨هـ)، دار المعرفة بيروت.

محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء؛ للراغب الأصفهاني، هذبه إبراهيم زيدان، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ١٩٠٢م.

المحكم والمحيط الأعظم؛ لابن سيده علي بن إسماعيل (٤٥٨/هـ)، تحقيق عبد الهادي هنداوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠٠٠م.

محيط المحيط؛ بطرس البستاني، مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٨٧م.

مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان ١٩٨٦م.

المخصّص: علي بن إسماعيل الأندلسي (ابن سيده)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، أوفست.

مروج الذهب ومعادن الجوهر؛ **المسعودي**، أبو الحسن علي بن الحسين (توفي ٣٤٥هـ)، ٤ مجلدات، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت ـ لبنان ٢٠٠٠م. وطبعة المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦هـ.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، **لابن فضل الله العمري** أحمد بن يحيى (٧٤٩هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠١٠م.

معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص، عبد الرحمن بن عبد الرحمن العباسي (٩٦٣هـ)، وبهامشه بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي، المطبعة البهية المضرية، مصر ١٣١٦هـ.

معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)؛ ياقوت الحموي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ١٩٩٣م.

معجم أسماء النبات: أحمد عيسى بك، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٤٩هـ.

معجم الأطباء؛ **عيسى، الدكتور أحمد**، دار الرائد العربي، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٢م.

معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر ـ بيروت ١٩٧٧م.

معجم التعريفات؛ علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (٨١٦هـ)، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة ٢٠٠٤م.

معجم الشعراء: محمد بن عمران بن موسى **المرزباني** (٢٩٧ ـ ٣٨٤هـ)، تحقيق د. فاروق اسليم، دار صادر ـ بيروت ٢٠٠٥م.

معجم المؤلفين؛ عمر رضا **كحالة**، مؤسسة الرسالة ١٩٥٧م.

المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية إستنبول ـ ١٩٧٢م.

منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان؛ **ابن أبي نصر، داود**، أبو المنى العطار الإسرائيلي الهاروني (كان حياً ٦٥٨هـ)، طبع سنة ١٢٨٧هـ في عهد الخديوي إسماعيل، على ذمة الشيخ حسن زغلة، بمطبعة حسين بك حسني. وطبعة المكتبة اليوسفية بشارع الكتبخانة بمصر.

الموشى، أو الظرف والظرفاء؛ محمد بن إسحق الموشى (٣٢٥هـ)، مكتبة المثنى ببغداد.

نثر النظم وحل العقد؛ عبد الملك بن محمد الثعالبي (٤٢٩هـ)، مطبعة معارف الولاية الجليلة بدمشق ١٣٠٠هـ.

نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة؛ محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٨م.

نهاية الأرب في فنون الأدب؛ أحمد بن عبد الوهاب النويري (٧٣٣هـ)، تحقيق الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠٠٤م.

هديّة العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين؛ إسماعيل باشا **البغدادي**، وكالة المعارف ـ استنبول ١٩٥٥م.

الوافي بالوفيات؛ صلاح الدين خليل بن أيبك **الصفدي** (٧٦٤هـ)، تحقيق أحمد أرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت ٢٠٠٠م.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ أحمد بن محمد بن خلكان (٦٨١هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر - بيروت ١٩٧٨م.



فهرس محتويات الكتاب

الإخراج الفني

تهاني محمد مارديني



كتُب للمحقّق

١ ـ نزهة الأذهان في تدبير الأبدان لداود الأنطاكي، (تحقيق). وزارة الثقافة بدمشق ٢٠٠٧م.

٢ ـ الطب الملوكي لأبي بكر الرازي (تحقيق)، دار المنهاج بجدة ٢٠٠٩.

٣ ـ الزهراوي في الطب لعمل الجراحين لأبي القاسم الزهراوي (تحقيق)، وزارة الثقافة بدمشق ٢٠٠٩م.

٤ ـ المغْني في تدبير الأمراض لسعيد بن هبة الله (تحقيق)، دار المنهاج بجدة ٢٠١١م.

٥ ـ تاريخ الطب والأطبّاء في إدلب الخضراء (تأليف)، دار الفتاة بدمشق ٢٠٠٩م.

٦ ـ الأسرة في التراث الطبي العربي والإسلامي (تأليف)، وزارة الثقافة بدمشق ٢٠١٠م.

٧ ـ شرف الطب في التراث العربي (تأليف)، اتحاد الكتاب العرب بدمشق ٢٠١٣م.

٨ ـ غاية البيان في تدبير بدن الإنسان لابن سلوم الحلبي (تحقيق)، وزارة الثقافة بدمشق ٢٠١٣م.

٩ ـ كتاب الطيب لأبي الحسن الخازن (تحقيق)، وزارة الثقافة بدمشق ٢٠١٥م.

١٠ ـ غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان لابن سلوم الحلبي (تحقيق)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠١٧م.

١١ ـ شجرة الطب لأحمد الحياتي (تحقيق)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠١٧م.

١٢ ـ الجوارح وعلوم البزدرة لأبي بكر القاسمي (تحقيق)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠١٧م.

١٣ ـ اصطلاحات الطب القديم (تأليف)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠١٧م.

١٤ ـ التحفة البكرية في أحكام الاستحمام الكلية والجزئية لداود الأنطاكي (تحقيق)، دار الكتب العلمية ٢٠١٧م.

١٥ ـ الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية لمحمد بن إبراهيم المارديني (تحقيق)، دار البارودي ـ بيروت.

١٦ ـ غاية الغرض في معالجة المرض لمنصور الحسيني (تحقيق)، دار البارودي ـ بيروت.

١٧ ـ المعْلَم على حروف المعجم في تعبير الرؤيا لابن غنام (تحقيق)، دار البارودي ـ بيروت.

١٨ ـ المنصوري في الطب لأبي بكر الرازي (تحقيق) ـ مؤسسة الرسالة ناشرون ـ بيروت.

١٩ ـ البهجة الأنسيّة في الفراسة الإنسانيّة، لزين العابدين محمد الغَمري (تحقيق) ـ دار الكتب العلمية.

٢٠ ـ أساس الرئاسة في علم الفراسة؛ ابن الأكفاني (تحقيق)، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠١٧م.

٢١ ـ شرح تقدمة المعرفة لأبقراط، تأليف عبد الرحيم بن علي الدَّخْوار، (تحقيق) ـ مؤسسة الرسالة ناشرون ـ بيروت.

٢٢ ـ إظهار حكمة الله تعالى في خلق الإنسان ـ لأبي سهل المسيحي، (تحقيق)، مؤسسة الرسالة ناشرون ـ بيروت.

